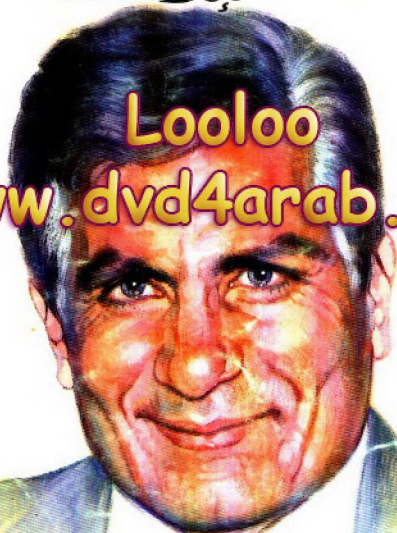


يوسف ادريس

للدراسة

Looloo

www.dvd4arab.com



علاء الدين



عطاء لا ينقد

بعد ربع قرن من العطاء لم يعد يوسف إدريس في حاجة إلى من يقدمه للناس ، لكن احتياجهم للاحتفاء به لم يتوقف يوما !!

ومنذ نشر قصصه الأولى .. على مشارف الخمسينات — أدرك الذين يقرأون أن مغامرا شجاعا في عالم الجمال قد تخلق . وهكذا نبضت قصصه الأولى — التي كتبها في عشرينات عمره — برائحة عالم فني جديد ، وتشكلت القصة العربية القصيرة — من خلال عطائه — لتصبح بساطة أسرة ، ولتشع عمقا إنسانيا دافئا ، هو الحصاد الطبيعي للحنو الدافق للإنسان ، والحب المشبوب له ، ذلك الذي جعل مغامرة يوسف إدريس الجمالية مرحلة يتدعى بها عصرا جديدا في الأدب العربي .

في مصر — ١٩٢٧ — ولد يوسف إدريس في واحدة من قرى محافظة الشرقية ، إحدى . محافظات (الوجه البحرى) . وشهدت طفولته فصولا من تراجيديا الأزمة الاقتصادية العالمية ، ومشاهد من النضال المصرى العنيد والمستبسل ضد الاستعمار ومن أجل الديمقراطية .. وسرعان ما أصبح واحدا من العناصر التي صبت في مجرى هذا النضال في الأربعينات ، وفي سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، عندما كانت أمتنا العربية تعاني مخاض الميلاد الجديد ، بحثا عن استقلالها ووحدتها وصدى للقوى التي كانت تريد أن تكرر أوضاع عالم ما قبل الحرب !

وأعطته دراسته للطب ، وعمله به لسنوات ليست بالقليلة ، الفرصة لاكتشاف قارته الفنية الخاصة ، واستطاع — بقدرته الفائقة على النقاط أصغر الجزئيات ، وأكثرها دلالة — تخليق عالم متكامل من الفرح الفني الآسر ، يعتمد الإنسان البسيط ، مطحونا ومسحوقا وضاحكا وحزينا ، بطلا .

ولولا أنه منذ البداية صاحب موهبة يتدر تكرارها ، وصاحب مقدرة على الملاحة في البحار الصعبة ، لكان قد صمت بعد مجموعاته الأولى . لكن يوسف إدريس عاش في وجدان نقاد الأدب كما عاش في وجدان القراء لأنه لم يتوقف يوما عن الإبداع الجديد ، ولم يكف عن المغامرة الفنية بكل أبعادها .. كما أنه لم يكف عن تجربة كل الأنواع الأدبية ، فكتب المسرحية والرواية ، والرواية القصيرة ، كما كتب المقال والحاضرة .

فصاحب « أرخص البالي » — ١٩٥٤ . — هو الذى كتب بعدها ثمان مجموعات أخرى هي « جمهورية فرحات » — ١٩٥٥ — أليس كذلك ؟ — ١٩٥٨ — البطل — ٥٦ — حادثة شرف — ٥٦ — آخر الدنيا — ٥٨ — لغة الآى آى — ١٩٦٧ — النداهة — ١٩٦٩ — بيت من لحم — ١٩٧٣ — فضلا عن مجموعة أخرى تحت الطبع .

وكتب يوسف إدريس ثمان مسرحيات مثل بعضها على المسرح ، بينما حجب الآخر لأسباب رقابية ، « جمهورية فرحات » — ١٩٥٨ — ملك القطن — ١٩٥٨ — اللحظة الحرجة — ١٩٦٠ — الفرافير — ١٩٦٥ — المهزلة الأرضية — ١٩٦٨ — المخططين — ١٩٦٩ —

الجنس الثالث — ١٩٧١ — فضلا عن شلة الغد — تحت الطبع . وكتب يوسف إدريس خمس روايات هي : الحرام — ١٩٥٨ — العيب — ١٩٦٢ — رجال وثيران — ١٩٦٢ — العسكرى الأسود — ١٩٦٠ — البيضاء — ١٩٦٨ — كما صدر له كتابان ضمنهما خواطره وانطباعاته هما « بصراحة غير مطلقة » ١٩٦٩ و « اكتشاف قارة » ١٩٧١ .

وفى بداية العام ١٩٧٥ أصيب يوسف إدريس بانزلاق غضروفي . ثم بتليف من العلاج الخاطئ ، أثر على قلبه ، فسافر إلى أمريكا حيث أجرى عملية جراحية خطيرة ، ومكث هناك ستة أشهر يعالج من آثارها ، وبدأت تجربته فى مواجهة الموت تطرح نفسها فى كتاباته ، فبالإضافة إلى روايته الجديدة « أفتح القلب » التى قال عنها فى حديث صحفى إنها لو صدرت على النحو الذى يتخيله لكف تماما عن الكتابة ، إضافة إلى ذلك استأنف يوسف إدريس بعد عودته كتابة يومياته الأسبوعية ، فى جريدة الأهرام ، فاستمر على امتداد عدة أسابيع يكتب عن تجربته فى اكتشاف أمريكا وفى مواجهة الموت .

ثم ها هو يوسف إدريس فى هذه السلسلة يواجه حياتنا المصرية والعربية بجرأة واقتحام ، داعيا للتحرر والمواجهة وكى نأخذ قرارنا بأن نعيش العالم المصرى والعربى حياة غير تلك الحياة المؤلفة التى نعيشها !

لحظات الحياة والموت تصبح لا معنى لها بالمرة ، ولا أثر لها بالمرة ،
والمشاكل كثيرة كثيرة وكل شيء وكل شخص وكل تصرف في حاجة إلى
نقد وتقييم وتقويم ، ولكن المرعب هو .. كيف وأنت في هذه الحالة
تستطيع أن تتمالك نفسك و (تنفصل) عن المشاكل وتحكم عليها حكما
(موضوعيا) . أنت في قلب المشكلة . أنت وأنا وكلنا ، مرضى
الأزمة . أزمة مادية جماعية خانقة من المحم أن يصحبها أزمة روحية
خطيرة . حتى الذاكرة أصبحت وقتية ، والتصرف أصبح ابن لحظته ..
فعل ورد فعل .. فعل ورد فعل .. مئات الملايين من ردود الأفعال
التلقائية المتصادمة نتيجتها تأزم أكثر . لكان الواحد منا يحيا اللحظة وهو
في كل ثانية يريد أن يستغث بأعلى صوته ويجار ويقول للعالم : لا .. لم
أعد أحتمل . هذا فوق طاقة البشر . حتى الموت أصبح مطلباً صعباً من
الترف التفكير فيه . بل الانتحار نفسه اختفى ولم نعد نقرأ عن أناس
يلقون أنفسهم من فوق البرج أو المجمع ، ذلك أنه حتى الانتحار في
حاجة إلى قرار وخطة .. ولا وقت ولا (نفس) لرؤية قرار أو عمل
خطة .. التكت نفسها اختفت ، ولم تعد نكت .. فالتكت ذلك التأمل
الساحر ، تحتاج أولاً إلى متأمل .. فإذا كان الكل حتى التأمل بطبعه في
أزمة ، فالتكت تموت قبل أن تولد .. بل المتعة نفسها غير موجودة ،
وكان لم يعد شيء ممتع ، كل الأشياء لها نفس الطعم ونفس المذاق ،
مذاق اللامذاق ، فالتدوق والتمتع في حاجة إلى جهاز عصبي سليم ،
وكائن سليم ، ونفس مفتوحة .. ونحن لحظة يحيا الإنسان يؤرقه
الألم الطاعى والقلق الأعظم ليس فقط من اللحظة التالية ، ولكن : ماذا

و .. وجهاً لوجه مع رجل الشارع

وليكن الرأى هذه المرة من الطرف الآخر للمشكلة . رجل الشارع
واحد من مئات الواقفين في قبض الظهيرة ينتظرون الأتوبيس . واحد من
العشرات الواقفين في طابور الجمعية ، واحد ممن تزدحم بهم المكاتب
والغرف وعناير المصانع . ولكن أيهم أختار ؟ قد تجد المشكلة في الرجل
ولكنك لن تجد لديه القدرة على التعبير عنها ، أو قد تجد المقدرة على التعبير
وحتى المبالغة فيه ولكنك ستجدها مشكلة محدودة بشخصه أو بعمله .
في محاولتي البحث عن رجل الشارع وما يعانيه من مشاكل بدأت ألاحظ
الناس بدقة أكثر ، وبدأت أدرك ليس فقط صعوبة الاختيار ، وإنما حتى
صعوبة الرؤية . فنحن نحيا وكأنا نحيا نلهث . الأزمة . الإنسان المصري
تحول إلى كائن غريب حتى على نفسه . لم تعد أقواله أو تصرفاته مبنية على
أساس عقل أو محسوب ، إنما هو بقوة الدفع الغريزية يتصرف في حالة
تحفز مستمر وردود فعله بالغة التوتر . والإنسان المصري هذا موجود فينا
كلنا ، فأي الذي أحاول أن أعبر ، وحالتنا حالة من الصعب معها حتى
أن (نفكر) مجرد أن (نفكر) .

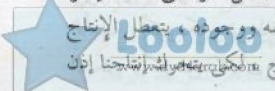
أى تتأمل وتعي وتحلل وتأخذ موقفاً ورأياً . هذا كله ترف لا يملكه
المواطن العادى ولا الكاتب . الكتابة نفسها في اللحظات الفاصلة ،

يحدث غدا وبعد غد ، وأولادى إلى آخره . لقد ترايدت المشاكل ، كثرت ، قلت حركة الإنسان ، حوصرت من كل النواحي . لا يخرج . كلما حاول الخروج يغوص أكثر .

ذلك انطباعي الأول وأنا أحاول معرفته رأى ما كان يسمى فى الماضى (رجل الشارع) ، عرفت رأى رئيس الوزراء . والآن أريد أن أعرف الرأى الآخر . المشكلة كيف ؟ من تختاره ليحدث ويفضض ليغير عن الكون العام الذى نحيا فيه كلنا وعن رأيه فى قوانينه ولوائحه وأخطائه . لكل كونه الخاص الغارق فيه حتى أذنيه ، مهمارفع البصر ، لا يرى أبعد من مشاغله الوقتية الحادة . وتعتقد أن الزمن لا بد هو الآخر متوتر ، وأن لا وقت لأى شئ ولكن الكارثة أن الزمن ممتد وطويل طويل .

كيف اخترق الحاجز الصوتى والبصرى الكائن بينك وبين أى إنسان حولك . معا نحيا هذا صحيح ، ومعانعاى ، فى الأتوبيسات تنكدس ، فى المجمعات نختنق ، لكى ننتزع لقمة عيش أخيرة لا بد أن (نقاتل) . قتالا حقيقيا رهيبا عذره أنه قتال ضد اللاشئ . فلا عدو واضح تضربه كما حدث فى العبور وتنتهى . ليت مشاكلنا كانت كلها خط بارليف وعبور القناة ! فلو كانت مبلورة هكذا ومحددة لانتبهنا منها من زمن بعيد . إن حل المشكلة يكمن فقط فى إدراكك لها . بمجرد وضع يدك على المشكلة فهذا يعنى حلها . ولكن ما نعانى منه الآن أشياء لا نستطيع بالضبط أن نضع أيدينا عليها . هل المشكلة أن المياه ملوثة أو أن بعض

المسؤولين اختلسوا أموال التبرعات واعتمروا بها ؟ طيب .. فرضا أن الماء لم يكن ملوثا ، وأن أحدا لم ينجح اختلاسا فهل كنا سنستريح وتنتهى الأزمة ؟ . أبدا . إن هى إلا أعراض كلها . وتستطيع أن تعد ليس فقط اختلاسا هنا أو هناك أو سرقة أو رشوة أو (قرع) . و (كوسة) . لا تؤاخذنى فى استعمال الكلمات فقد أصبحت عادية ودارجة ومن قواميس المرحلة . نستطيع أن تعد آلاف الآلاف من (الأعراض) . أما المرض نفسه فما هو ؟ ماذا يشقينا ؟ فلنقل أو بالتأكيد هذا هو الشئ الأول الملموس إن المشكلة مادية محضة . وجود الشخص منا على قيد الحياة أصبح يتطلب منه نقودا لا يكفى دخله لإيجادها . المضحك أن هناك دولا أخرى تعاني من (التضخم) ، أى أن هناك فيها نقودا كثيرة وبضائع قليلة . نحن نعانى من عكس أزمة التضخم تماما . بل حتى من أزمة الأزمة . فلا توجد نقود وحتى لا توجد بضائع . والمشكلة أننا نحيا ولا بد أن نظل نحيا ولهذا دائما نحن نسأل أنفسنا فى كل دقيقة : ما العمل ؟ . ومن أين نحصل على النقود ؟ . مجالات الإنتاج وبيع العمل تحتنق ذلك لأن الأزمة أربكت تماما جهاز الإنتاج .. عمالة زائدة كثيرة جدا . أكثر بكثير مما تتطلبه عملية الإنتاج ، ونتيجة كثرتها أن ينخفض الإنتاج أكثر وأكثر . أى مكتب حكومى . تجده مكتظا إلى حافته بالموظفين . ماذا يفعلون ؟ لا شئ . أفندى محترم معه بكالوريوس أو ليسانس معين ويقبض ماهية وعمله أن لا يعمل . ومعنى هذا ، ونظرا لتدخله فى عملية الإنتاج لجسمه وشخصه . يتعطل الإنتاج أكثر . بمعنى أن المكاتب مكتظة ولا إنتاج .



ويعطينا نقوداً تكفيها يستلزم الأمر عقولاً وأعصاباً وإنساناً سليماً على الأقل (يفكر) فيما يجب عمله . ولكننا في هذا الازدحام الأجوف لا نستطيع أن نفكر أو ندبر . نحلم . أجل نحلم . أن تهبط علينا القلوس من السماء . أو من دول النفط . كيف سنهبط ، وهل الحل أن توجد ليلة قدر لكل واحد ، أو صرف ثلاثين جنيتها . صرفت وصرفناها . وبقي كل شيء على ما كان عليه والموقف ينحدر إلى أسوأ . لا يعيش الناس بالإحسان أو بالقروض . الناس تعيش بعرقها وكدها . ولكن العرق والكد وحده لا يعود بالنقود . لايد من وجود نظام إنتاج وعمل تستثمر فيه عرقك ليعود عليك بالنفع والنقود . المأساة أن أسس الإنتاج من مصانع أو جامعات أو دكاكين أقل بكثير من أن تستوعب طاقة ملاييننا الكثيرة على العمل والإنتاج . الخبرة موجودة والقدرة موجودة . موجودة بكثرة زائدة عن الحد . تتكسد وتتكدس ويتزاحم الناس داخل الأنوبيس وداخل البيوت وفوقها وداخل الفصول وداخل الورش . زحام . زحام كثير . وعجلة . عجلة عصبية زائدة فارغة الصبر . الكل متعجل . ليصنع ماذا ؟ . لا أحد يعرف . تشبه موتور عربية كبيرة يعوى بالصوت والضجيج والصراخ والكلاكسات ولكن العربية نفسها لا تتحرك . إننا جميعاً ، وأقوالها صادقا ، مسئولين وغير مسئولين ، حاكمين ومحكومين لا نقدر ولا ندرك بالضبط الواقع الغريب الذي نعيشه . إن المطلوب أكثر بكثير من قدرة أجهزة تخطيطنا الحكومية وحتى الأهلية . أكبر بكثير من طاقة رجل أو عشرة أو مائة أو عدة آلاف على التفكير . أكبر من ذكاء أى منا بمفرده ومقدرة أى منا بمفرده .. وهذه هي

الحقيقة .. إن المشاكل التي تعاني منها هي نفسها المشاكل التي أعانى أنا منها ، قد تختلف بعض الشيء في التفاصيل ولكنها جذريا نفس المشاكل . حلولا إذن ليست فردية بأن تهبط على أى منا ثروة من السماء تنقذه وتنقذ أولاده أو أن يهاجر إلى بلاد أخرى فيها العمل وفيها الكسب والنقود ، فهذه كلها قد تحل مشكلة واحدة أو عائلة أو حتى بعض العوائل والقرى والمدن على أقصى تقدير ، ولكنها أبدا لا تحل مشكلة (أمة) . أمة بأكملها تخوض مشكلة رهيبية تنبئ أمامها ربما لأول مرة في تاريخها الطويل : تكون أو لا تكون . لا نسأل السؤال واقفين أو متأملين ولكنها نسأله ونحن نلهث ، وسيات غير مرئية تلهب ظهورنا ونحن ندفع بسرعة مخيفة وكتلة جماهيرية رهيبية . تندفع ، وحتى لا نعرف إلى أين في أوضاع كهذه يصبح الحديث عن المضايقات الشخصية أو الخاصة تافها إلى أبعد حدود التفاهة . بل يصبح الحديث عن مشكلة واحدة بذاتها لا معنى له بالمره . فهل المشكلة غلاء الأحذية ؟ إن أسعارها صحيح قد أصبحت تدعو للتذمر والدمشة . ولكن المنظر العام أغرب ألف مرة .

* * *

ماذا أهدف بكتابة هذا ؟ . أليس يربك أكثر أن تقول للمرتبك أصلا إنك مرتبك . وماذا يفيد قولك المخنوق بالآزمة أن لديك أزمة . هو يعرف وأنا أعرف وكلنا نعرف . هو يئن وأنا أئن وكلنا نئن الأحمال ثقيلة ولكنها بلغت من الثقل حد استحالة الشعور بنقلها . أكتب لماذا ولماذا وهل لأكشف عن فساد هنا أو هناك وأنا أعرف وأنت تعرف وكلنا نعرف عن

الفساد أكثر بكثير مما كتب أو يكتب أو يمكن كتابته . الروح في الحلقوم
وكأننا في يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه . فعلا . في قسم الدقي رأيت
رجلا يحمل طفلا رضيعا على يديه وحوله ثلاثة أطفال آخرون ويكي أمام
المأمور ويقول : امرأتي هربت . تركت الأطفال وهربت . أى قوة دافعة
رهبية تجعل الأم تترك وليدها وتهرب ؟ لا بد أن مايعانى منه البعض ويعتقد
أنه أبشع الأشياء ، يوجد أبشع منه بكثير .

حتى أحكامنا لم أعد أثق بها كثيرا فهي ليست صادرة عن روية أو
تفكير إنما هي على الدوام أحكام (انفعالية) ، بنت اللحظة ، أى ردود
فعل وليست أبدا نتيجة موازنة ثم اتخاذ موقف . الحوادث المؤسفة ليست
إلا التصرف الجماعى لما يتصرفه أى منا بمفرده أو يقوله بمفرده . هي
نفسها الولد أو الرجل المسك بمسماز يحك به بياض المنزل أو دوكو
العربة ويغربه . هي نفسها ألفاظ البذاءة تسمعها على الهواء من جماهير
الكرة ، فقط على السطح تطفو التصرفات وتتصور أنها (ظاهرة) . لا
أعرف ماذا أصبح يعجبنا وماذا أصبح لا يعجبنا . أحكام محمومة
كتخاريف الجوعان أو الصائم أو الضائق ذرعا بكل شيء وأى شيء .

أكتب إذن لأحاول أن أرى ولأحاول أن نرى جميعا ماذا يحدث لنا .
فقط نراه . فنحن نحيا لانرى ، ولا نريد أن نرى لأننا نعرف أن ما سوف
نراه سيقبض أنفسنا وأنفسنا ليست في حاجة لاكتئاب أكثر . هي مشبعة
به ولا داعي لأى مزيد . ذلك لأننا في العادة نرى وحدنا ، وننظر بعيوننا
الخاصة إلى وضع كل منا الخاص ووضع الآخرين منه . ربما لو رأينا كلنا

معا ، ربما وضحت الرؤية لنا كلنا ، فالرؤية هي النور ، والظلام
هو أن نغلق أعيننا . والرؤية الجماعية هي الوسيلة الأولى والوحيدة ليس
فقط لحل المشاكل وإنما حتى لمواصلة الحياة .

لا أعرف ما الحل ، ولكن الواضح والمتم أننا في حاجة إلى شجاعة
كبرى وإلى مصارحة أنفسنا مصارحة تامة . لم تعد المسألة مسألة شعب
وحكومة ، والحكومة من هي ؟ إنها نحن أيضا موظفون ومتعاملون ، لم
تعد المشكلة مشكلة وزارة أو وزير ، المشكلة هي نحن جميعا .. نحن
المشكلة .. هل تبلغ بالشجاعة حد أن نعرف نحن الشعب المصرى أننا
نواجه أزمة وجود حقيقى وفى كل مجال . وأن لا حل لهذه الأزمة إلا
باشتراكنا جميعا فى رؤيتها وإدراكها وبالتالى حلها . لم نكن فى حاجة إلى
مؤتمر شعبى حقيقى . مؤتمر لا يحفل بالخطباء والمتحدثين وإنما اجتماع
يضمنا معا أو يضم ممثلينا وكل قدراتنا العقلية وكل خبرائنا وعلمائنا ،
تندرس فيه بلا ضغائن ضد بعضنا البعض ولا الكرات أو ضربات فنحن
تنهش ونغريش أنفسنا وكأنما قد أصبحنا نكره بعضنا البعض إلى درجة
مخيفة ، وكأن كل منا هو السبب فى أزمة الآخر فى حين لو عرفنا أن كلا
منا مأزوم هو الآخر ويعانى من نفس الأوضاع وأننا بدلا من إلقاء التهم
والضربات بالأقدام والقبضات وإضاعة وقت كثير فى مهارات جانبية .

نركز ههنا كله فى مشكلة وجودنا نفسه ، وجودنا ككل ، ونحدد
بالضبط ماذا نعانى منه وكيف نعالجه ، أيضا ككل . فكما قلت المشكلة
ليست خاصة بأى منا على حدة ، فالذى دخله عشرون جيبا مثلا
يتصور أن كل مشاكله ستحل لو صار دخله مائة جيبه ، ولكن

المضحك أن الأعباء تزيد بزيادة الدخل بحيث لو صار دخله مائة جنيه فستظل أعباءه أكثر بكثير . صحيح أن مواجهة العدو عسكريا تكلفنا الكثير ولكن جهاز الحكومة نفسه وأجهزة القطاع العام نفسها بل وحتى القطاع الخاص غير قادر على إعطاء إنتاج يكفينا ويكفي احتياجاتنا . المضحك أن ما نعانیه كأفراد تعاني منه الدولة نفسها . فالدولة المصرية كالفرد المصرى فى حالة تأزم وتعطل إنتاج . لو سألت كل منا نفسه هذا السؤال : هل أنا فعلا أعمل بطاقتي كلها أو أعطيت للعمل طاقتي كلها ؟ فمن الختم أن يكون الجواب لا ، لأن فى داخل كل منا طاقات كثيرة معطلة وغير مستفاد بها ولا يوجد الجهاز الذى يستخرجها ويضمها إلى الطاقات الأخرى ويحيلها إلى نفود وبضائع .

إن لدينا قدرة على الرؤية المحدودة هذا صحيح فهناك تفكير فيما يسمى بالثورة الإدارية ، و (تطوير) القطاع العام ، و (تطوير) الاتحاد الاشتراكي ، و (تطوير) الذوق والثقافة . ولكن هذه كلها نظرات جزئية إلى مشكلتنا ، تصلح إذا كان المجتمع فعلا سائرا ويتحرك إلى الأمام ويلزمه بعض (الإصلاح) ، ولكن ماذا يكون الوضع إذا كان المجتمع لا يتحرك أو يتحرك ببطء شديد جدا يشبه السكون أو ربما يتحرك إلى الخلف ونحن لا ندرى ولكن الواضح أن كل يوم يمر ندرك أنه كان أحسن .. لم يعد يصلح إذن فى علاج مشكلتنا أن نعتبرها مجرد مشكلة فى الإنتاج أو فى الإدارة أو فى نهى بعض المال العام . ما فائدة أن ينصلح حال (الكهرباء) على حدة أو البنزين على حدة ، إذا كان الموتور ككل

لا يعمل أصلا ، أو أنه يعمل ولكن العربة لا تتحرك . إن المشكلة كما قلت مشكلة وجود ، مشكلة أن نوجد ونتحرك فعلا وتعود علينا حركتنا بالعمل والإنتاج والدخول .

نتصور أن (الحكومة) قادرة على الإصلاح . وتكثر الشكوى . ويحدث انفصال غريب بين الكلمة والفعل . فنحن نجار بالشكوى من شيء ، والجرائد تنشر ، والناس تتكلم ولكن لا يحدث شيء يصلح ما نشكو منه ، ذلك لأننا نتصور أن أحدا آخر هو المسئول عن الإصلاح ، إن الحكومة نفسها لا تستطيع أن تحل المشاكل ولكنها هى نفسها أصبحت — نظرا لتدخلها فى حياة كل منا — مشكلة من مشاكلنا . والحكومة ليست شيئا معنويا أو جهازا غريبا قابعا على أرضنا ، إن الحكومة هى موظفون ، أى مواطنون أيضا غير قادرين على حل مشاكلهم الخاصة .

ونتصور إن المشكلة هى أن بعض الناس يسرقون أو يختلسون أو يتهبون أو يمالئون ، وصحيح أن هذه كلها جرائم خطيرة لا بد من عقاب مرتكبيها ولكنها أيضا ليست (الأصل) ، إنها عرض من أعراض الأزمة فالأزمة يستتبعها دائما أزمة ضماير ونفوس وصغار نفوس وتصرفات وقحة ومخجلة ، وحتى ألفاظ بذية وسلوك أكثر بداءة ، هذه كلها توابع وليست أصلا للأزمة ، هذه كلها عروض من جملة الأعراض ولكنها ليست الداء الدفين .

لنتصور أن كائنا من المريح مثلا ، حافل بالثروة والقدرة على الإنتاج

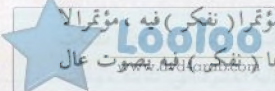
هبط القاهرة ليعمل ويتنجم . كائننا نظيفاً لا يعاني من أزمة سابقة وليس محملاً بأثقال مسئولية والتزامات . لتصور أنه بدأ يزاوول وجوده ذلك ويحاول أن يعمل ويتحرك . أن يتكلم في التليفون مشكلة . أن يركب الأتوبيس مشكلة . أن يأكل مشكلة . أن يغسل يديه مشكلة . أن يذهب إلى سينما مشكلة . أن يدخل المصلحة أو المؤسسة مشكلة . أن يحاول منع الغير من التدخل في عمله مشكلة . أن يحارب كى يظل فقط محتفظاً (بحقه) في أن يعمل مشكلة . لا بد ستجده ولما يكدي مضى يوم على وجوده معنا إلا وقد استحال إلى كائن عصبي جدا ، مكتئب جدا ، مغيظ جدا ، حاقد جدا ، (كفران) بكل القيم والتقاليد والمثل ، ناظم على كل شيء . فهلى ممكن لإنسان في حالة كهذه أن (يفرغ) عقله للعمل العقلى أو اليدوى أو حتى لفلاحة الأرض .

أجل . لقد بدأت مشكلتى حين حاولت أن أجرى حواراً مع ما يسمى برجل الشارع لأعرف بالضبط ماذا يعاني وكيف وبأى طريقة يحيا ولكننا رأينا أننا كلنا غرقى وفي هذا ليس هناك فرق بين من يستغيث من الشارع أو من الشرفة فالطوفان واحد لا يرحم ، والآلام واحدة والشعور واحد ومشترك .

إنها الدائرة المفرغة المروعة ، الأزمة توجد ، تصيب الناس بأزمة ، الناس المتأزموون تقل قدرتهم على العمل والإنتاج وهذا بدوره يؤدي إلى أزمة أكثر تؤزم الناس أكثر وهكذا .. هكذا تستحيل الدائرة الرهيبية المفرغة إلى أزمة (وجود) ، والكارثة أن لا أحد يستطيع إخراجنا من

هذه الدائرة المفرغة إلا نحن .. نحن المريض ولا بد والمريض في غز مرضه أن يكون الطبيب ويعالج نفسه ، كمن تطلب من مكسور الساق أن يجرى ، وهذا هو العمل البطولى العملاق الذى يتحدانا ويواجهنا ، والمسألة لا هزل فيها إما أن نقوم به أو نموت ، سنموت إذا لم نخرج من الأزمة ، سنموت حتى لو ظللنا أحياء ، وأبشع أنواع الموتى هم الموتى حياة .

فهل نترك أنفسنا نغرق ، أو نستغيث ونحن في عالم لا ينقذ فيه أحد أحدا . لا الاستغاثة ، مجرد الصرخات على صفحات الجرائد والاحتجاجات تجدى ، ولا الأئين والتأوه يجدى ، ولا التعبير بالكتابة أو بالمسرحية يجدى ، ففى كل هذه الأعمال نحن نفترض أن هناك آخرين في أيديهم الحل والربط والقدرة على إنقاذنا . ربما لو أدر كنا عن يقين ، وأعود وأكرر عن يقين ، أن ليس هناك غيرنا ينقذنا وأن لا معين لنا ولا أى معونة أو قروض أو حتى استخدام خبراء أجانب ولو حتى خبراء في حل الأزمات والسرقات ، لا شيء من هذا يجدى ، فكما نحن المشكلة فنحن أيضا الحل بل لا حل إلا بأيدينا ومنا ، ولأجل هذا فأوضاعنا أصبحت تحتم وأكرر مرة أخرى تحتم أن نفق لأجلها وقفة ، وقفة مع النفس هذه المرة .. وأن ندير حالا وفورا مؤتمرا (نفكر) فيه ، مؤتمرا (نغير) عن المشاكل فيه ونصرخ ، وإنما (نفكر) فيه بصوت عال



يسمعه الناس أجمعون . تفكر فيه . وندرك إلى أين وصلنا وما هي المشكلة ، والحل سيكون هذا ، سيكون أن (تفكر) ، وأن نعرف ، وندرك (المشكلة) .. المشكلة التي تعوق سيرنا وتوقنا وتقتلنا ببطء شديد ، ولكنها تقتلنا .

أجل .. مؤتمراً نعرف رأى رجل الشارع . رأينا ، فرأينا هو المشكلة وهو الحل .

قلب فتح القلب

لأسباب كثيرة — ربما تبدو عاطفية وعلى العموم — ساحتفظ بها لنفسى ، أردت أن تكون عودتى للقاء الأعراء القراء على هيئة هذه المفكرة بعينها ، وبالذات هذه المرة ، ربما يتغير كل شيء بعد هذا ، ولكن ، فى هذه المرة بالذات أنا أشد حاجة من القارئ أن أفكر أو أتفكر وأتذكر وأحيا اللحظة . ستة أشهر لم أكتب فيها أو بالأصح لم أنشر . ليست شيئاً فى عمر الكتابة أو القراءة ، ولكنها بالنسبة إلى كانت كأشعة الحياة حين تركتها العدسة المتأزمة الرهيبة والمحدبة أيضاً فى ثورة يصبح الضوء فيها احتراقاً وتصبح الحياة عصيراً مركزاً مهلكاً تماماً ، كأنه الموت . كما يستحيل النور إلى نار يستحيل البقاء إلى هلاك .

وكذلك تستحيل نقطة الخبر إلى نقطة انفجار . أنا لا أشكو ولا أشكر ولا أتعذب ولا حتى أحسن أن شيئاً غريباً ومهولاً قد حدث ، حتى ولا أتفرج فالفرجة تستدعى قدراً أدنى من الاندماج وأنا لست بذلك الذى خرج من الناموس ولست بالقطع داخله .

أين أنا ؟ ..

سؤال موضوع رواية شرعتها ، موضوع مذكرات محمد مبات الصفحات ، موضوع إنسان قريب قد توارى القدرة على كتابته ، ولكنه



الآن ليس بأى حال موضوعنا ، ليس مهما أن أعرف بالتحديد أين أنا ، بل حتى ذلك التحديد الدقيق تأباه النفس الآن . أنا فقط على هذه الورقة ، صاحب بتوترات داخلية كفيفة بتشغيل تربينات السد العالى ، متفجرات وصناديق مغلقة مكتوب فوقها : مواد قابلة للاشتعال وللإشعاع الذرى وإفناء الكون أو بنائه . أنا فقط هنا على أن أحيل هذا الأنا الخطر إلى نقطة حبر مستأنسة ، هادئة ، ودیعة وداعة ذلك الشعب الذى كان — أو هكذا قيل — فأنا أعلم تماما مقدار العبوات الناسفة الراقدة فى أعماق كل منا ومنكم ، وعلى الحبر أن يكون بردا وسلاما على وعلیکم .

ويكفينى هذا .

نقطة حبر ..

اتساية قلم ..

كلمة مكتوبة ..

الآن أكتبها . أنا ..

حتى لو شئت ، فلتجفف الأقلام ، لتطو الصحف ، وليلعد الكون — كوفى — إلى صمته المطبق الأول الأزلی .

كانت الرحلة شاقة يارفاق الطريق ، وعرة ، رحلة حول نفسى فى ستين يوما لا أجد لها البداية ولا أجد لها المنتهى . من أين أبدأ أو تبدأ وفى أى النقاط أضع النهاية ؟

وهذه المرة كانت النهاية يبدى .

وويل للكائن الضعيف الذى هو أنت وأنا حين توضع نهايته ، أو بدايته فى يده ، شكرا لله أن خلقنا لتكون خط الحياة فقط ، أما البداية والنتهى فأشفاقا علينا ، احتفظ بها . صحيح لو خير أى منا أين يبدأ ، ومتى يولد لمات هما من هول الاحتمالات ، هل يولد الآن أم فى عصر الرومان ، أم فى سنة ٢٠٠٠ ، ولو خير أى منا متى يموت ، لمات غما قبل أن يرسو على خيار .

وهكذا ، وبتكنولوجيا العصر ، وبسبب الصبح والظهر والعصر والمغرب والليل وشياطين الليل أصبت بأزمة القلب . وبعد شهر أعطانى الأطباء الكبار فى مصر شهادة أنى شفيت . وكتب يبدى هنا أن هذا قد حدث وشكرت الناس . ولكن ذاك الوسواس من غير الخناس ، ذلك الجهاز المرهف الذى لا نعلم أبدا عنه شيئا ، ذلك الذى نغطى جهلنا به فنقول الحدس ، راح يؤكد لى أن شيئا ما داخلى غير مضبوط ، بالذات فى ذلك القلب الذى قلنا جميعا عنه إنه شفى وعوفى ، كسبن الدبوس بدأ ، كالإبرة الطويلة راح ينكش ، كالمسمار أصبحت خرايشه تخرج كيانى كله .

الهاتف ، ذلك المجهول الآخر راح يلح : يلزمك تصوير دقيق لقلبك وشرائنتك .

يفضب طبيى المعالج ويقول : يابنى مالك ؟ قلبك سليم . تصعد ستة أدوار ولا تلهث ، صحتك بمب ، ماذا تريد أكثر ؟

— أريد الحقيقة ..

Looloo

www.tlvd4arab.com

— والحقيقة أمامك واضحة كالشمس . أنت وحالك أحق من الحقيقة . ولكن الدبابيس والمسامير تقررص ، وبشدة أكثر ، وتصر وكان لا بد أن أسافر ..

وأصبحوا لي أيها السادة — أليس هكذا يقولون — أن أقف هنا وقفة مع دولتنا ، ومع حكومتنا .

الحق أني كنت طوال حياتي أحس ، ليس فقط بالغربة في بلدي وبين أهلي وعشيرتي ، ولكنني أحس بالغربة التامة تجاه دولتي وحكومتى . ربما منذ اليوم الذى بدأ صدامي الأول معها وعلى ورقة صغيرة ممضاة باسم وزير الداخلية في ذلك الحين تم اعتقالى وفي المعتقل عرفت وجهها آخر للدولة ، ذلك الوجه القبيح تماما . الأفتح من وجوه كل من رأيته من سجنائين ومسجونين في معتقل القلعة وأبو زعبل والسجن الحرى وسجن مصر ، الأفتح حتى من وقع ضربات النبايت على قدمي العاريتين — وكنت لست أحتاجى أظن الثبوت أقل إيلاما من الخيزرانة الرفيعة إذا لسمع القدم ولكن اتضح أن الخيزرانة إذا كانت سبكينا رقيقا فالثبوت ساطور مسنون على حجر جرانيت .

ولكن ذلك زمن مضى تماما وعفا الله عما سلف ، واتفقت واختلفت وأيدت وعارضت فكريا وفنيا وبشخصى الضعيف أكثر المرات . ذلك ملف — على حد القائل — لا وقت لفتحه ، فلست بسبيل السياسة ولست بسبيل إظهار اليد المكسورة أو الذراع المقطوعة نشحذ بها أو عليها الشفقة أو المجد فقد كان لا بد من الصدام ، وكنت أعتقد أن الحق معي ، وكانت تعتقد أن الحق معها ، سلاحها الأقوى هذا صحيح ولكن من يختار

الصدام يختار في نفس الوقت ما يتبعه من جروح ولكمات وكدمات وإلا فليذهب ويبحث لنفسه عن لعبة أسلم .

لستنا بسبيل السياسة . نحن بسبيل ذلك الموقف « الوجداني » من الدولة والحكومة . وهنا بالتحديد أتحدث عن موقفى أنا . وجدانيا كما قلت أحس بالغربة . وأنا أحس أني لم أمت . أنى مطارد أو مطرود أو بالأصح غير مرغوب فيه . كنت أجد في معسكر القراء والناس عزائى وشفائى . حتى وأنا شبه معزول عن الناس ولكن الاتصال الروحى موجود . بل ربما زاده البعد وجدا وحياة ودفا .

والحقيقة أني حين طلبت أن أسافر للعلاج على نفقة الدولة تصورت لأمر ما أننى أطلب ما لا حق لي فيه . إلى أقعنى جراح قلبنا الكبير حمدي السيد والعقري الجديد جلال الزيدى أن من حقى أن أسافر فهناك قانون يعطى الحق لأى مواطن لا علاج له هنا أن يعالج بالخارج وعلى نفقة الدولة ، ومع ذلك كان خجلى واضحا وأنا أطلب من الصديقين الكبارين يوسف السباعى كوزير للثقافة وإحسان عبد القدوس كرئيس لمجلس إدارة الأهرام في ذلك الوقت .

والحق إنى فوجئت ..

فلم أكن أتصور أن الموافقة ستم بهذه السرعة ، ليس هذا فقط بل لم أكن أتصور أن الدولة ممثلة في السيد محمود سالم بل رأس الدولة ورب العائلة الأكبر الرئيس أنور السادات سيبارك هذا الطلب بنفسه . ذلك أنى علمت أن السيد الرئيس لا تزال في نفسه بقية من آثار أيام ما قبل ٦ أكتوبر العظيم ، آثار حين يذكرها في خطبه أحس بالاصحاح قد عليها غلالة من مرارة وكأنه ما كان ينتظر منا — نحن الكتاب —

النحو الذى كتبنا له فيه ماسمى بعد هذا بالعريضة . والحق أنى للآن لم أزل لا أدرى ماذا بالضبط ضايق الرئيس السادات فى هذا الذى فعلناه . إننا أيامها لم نكن نقرأ الغيب ولم نكن نعرف ما يدور بخلفه لندرك أنه قد انتوى المعركة ويعد لها . وكلماتنا لم تكن سوى رسالة يكتبها مخلصون تماما لبلدهم ولرئيسهم يطلعونه فيها على مكنون الشعور العام تجاه حالة اللاسلم واللاحرب التى كنا نخوضها . وماذا ينتظر الصديق من أصدق الأصدقاء أكثر من أن يواجهه بالحقبة وإلا كان منافقا ومختالا ؟ كنت أتصور أن السيد الرئيس يغضب لو نحن عرفنا ما يجيش فى صدور الناس وسكتنا عن إبلاغه به ، إنها حينئذ كانت تعتبر أمام ضمائرنا وأمامه مؤامرة صمت منا عن إيصال الحقيقة والشعور . وأنا لا أعرف كيف تحول عمل صادق كهذا إلى مؤامرة كتابة فى نظر السيد الرئيس إلا إذا كان بعضهم قد تطوع وقلب الآية . وليست هذه أول مرة تحدث وربما لن تكون الأخيرة فما أكثر الذين تطوعوا — أو بالأصح تطوع — ليكون حاجزا بين الكتاب والمثقفين رئيسنا الراحل جمال عبد الناصر ، وربما لو كانت قنوات الاتصال ظلت مفتوحة لعرف عبد الناصر كثيرا من الحقائق من هؤلاء الذين (قلوبهم على ألسنتهم) ولما ارتكبت كثير من الأخطاء نتيجة مسايرة الأهم الذى كان يكونه المحيطون به حوله ويعزلونه عزلا عن التيارات والنبضات والآهات بل وأحيانا الحقائق والأحداث .

كانت نيتنا سليمة إذن ونحن نوقع هذه الرسالة التى رأينا أن نعهد بكتابتها إلى أكثرنا عقلًا وحكمة وهو أستاذنا توفيق الحكيم .

كنت كلما لمحت هذه الغلالة من المرارة تكسو وجه الرئيس أحسن أن

شيئا ما قد قام بيننا وبينه ، وأن هكذا شاعت الظروف والحظوظ ، ولم يعد باليد حيلة .

والحق أن مرارة أكثر كانت تشيع فى حلقي كلما حدث هذا ، فالفن والفكر والثقافة كائنات مرهقة تقتل روحها ربما بلمسة أصعب أو بإشاحة وجه ، وهذا العهد الجديد : ثورة التصحيح والانفتاح وترسيخ الديمقراطية مطالب كانت من أعز أمانينا وقد جاء هذا الرجل الكبير بحققها ويدعو لها . والفن والفكر والثقافة لابد أن تكون موجات صوته ودعوتها ونبضات رسالته التى تجعلها تستقر فى أعماق النفوس والقلوب وتصبح داخل شعبنا واقعا حيا يعتزون به ويدافعون عنه ضد أى غاصب أو دكتاتور .

ولكن الغلالة ظلت موجودة .

ورغم الغلالة فيها هو الرجل الكبير ، بذلك الجزء الأكبر والأعظم من نفسه ، المصرى الشهم الجدد . يقرر وفورا أن أمنح كافة التسهيلات لملاجئ .

واتضح أن الهاجس كان على حق ، وأنه عبثا لم يتحول إلى إيسر ومسامر وغيوم وظلام . ففى الغرفة شبه المظلمة وعلى جهاز تليفزيون يضخم الصورة رأيت السلك الرفيع يدخل من شريان يدي ويأخذ طريقه بدراية مذهلة ليصعد إلى الشريان الأبطى ثم الأورطى ثم ينتهى وكأنما يقوده كائن بشرى بدر كسيون مركب فى نهاية مع أن شيئا لا يقوده . أو يتلاعب به سوى أصابع أمهر طبيب قلب فى العام يعمل

(قسطرة) للقلب . اسمه ميسون سونز ، ولو رأيته لحسبته شخصية من شخصيات الكاوبوز ، حتى لفتة تحفل بكثير جدا من التعبيرات غير الطبية وحتى غير اللائقة ، ولكنه عبقري ذلك لأنه أول من فكر في عمل أشعة لشرابين القلب عن طريق ذلك السلك المجوف الرفيع المصنوع من مادة قابلة للثني بناء على تحكم خارجي ، وبهذا السلك العجيب حدث الانقلاب التام في طب القلب . وبانت كل المعلومات التي درستها عن طب القلب في صبر شبانا وأفنينا فيها أعيننا وذاكرتنا تبدو كمعلومات الأطباء عن أسباب المرض قبل أن يكتشف (باستير) عالم الميكروبات ويثبت أنها هي وليست الجن أو العفاريث هي التي تسبب المرض .

درستا — ولازال طلبة الطب عندنا يدرسون — أن (الذبحة الصدرية) أو (الأزمة القلبية) أو (الجلطة التاجية) . مصيبة كبرى إن حلت بإنسان فلا قيامة له بعدها . وامتد هذا العجز العلمي من الأطباء وأساتذته إلى الناس فأصبحت الكلمة ، يا عيني عنده القلب . أو : ده مسكين (عنده) القلب . ومعناها يأكثر التفسيرات تفاؤلا أنه سينتهي بالكاد في عام أو عامين (كتاب الطب الذي عندي يحددها — ياللعبرية — بثلاثة أعوام) وأنه سيعيش خلال هذه المدة على ريجيم دقيق وحياة بالقطارة ، شبه عاجز ، محكوم عليه بالإعدام ، ينتظر — وياللهول بالريجيم — يوم التنفيذ .

وذلك كله بالطبع لم يكن جهلا من الأطباء أو قصور نظر ، في الحق كان هو نتيجة للمتوفر أمامهم من سبل التشخيص والعلاج ، فالقلب

ذلك العضو الرهيب الغامض المثير لم يكن أحد قد أوغر داخله حيا ، ولم يكن أحد يعرف الكثير جدا من أسرارهِ ، إذا انسد الشريان عليه العوض ، إذا فسد الصمام فالنهاية الموت بالهبوط . الطب بعقائره وسماعته وحتى برسام قلبه كان عاجزا عن أن يدرك ، وإذا أدرك عاجز عن أن يعالج إلا ببضع عقاقر لا تفعل أكثر من أنها تؤجل النهاية .

وكان على تكساسى مغامر شديد الاعتداد بنفسه كثير السباب أن يقتحم على طريقة المافيا وكر القلب الدفين ، و (مخترع) جهاز التصوير القلب من الخارج والداخل وبالشريان والوريد وأدق الدقيق من الأوعية . وهذا هو ميسون سونز الذي قارب الستين والذي كان قد احتفل من أيام (بالقسطرة) رقم ١٦ ألفا التي قام بإجرائها بنفسه (لكي ندرك ضخامة الرقم لا بد أن نعرف أن عدد القسطرات التي أجريت على يدي كل أطبائنا ربما يتجاوز المائة بقليل) . هذا هو ميسون سونز يدخل — بدراية معجزة ، وفي ثوان — السلك في الأورطي ثم يوجهه ليدخل من البطن الأيسر وينتبه ليواجه مدخل الأوعية التاجية ويحقن مادة مشعة ترسم بعد ثانية شجرة الشريان الأيمن كاملة ثم يعيد توجيهه — ياللبراعة — ويحقن فتحة الشريان الأيسر فترسم شجرته أمام عيني كاملة ، ثم يقيس الضغط داخل الأذين ثم يخترق الصمام ويصبح طرف السلك في البطن العظيم ويحقن وينقبض البطن وينسط ويصبح السر القلبي فيلما سينأيا علينا كاملا أراه أمامي ويسجله شريط تليفزيوني وسينائي ويحادثني ، وينسى دائما أني طبيب — لا ممرض — والحق مع أني طبيب أعرف القلب وتاريخه إلا أنني لا أعرف



لهذا الشرح فقد كنت مبهورا بقلبي المتلفز أمامي ، بكل دقيقة فيه ، بكل مليحة من شرايينه ، بكل شيء .

في كليفلاند — حيث يوجد أكبر مستشفى لجراحة القلب في العالم — جالية مصرية ، بل أكاد أقول شعباً مصرياً بأكمله . شعباً قوامه سبعون عائلة ، معظمها من إخواننا المسيحيين والأقلية مسلمين ، ومعظم هذا الشعب من الأطباء ، وللصندوق الغربية معظمهم يعملون أطباء تخدير ، بل توجد بالذات أجمل طبيب مصرية رأيته في حياتي متزوجة وتعمل طبيباً أمراض نفسية في نفس المستشفى . شعب مصري صغير استأجر لنفسه كنيسة ويستعد لإقامة جامع ، بل إن الكرازة المرقسية هنا أرسلت لهم قسيساً شاباً كنت قد قابلته مرة أثناء محاضرة لي في مدرسة الجيزويت وكان ثورياً جداً في آرائه وعجبت حين ذكر لي صديقي العزيز الدكتور فتحي بهيج مستشارنا الثقافي في واشنطن أن الذي سيقابلني في كليفلاند ليأخذني إلى المستشفى هو الأب ميخائيل ، وكم أسعدتني المفاجأة أن أرى ناثر الإكليريك وقد نمت له لحية سوداء كبيرة ويقبلنسوته وردائه الأسود الذي نعرف منه دائماً على قسنا الأقباط المميزين وجدته أمامي يستقبلني هو ووفد من الجالية في مطار كليفلاند الكبير .

بل إن الأب ميخائيل زيادة في الترحيب لي — دعاني للذهاب إلى الكنيسة المصرية يوم الأحد — اليوم التالي لوصولي — لأحضر الصلاة ولكي يدعو لي الرب أن يأخذ بيدي . وكانت تلك أول مرة أحضر فيها

صلاة مسيحية ، وارتبكت ماذا أفعل ؟ وقلت لنفسى أصلي أنا الآخر صلاتي ، فرحت أتلو الفاتحة والتحيات وسورة : قل هو الله وأحد الحية إلى قلبي . وقضيت في كليفلاند شهراً أو أقل قليلاً ، وتصوروا ، لم أتغدى أو أتغش . أنا وزوجتي على حساني مرة أبداً حدث ذلك التنافس الطعامي الخلاق بين الصعايدة والبحاروة وبين المسيحيين والمسلمين وبين الأطباء وغير الأطباء . ذلك التنافس الشريف حقا الذي زود وزني خمسة كيلوجرامات بأكملها .

دخل على الدكتور فوزي أسطفانوس ، الذي يشغل في مستشفى كليفلاند الهائل مركزاً دقيقاً جداً ، ربما أدق من ذلك الذي يشغله الدكتور الباز في أبحاث الفضاء ، إذ هو رئيس قسم التخدير بجراحة القلب . وإذا عرفنا أن الثورة في جراحة القلب حدثت نتيجة لاكتشافات متلاحقة جديدة في عمليات التخدير لأمكننا أن ندرك أن دور طبيب التخدير في عملية القلب لا يقل — بل ربما هو أدق — من دور الجراح ، فالخطأ في التخدير يمت فوراً . ولكن الدكتور أسطفانوس لا يكتفي بهذا فهو دينامو الجالية المصرية المسيحية في كليفلاند ، جمعيات ، لقاءات ندوات ، غير أبحاث تنشر ومتابعة غربية لأحدث ما وصل إليه البحث في التخدير بالنسبة لعمليات القلب بالذات . طبيب آخر كان يعمل نائباً علينا في قسم الدكتور محمد إبراهيم في قصر العيني اسمه الدكتور الطرزي أصبح رئيس قسم أبحاث أمراض القلب في هذا المركز الطبي المهيول . هذا غير سبعة أو ثمانية أطباء مصريين آخرين يعملون في وظائف مختلفة بنفس المركز . شعب كامل من أمهر وأخلص

وحتى قضائنا ومخامينا وجددعهم في أمريكا وإنجلترا وأطراف الأرض . كم
نرفنا من ذكائنا ولا زلنا ننزف .

دخل فوزى ، متجههم الوجه ، معقود السحنة .

كنت لم أفرغ بعد من هواجسى بعد انتهاء عملية القسطرة . والحق
أنى كنت خائفا جدا منها ، فتأجها التى سمعت بها فى مصر كانت
مروعة ، الموت ، الشلل ، جلطة الشريان ، غير ما خفى أو لم يكن فى
الحسيان . مذهول لا أزال بالسهولة المعجزة التى صنع بها سونز
القسطرة ، سبع دقائق فقط استغرقتها ، لم أشعر بشئ مطلقا سوى
بعض الغثيان .

أكون قد قضيت أحقابا أخاف من شبح لا وجود له .

أم أن الأشباح موجودة فعلا ، فقط قضت عليها خبرة ستة عشر ألف
مرة قام فيها سونز بالعملية حتى أنه عملها لنفسه ذات مرة .

قال فوزى بصوت خفيض :

— إنيورزم . لفت فنتريكيو الـ إنيورزم .

القرار

فى نهاية النهاية الرجل مجرد قرار . وحين أتحدث عن الرجل لا أقصد
الذكر ولكنى أقصد الإنسان العام ، أعلى مراحل تطور الحياة ، الخالق ،
المدير ، الواعى . خليفة الله .

ذلك أنا . إذا حاول كل منا أن يراجع حياته ، وقيمة هذه الحياة
فسيجد أنها تكاد تتلخص فى عدة قرارات اتخذها ، أو لم يتخذها ، وبني
بها مجرى خالدا لوجوده أو أحال ذلك الوجود إلى مستنقع سطحي
راكد .

وكان على أن اتخذ قرارا .

وأن تتخذ قرارا فى مشكلة خارجة عنك . مشكلة تخص عائلتك أو
حتى أقرب الناس إليك مسألة ، أما أن تتخذ قرارا فى حالتك أنت ، فتلك
مسألة أخرى مختلفة تماما . فإذا كان هذا القرار لا يخصك فقط ولكنه
سيحدد حياتك أو موتك ، بلا أى حل وسط ، فالمصيبة كما يقولون
تكون أعظم .

ولقد ذهبت إلى أمريكا ولم يكن ينظر بىالى مطلقا ، أنى سأواجه
هناك ذلك القرار . كنت أتصور على أقصى تقدير أن المشكلة لن تتعدى
بعض تقصيرات نتيجة للأزمة القلبية التى حدثت لى وأنا فى مستشفى
المعادي وأن علاجها سيكون سهلا وبسيطا .
(الإرادة)

الحديثة . ولكن التجربة المروعة التي حدثت في مستشفى المعادى وكانت السبب في هذه الأزمة القلبية مسألة لا بد أن ترد هنا فهي تجربة قل أن تعرض لها بشر ، فلقد ظللت أشكو بألم في رقبتي ما لبث أن امتد إلى أكتافى حتى عجزت عن الحركة تماما وأصبحت الآلام لا تطاق . وشخص الأطباء حالتى بأنها (انزلاق غضروفى) فى فقرات الرقبة وصاروا يعالجوننى بالحقن المسكنة . وزعم أن الجرعات التى كنت آخذها من هذه الحقن المسكنة ظلت تتزايد يوما بعد يوم رغم هذا فالألم مروع وغير بشرى والكميات تتضاعف حتى ظن بعض أصدقائنا الصيادلة الذين كنت أشتري منهم هذه المسكنات أن المسألة انقلبت إلى إدمان ، ولم تكن لعلاج مرض . حتى جاء اليوم الذى لم تعد أى كميات مسكنة تجدى وكان على أن أقفل وأنا فى شبه غيبوبة من الألم والمسكن إلى مستشفى المعادى حيث وضعت فى عنبر (النفوس المعذبة) أو ما يسمونه فى المعادى (إنعاش الرابع) . وهناك عملوا لى أشعة على الرقبة بعدما عاجلوني من الغيبوبة وكانت نتيجة الأشعة يكاد ينخلع لها القلب . وجاءنى ذلك الصديق الطيب بعينه الصريحتين الجريعتين وجلس بجوار فراشى وقال : اسمع .. إن هذه الأشعة التى عملناها لك لا يمكن أن تكون إلا لسرطان فى فقرات العنق . وهناك أمل ضئيل جدا أن يكون التهابا درنيا ولا شيء غير هذا ..

استمعت لى الكلمات وكأنه يتحدث لى عن شخص آخر . وصمت صمتا غريبا وكان كل ما يداخلى من انفعالات قدمات فجأة . اكتشفت أمرا جادا ملحا : ألا يخبر الطبيب زوجتى بهذا الذى اكتشفوه فقد

لا تحمل الصدمة .

ولكنى كنت متأخرا ، ذلك أن الطبيب كان قد غادر العنبر ، والمؤسف أنه قابل زوجتى فى الطرقة ومعها قريبة لنا وأخذها إلى مكتبه وأخبرها بنتيجة الأشعة وكانت كارثة انتهت بعمليات إغماء وإفاقة ومشهد مروع وجاءت هى بعد ساعات وعلى وجهها ابتسامة وقابلتها أنا بابتسامة أوسع وأخذنا نضحك على أشياء تافهة ، غير أنى أدركت - وفيما بعد علمت أنها هى الأخرى أدركت - أن كلانا كان يعرف رغم براعة التمثيل ، إن حكما قلديا مهولا قد صدر ، فمعنى سرطان فى العمود الفقرى أن حياتى لن تتعدى الشهور القليلة جدا ، بل ربما الأسابيع أو حتى الأيام ، وأن هذه العائلة الجميلة التى نكونها قد أصيب عمودها الفقرى هو الآخر بضربة ستقصم تماما ظهر العائلة ، ولن تستمتع نسمة (عامان فى ذلك الوقت) بأن تقول مرة أخرى ، يا بابا . فى اليوم التالى جاءنى الطبيب الصديق . إنه طبيب جراح فى الجيش مقاتل بطبعه ، شجاع بطبعه ، صريح لا يهاب شيئا ، حتى ذلك الحكم الذى تصدره على المريض بحياته أو بإعدامه . جاءنى وقال : اسمع غدا سأجرى لك اختبارا أخيرا لأخذ عينه من عظام الفقرة بواسطة إبرة سندخلها فى رقبتك من الأمام بدل أن نقوم بإجراء عملية جراحية نفتح فيها الرقبة وننحى القصبة الهوائية والبلعوم والأوعية الدموية الكبرى لنصل إلى العظم . وسنصل بهذه الإبرة إلى المنطقة المظلمة فى الأشعة لنعرف إن كانت خلايا سرطانية أو مجرد التهاب ، فاستعد يا بطل ..

بطل !! ..

ألم يكن باستطاعتك أيها الصديق الطبيب أن تؤجل محادثة الأمس إلى أن تقوم بتجربة الإبرة وتؤكد ثم تصدر هذا الحكم الذى عصفت بحياقي عصفا ؟ ..

وظفرت الدموع من عيني ..

ليس حزنا على نفسي ، إنما إحساس أني أخيرا هزمت وإن نهاية ذلك الذى آلى على نفسه ألا يترك الحياة إلا وقد غيرها جاءت أسرع مما يتصور أو كان يقدر .

في اليوم التالى غاب الطبيب قليلا عن مواعده ، فتناولت إفطارى فقد كنت أحس بحجوع لا حد له ، وكان حب الحياة قد تحول داخل إلى جشع للارتواء من كل ما فيها .

في الحادية عشرة ظهر الطبيب . ومعه لفافة فيها الإبرة المشهورة وأخذنى إلى غرفة الأشعة ، من أحدث ما رأيت من غرف الأشعات فى العالم ، مزودة بجهاز تليفزيون بحيث ترى على شاشته كل ما يدور داخل الجسم وتظهره أشعة إكس .

غير أن عقبة كئودا ظهرت فجأة فقد رفض طبيب التخدير أن يعطينى البنج ما دمت قد تناولت إفطارى ، وكان على وعلى الطبيب إما أن تؤجل العملية كلها إلى الغد ، وإما أن يقوم بغرس الإبرة فى عنقي بلا تخدير ، وأنا صاح وواج ، ومشاهد لكل ما يحدث .

ولم أتردد . فلنقم بالعملية دون تخدير .. بل بالعكس .. سرفى أنى سأكون صاحيا وواعيا فأخوف ما كنت أخافه أن يخفى عنى الطبيب والآخرين النتيجة وأنا أريد أن أرى النتيجة بعيني وأمسها بنفسى وأعرف

وأتحقق إن كنت سأموت أو سأحيا دون مداراة أو إخفاء .

وهكذا استلقيت على المنضدة ، وبدأ الطبيب بمخدر موضعى ، يدخل الإبرة الغليظة التى تنتهى بكلايتين لينتزع بها جزءا من العظم حين يصله ، وأنا أرقب دخول الإبرة مروع أن تخترق شريان العنق مرة ، خائف أن تخترق زورى مرة ولكن خوفي الأعظم كان أن تقترب من المنطقة المظلمة فى الأشعة ، ذلك أن أجزاء الثوانى التى ستأخذها لتدخل أو لا تدخل فى تلك المنطقة كانت ستحدد مصيرى بشكل قاطع وإلى الأبد .

أجزاء من الثوانى ، رهيبة ، عام بأكملها مر ، حياقي تلف كالكرة الملتببة تحمل كل ذكرياتي ، طفولتي وصباي ، أحلامي وأشجائي وطموحاتي ، أولادي وأحفادي من يأتي من بعدى ، آباء وأجدادي . ويطء خيف مذهل تقترب الإبرة من المنطقة المظلمة ، والنتيجة لن تختمل الشك ، فهي إذا دخلت فى المنطقة المظلمة التى تشكل جزءا من جسم الفقرة العظيمة فمعنى هذا أنها — تلك المنطقة — لم تعد عظما ، وإنما تحولت إلى ذلك النسيج الطرى السرطاني الرهيب ، التهم السرطان عظمها وتركهها رخوة تمهيدا للموت الكامل الرخو الذى حالا ما سيحدث . وإن لم يستطع الطبيب إدخالها وقاومت المنطقة المظلمة فمعنى هذا أن النسيج لا يزال عظما سليما ، وأن الظلام له سبب آخر غير السرطان .

أجزاء من الثوانى انتفض لها جسدى وقفزت له كل خلية من خلاياه وارتكزت على أطراف أصابعها ترتقب النتيجة التى تنتجها .

ككلى ولكنها ستحدد عمر كل خلية في وكل جزء وكل عضو ، بل ستحدد مصير أناس آخرين كثيرين غيرى .

وكان أروع نقر سمعته في حياتى قاطبة هو صوت الكلابتين وهما تدقان فوق المنطقة المظلمة من الفقرة ، نقر أسمعته بأذنى ويصلنى مباشرة من عظام الفقرة إلى الأذن الداخلية ويصلنى حتى من أذى الخارجية .

الحمد لك أيها الإله العظيم ..

مالكى ومالك الكون ..

ولم تطفر من عيني دموع ، فجأة أحسست بتعب وكأنى ظلمت أجرى عمرا بأكمله ، كانت التجربة أكبر بكثير من احتمال البشر ، وبمثل ما دأبت على مصارعة الحياة وتحديها ظننت أنى أحتملها ، ثقتى بهذا الجسد لا تقهر .

ولكن أيها السادة ، للجسد أحيانا حدود . وأبدا لم يخلق الجسد لنحمل فوقه الجبل .

وثبت أن المسألة كلها لم تكن سوى التهاب بسيط في الفقرات شغيت منه تماما بعد ثلاثة أسابيع .

ولكننى قبل أن أشفى منه ، كان القلب الذى حمل على عاتقه هذا كله قد أصيب بأزمة . ونقلت من عتبر النفوس المعذبة في الرابع إلى عتبر العناية القلبية المركزة في الثالث .

وها أنذا في أمريكا ، سليم تماما ، معاف ، وها هو التشخيص الدقيق

يثبت أن هناك انبعاجا في جزء من القلب نتيجة للأزمة المروعة . والأطباء ينقسمون على أنفسهم تماما ، الأغلبية تقول : إن هذا الانبعاج ما دام لا يسبب أعراضا فلا خوف منه إطلاقا وتستطيع أن تعيش به إلى السبعين والثمانين ، والأقلية تقول بل من المستحسن استئصاله من الآن فرمما سبب أعراضا في المستقبل .

فماذا أفعل أنا ؟ ..

وحين أقول أنا في الواقع لا أتحدث عن نفسى وإنما أتحدث عن نوعى من الناس ، ذلك النوع الذى لا يقبل إلا الكمال المطلق ، الذى لا يستطيع أن يساوم ، الذى يمكن ولا يقدر أن يعيش خائفا من شيء ، متوقعا أن يهاجمه عرض ما أو مرض ما ، خائف من الهواء إذا هب الهواء ، ومن أى ألم يعتريه إذا اعتراه ألم .

كانت أيا ما كتيبة تماما ، فالمسألة في حاجة لقرار ، وعمليات القلب ليس فيها هزار ، فأى فشل معناه الموت ، إنها ليست عملية في ساق أو مصران أعور. إنها في صميم مكنون الحياة ، تلك الحياة المركزة على هيئة كتلة عضلية حمراء تخلق وهى تنبض وتظل تنبض حتى نهاية النهاية ، العملية فيها ، وتستدعى أن يتحول الدم عنها ، ويوقف القلب تماما ، كنى تتلقفه يد الجراح .

وبعد ساعات يعيدونه إلى النبض ، ويعيدون إليه دورة الدم ، فماذا لو لم ينبض ، ماذا لو قال : لا ؟ .. وفى أحيان يقولها ، ولا تفلح أى جهود في إعادته ينبض ؟ ..

قلت فلأذهب لأعلى مستوى علمى في أمريكا مستشارا لبحرية



الأمريكية في (بتسدا) بجوار واشنطن . والحق أن السفير أشرف اغتيال قد بذل كل جهده ، ولكن إجابة وزارة الخارجية الأمريكية كانت واضحة وصرخة : إن هذا المستشفى لا يعالج إلا الوزراء ومن هم من مستوى أعلى في الدول الصديقة ومن يعتبر علاجهم هناك لمصلحة الولايات المتحدة .

ويبدو أن علاجي هناك لم يكن كذلك .

وشكرا لله أن حكومتنا كانت قد اعتمدت مبلغا مناسبيا تماما كي أستطيع أن أرى أكبر جراحى القلب هناك ، وهكذا عرضت على الدكتور ديكى جراح القلب الشهير الذى أكد لى أن المسألة ليست بحاجة الآن لعملية ، اذهب إلى مصر ، وعش أربع خمس سنوات وإذا تعبت تعال هنا ونعمل لك العملية .

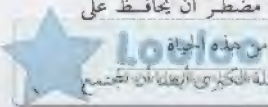
وكان سهلا أن أعود هكذا إذا أردت أو كلمنا أردت .

كان إحساس ما يؤكد لى أن المسألة فى حاجة لقرار شجاع ، وما أسهل أن تأخذ القرار الشجاع إذا كان الأمر يتعلق بغيرك أو بعملك أو حتى بأى أمر من أمور حياتك وما أصعب وما أبشع أن يكون القرار خاصا بجسدك ، بل بأهم ما فى هذا الجسد ، نبض الحياة فيه أو سريان الدم .

غريب فى القارة الواسعة : أمريكا . غريب رغم الأصدقاء الكثيرين حولى ، والمصريين هناك ، وعلى رأسهم رجل من أخلص وأنبل من قابلت فى حياتى : الدكتور عبد الهادى مخلوف فنصلنا العام فى أمريكا ، من طبيب لطبيب ، ومن مستشفى لمستشفى ومن اختبار لاختبار .

والقرار لا يزال رابضا هناك فى أعماق ، ينظر لى بعينين لامعتين ما كرتين تتلمظان ، إما لالتهاى والاجهاز على ، وإما لكى ألتهمه أنا وأمنضغه وأصنع من مادته حياة ، حياة حرة طليقة بغير قيد ، بغير تحديد ، بغير عجز ، بغير ذلك الإحساس الممض : أنى ضعيف .

ولكن ، يبدو أنه كان للمشكلة وجه آخر لم ألاحظه . ذلك أن الطب فى أمريكا مثله مثل أى شىء آخر هناك ، له طبيعة مختلفة إلى حد كبير عن الطب هنا ، اختلاف الإنسان الأمريكى عن إنساننا هنا . المجتمع الأمريكى قام على انتزاع الوجود بالقوة والقوة لا تزال هى القانون السائد ، قوة المال أو قوة النفوذ أو قوة المسدس أو حتى القوة العضلية المحضة ، ولذلك فالصراع من أجل البقاء هناك صراع رهيب لا يمكن أن يقارن بالحياة الوداعة المبسطة الممتدة هنا . هنا تحس أنك حى .. لا يمكن أن تموت إذا امت من الجوع ، لا بد لك قبيلة ، أو قرية ما أو مجتمع ما محدود الأيدى دائما لانتشالك ، محال أن تفرق . هناك إذا غرقت لن تمتد لك يد أبدا بالمساعدة ، إذا هويت هويت وحدك ، وإذا عشت عشت وحدك ، وإذا اغتيت أو افترقت أو مرضت فانت وحدك الذى عليك أن تقبض أو تدفع ، ولهذا فالإنسان فى هذا المجتمع عليه أن يشحذ جميع أسلحته بقاءه ليظل حيا ، ولهذا ليس غريبا أن يكون الأطباء على قمة أصحاب الدخول الكبيرة فى أمريكا ، ذلك أن الإنسان هناك مضطر أن يحافظ على صحته — رأسماله الحى — لكى يحيا ولكى يؤمن بهذه الحياة . وليست هذه هى المشكلة وحدها ، المشكلة الكبرى التى لا يمكن أن تتجمل



الأمريكي قد وصل إلى أعلى درجات التصنيع ، بحيث أن الطب نفسه أصبح صناعة ، حتى عمل العمليات أصبح صناعة ، فالجراح هنا لا يدخل ليشق الجلد بنفسه ، ويصنع الجرح بنفسه ، ويصل إلى مكان عمل العملية بنفسه . أبدا لا توجد غرفة عمليات واحدة يتعهد فيها الجراح بعمل العملية من الألف إلى الياء ، غرفة العمليات عبارة عن سبع أو ثمانى غرف ، يقوم فيها كل نائب بعمل خطوة من خطوات العملية ، ويقوم المساعد بالعمل الأكثر دقة ، أما الجراح المتخصص فهو الذى يدخل هذه الحجرة ليضع اللمسة الأخيرة الخاصة به سواء أكانت فى القلب أم الرئة أم الكلية ، ويغادر الحجرة ليضع اللمسة الأخيرة الخاصة به فى مريض آخر . صناعة المستشفيات مهولة الحجم ، تلحق بها فنادق خاصة لإقامة أقارب المرضى والعمل يجرى كما لو كنت فى مصنع سيارات ضخمة ، فقط هنا يصلح الإنسان ، ولكن على نفس الوتيرة ، وتيرة الـ Mass production .

كيف لإنسان جاء من الوادى الوادع ومن الطب حيث الطب لا يزال مهنة فردية وادعة يقبل أن يضع نفسه فى (خط) لإنساج وإصلاح الإنسان .

ولكن الخبير أيضا أن أمريكا هى الرائدة فى جراحة القلب . سبقت أوربا فيه بمراحل ويكاد يكون من المستحيل أن يموت الإنسان هنا نتيجة خطأ إلا إذا كان عمره هو نفسه قد انتهى .

ذلك قرار آخر كان من الخير تماما أن تأخذه ، أو لا تأخذه . أليست إنجلترا أقرب إلينا وإلى طبيعتنا من هذه المصانع البشرية الهائلة التى يعالج فيها الإنسان ؟ ..

وقفة مع النفس هذه المرة

أجل فى نهاية الأمر ، الرجل ليس شوارب كثة أو صوتا عاليا غليظا ، والمرأة ليست مجرد أنثى غفدورة تعبت بها الحياة كما شاءت . لا . لا . لا . الرجل ولا المرأة خلق من أجل أن يكون جثة طافية فوق سطح الحياة يتولى التيار العام أو الموج أو الرياح أو الصدفة اتخاذ القرار لها بالوقوف أو التكوؤ أو الانحراف ، الإنسان إرادة . الإنسان إنسان فقط حين يريد ، أى فى تلك اللحظات التى تتكون له الإرادة فيها . ليس مهما ما إذا أراد أو يريد ، ماذا أحب أو لم يحب ، وإنما المهم أولا وقبل أى شىء آخر أنه إنسان لأنه دوننا عن كافة الجماد والمخلوقات كائن ذو إرادة . أى له القدرة أن يريد الشىء أو الهدف حتى إذا اختلف ذلك الشىء أو الهدف عما جرى به العرف أو توافقت حوله الآراء ، يريد ويحقق ما يريد .

وإذا كان الإنسان إرادة ، فالإرادة أولا قرار .

والقرار هذه المرة ليس عاديا أبدا : أن تكون أولا تكون . ليس فى مسرحية ، من شعر شكسبير . أو موقفا فى رواية أكتنها . ولكنه واقع صلب بارد لا مبال ، مثله مثل كافة الحقائق فى الحياة .

قرار على أن تأخذه ، أنا المملوءة خزانتي بأنصاف القرارات وأرابعها ، وكادت حياتي تؤول فى النهاية إلى (صدفة) قرارات توقفة التنفيذ ، مجمدة ، كهنة ، مهملة . أنا ، ومن منى بغيرها ، وكالة

بلح) لقرارات وقرارات ، على المستوى العام وعلى أخص المستويات ، كلها مكسرة أو مكهنة أو مهملة ، أو صدمت تماما حتى فقدت فاعليتها وأصبح لا ثمن لها حتى في سوق خردة القرارات .

أجل ، لحظة ، أو موقف ، تكشفت لي فيه أشياء كثيرة جدا . عن نفسى ، وعن شعبى ، وعن حياتنا ، وعن المأساة الحقيقية في حياتنا : إننا شعب بلا قرار ، نكاد نكون بلا قدرة أصيلة على اتخاذ القرار . نترك الأمواج والأهواء والحيوات تبعث بنا كيف تشاء . تشيلنا الحياصة وتحطنا . يتحدد مصيرنا . يتطرق أمام أعيننا المستقبل أو يحفل بالورود والزهور . يتغير الواقع . واقعنا أمام أعيننا ، تغيرا جذريا أحيانا . ونحن ننظر في شبه بله إلى الأشياء وهى تقع ، وهى تحدث ، وهى تتفاقم ، وكأن مرده أوجتا أو غفارت أو أشياء مجهولة هى التى تحرك الواقع وتحركنا . ولسنا في هذه المهزلة كلها المسماة بالحياة سوى متفرجين .

نتنظر آه . نصبر آه . نأمل آه . نعذب آه . نشكو آه . نلطم آه . نصرخ آه . نفرح آه . ولكن أبدا أبدا لا نصنع نحن الفرح ، ولا نصنع نحن الحزن ولا نصنع نحن الحدث ، وبالتالي لا نصنع أبدا ذلك الشيء المهم ، أهم شيء في حياتنا . لا نصنع حياتنا نفسها وإنما هى دائما تصنع (بنضم الشاء) لنا . تأتينا من أهلنا جائز ، من طبقنا جائز ، من الظروف جائز ، ولكنها تأتينا جاهزة ، فنقبلها وكأنها أمر القدر . عمرنا أبدا لا نرفضها أو حتى نفكر في غيرها . كل ما نطمح فيه أن نحسنها بعض الشيء أو نتعذب ونشكو بعض الشيء .. طلعت ضيقة شوية .. لأ .. واسعة حبستين .. لأ ..

الخضر مرهط شوية .. وهكذا أصبحنا أعظم أخصائين عن كافة الشعوب في تقبل الحياة كما هى ، و (تأييفها) — على رأى التعبير العسكرى — والتواؤم معها .

ذلك أننا — مثلنا مثل ماء النيل في بعض أجزاء النهر — نتوخى دائما أسهل الخطوط وألسلسها لنشقى الجرى أو نغيا .. ذلك لأن معنى غير التقبل ، معنى الرفض أحيانا ، معنى أن نقول : لا للظروف أو لتلك الحياة الجاهزة ، معناه رهيب وخطير ومروع ، معناه أننا سترفض الجاهز لنقرر نحن واقعنا من صنعنا . وتلك هى الكارثة . فمعناها أننا نكون مسئولين مسئولية كاملة عن إقامة حياة أخرى كما يحلو لنا . حياة قد تنفع وقد نفشل وسنلقى فيها كل صعوبات خلق الأشياء والتفكير ها والتدبير ، وأرذل الأشياء جميعا ، اتخاذ قرارات عميقة حاسمة ننفذها ونتعب تماما في أخذها وتنفيذها .. أليس الأريح والأفضل أن نقبلها ، وياشيخ ، بلاش وجع دماغ .. إنت لسه ح تعمل وتسوى ، خدها كده وريح نفسك . وعلى إيه دوشة الدماغ دى .

وهذه بالضبط هى المشكلة (دوشة الدماغ) . إذ نحن نسمى التفكير ذلك الذى يتفرد به الإنسان والذى اختصه به الله دوننا عن سائر الكائنات والأحياء — نسميه (دوشة دماغ) وكان الدماغ خلق لشيء آخر غير هذه (الدوشة) أو هذا (التفكير) . ألا نقول لبعضنا البعض إذا رأينا إنسانا منحرف المزاج قليلا .. أصل عنده شوية (فكر) .. التفكير إذن دوشة ومرض ووجع رأس . والجل .. التفكير ليس بـ تكون سلطان زمانك . ذلك السلطان الصعلوك الذى يلطم قافيت

الأسياذ ويزدردها ويدلق فى فمه قلة ماء ويتكرغ ويقول : أنا سلطان زمانى .

سلطان زمانه هذا الذى فى حياته مات بوا عرشا ، وإنما فوق رأس هذا السلطان زمانه أقيمت العروش والأعراس وركب الرومان واليونان والفرس والعرب والإنجليز وكان ممكنا أن يركب الروس والأمريكان وكلشنكان فما أكثر ماركب الطغاة سلطان زمانه ذلك الماركوب دائما معنى وبجازا « الملجم دائما » معنى وبجازا ، الذى يعتبر أن البردعة الموضوعة على ظهره هى العرش ، لا بهم أنه العرش بالمقلوب ، ولا بهم أنه ليس عرشا وإنما ربما (عريش) عربية كارو . ماذا بهم ؟ ومالى أنا ومال (وجع الرأس) ، و (الدوشة) حيث تركبني الهموم والأفكار .. مالى أنا وما لهذا كله ؟

هكذا راحت مشكلتى الشخصية كلما اجتررتها أو جذبتها أحس بها كخييط الحماوى ، تخرج بأشياء وأشياء ، لأجد أنها ليست مشكلة الساعة أو العصر وإنما هى طويلة طويلة طوفا ألف ألفان خمسة ستة سبعة عشرة آلاف ربما من الأعوام . أنا فرد هذا صحيح ولكن داخلى شعب بأكميله . داخلى تاريخ قديم قديم يمتد من الأزل إلى الآن . داخلى مفهومات وترسيات وقضايا مسلم تماما بها ، داخلى عصور جيولوجية صخور من الرواسب فوقها صخور داخلى إنسان مشكلته أنه أقدم إنسان ظهر على سطح الأرض عجوز ، عجوز جدا ، بلغ من الشيخوخة حد أن لم يعد مهما أبدا أى شىء يحدث فى الحياة أو للحياة .

تلك هى بالضبط المشكلة التى من أجلها بدأت ثورات الإنسان

المصرى فى عصرنا الحديث ، ولا تزال مشكلة أن تعيش كما يريدون أم كما نريد نحن ، ولأن الشعب هو أولا وأخيرا فرد ، ولأن الفرد هو أولا وأخيرا قرار ، فتوراتنا كلها وإن كانت ثورات جماعية شعبية لها مليون ظرف تاريخى ومليون وجه ونتيجة وتفسير إلا أنها فى أهم جوانبها راجعة إلى تملل ذلك الأنا المستسلم للقدر وللحياة فى قلب المصرى ، تملله من أجل أن يعود يحيا ومن أجل أن يعود يريد ومن أجل أن تصبح إرادته فى النهاية واقعا ، واقع لأول مرة من صنعه هو ومن كده ومن عرقه وبإرادته الحرة المطلقة ، وفى النهاية بقراره .

علمنا آباؤنا وأجدادنا ، علمونا فى المدارس والكتاتيب والجامعات ، حفظنا جدول الضرب و جدول منديليف وعلمونا جدولة الديون . كم علمونا وكم تعلمنا ، ولكن أحدا لم يأخذ باله أبدا ومطلقا من أهم الأشياء جميعها . أن يعلمونا أو نتعلم كيف نصبح رجالا .. أو بمعنى أدق كيف يصبح لكل منا شخصية وكيف يكون للإنسان منا رأى ، ثم فى النهاية وبناء على تلك الشخصية وهذا الرأى يأخذ قرارا .

أجل السؤال هو : كيف يتخذ الإنسان المصرى منا قراره ؟

بادئ ذى بدء وكما قلنا فإن معظمنا لا يكلف نفسه عناء اتخاذ أى قرار . فحياته كلها ليست قرارات من صنعه وإرادته وإنما هى سلسلة من الأفعال وردود الأفعال ، أو هى بالأصح ردود أفعال لما يقوم به أو يأتى من الغير .

والفرق كبير جدا بين القرار ورد الفعل

ما حدث إذا حدث ؟ وهل المسألة حظ أم فتاة أم قلة حيلة ، أم أن للمسألة وجهاً آخر ، لم نره أبداً ؟ لا أحد أراه لنا ، وربما نحن لا نريد أن نراه ، وجهاً آخر هو وجهنا نحن .
لننظر في المرأة :

لن نخاف أو نتوجس ، فنحن بعد لم نعد أطفالاً ، الحرب حاربنا ، التاريخ صنعناه ، آمون خلقتناه وعبدناه ، وكمن آمون خلقتناه وعبدناه ثم أمتهنا وبكينا عليه ، كل شيء فعلناه ، وكل شيء فعله ومستعدين لفعله .
انفتاح مستعدين ، اشتراكية مستعدين ، نظام مستعدين . فوضى مستعدين ، تمام ، كله تمام يا أقدم . وكمن ضيعتنا كله تمام يا أفندم ، يسار در : ندور ، يمين در : ندور ، وسط در : ندور ، فوق در : ندور ، تحت در : ندور . شقلبة تشقلبنا ، جدعنة تجدعنا ، مرمطة تمرطنا ، ثورة ثرنا ، تصحيح صححننا ، شد أحزمة شدينا ، غنا غنينا ، رقص رقصنا ، تضحية بلاذرة تردد ضحينا ، نكسة انتكسنا ، سموها هزيمة انهزمنا ، جاء ٦ أكتوبر ينفذنا فأنفذنا .
كل شيء فعلناه وكل شيء مستعدين أن نفعله .
إلا شيئاً واحداً نخاف خوف الموت أننا لن نقدر على فعله . ذلك أن نواجه أنفسنا بقي ..

نفسل أصباغ البهلوانات والمهرجين .. نخلع ثياب الأبطال أو الشحاذين .. نرمي العكاكيز .. نتخلص من العاهات المصنوعة والحقيقية .. من أغطية زجاجات الكاكولة ونياشين البطولة الحقيقية اللامعة المزركشة .. نزين اللحي المصنوعة .. نتوقف لحظة عن الزعيق

الأجوف الذي نحاول أن نخوف به الآخرين فلا يخاف منه سوانا .
نصمت ، يتوقف الصخب المروع المألئ حياتنا ، في ثبات الرجال نقف (أقول نقف) وفرق كبير بينها وبين أن نتوقف . فالحادث فعلاً أننا متوقعون والمطلوب أن نكف عن التوقف ، ونقف في ثياب الرجال وشجاعتهم نقف .. ونصنع ألف باء الفعل الجدير بأى بنى بشر : نواجه أنفسنا ..

لا أقول إذن نقف جميعاً ، بل أقول : ليقف كل منا ، عارياً تماماً من كل شيء إلا من نفسه ، من صدق نفسه ، أمام مرآة ، وهي ليست مرآة غريبة عليه لأنها مرآة نفسه هو ، وعلى مدى وقدر صدقه مع نفسه يكون لعائها أو ضباها وضميره وحده هو الحكم .
ولكن هذا الطلب ، وبهذه الصيغة ، أن يقف كل منا أمام مرآة نفسه الحقيقية وقفة مع نفسه ، هذا الطلب ، وبهذه الصورة فيه أيضاً ، ذلك التعيم الذى دائماً نهواه ونحبه لأنه التعيم الذى به نهرب من الواقع ومن أنفسنا كما تعودنا أن نهرب . ولقد ظننا نهرب إلى أن انتهى الأمر بنا حيث لا مهرب .

لكى يصبح الأمر تخصيصاً إذن محمداً وواضحاً لاليس فيه . أقول : فلاأقف أنا ، قبل أن تقف أنت . فلاأقف أمامك . وأمام نفسي وأمام الملأ . فلاأقف في تلك الغرفة الخاصة ، أمام تلك المرأة الخاصة ، عارياً تماماً في ذلك الحمام الروحي ، لأعرف من أنا . بالضبط : ماذا أفعل الآن ؟ ومن أنا ؟ .

وإذا لم أكن أنا ، فمن أنا ؟ إذا لم أكن ذلك المهرج ولا هذا البطل ،
إذا لم أكن ذلك القرار صاحب الكلمات الضخمة ولا ذلك الفعال الذى
غير وجه الدنيا ، فمن أنا ؟ وماذا أفعل الآن ؟ وماذا أنوى أن أفعل ؟ ..

قد يبدو للبعض أنها مسألة سهلة جدا . ما أسهل أن يتعري الإنسان
أو الإنسانة (خاصة هذه الأيام) وما أسهل أن يقف أمام المرأة وما أسهل
أن يجيب وكأنا إجابته مسجلة على كاسيت لا ينقصه إلا إدارتها ..
أما الصعب تماما ، أما الخطير تماما فهو أن يحدث هذا كله بصدق لأنه
يحدث — وربما لأول مرة — بينك وبين نفسك ، دون تدخل مطلقا من
أحد ، وباختيارك أنت وبارادتك .

إما أن أعيش الحياة كاملة ومطلقة وبكل ما أريده من حرية ،
أمام الحائط الأخرس المرأة واجهت نفسى ..
وكان على أن أتخذ قرارا .

وإما أن أعيشها عاجزا ومرعوبا ومكتفيا بفتات أسيادها .
ولكى أتخذ القرار كان على أن أعرف من أنا ، ومن أنتم ، وبالضبط
من نحن .

ولكى أعرف كان على أن أكون شجاعا تماما .
والشجاعة ليست صفة .
وليست قصرا على أحد .

وكلنا نستطيع — لو أردنا — أن نكون ، أو على الأقل نواجه ما
نريد ، حين نريد ، بشجاعة .

وأقصى درجات الشجاعة فى رأى ليست أن تقف مع الصديق أو مع
العدو أو تواجههما .. الشجاعة الأكبر أن تقول : أنا جبان .. أو أنا
خائف أو أنا لا أستطيع أو أنا قادر .

هو فى رأى الإكسبر السحرى للشجاعة .
بل هو الإكسبر السحرى للحياة ..

فلقد اكتشفت أن الحياة كلها هى فى ملخصها لحظة قرار شجاع ..
ومن يهرب منها ومن يؤجلها ومن يؤثر السلامة أى إشاحة النظر عنها هو
الذى يموت . أو هو الميت وإن ظل يحتسب فى عداد الأحياء .. حيا ..
واسمحوا لى أن أطلعكم على داخلى الذى لا يختلف كثيرا عن داخلكم
لأرىكم كيف أخذت قرارا ، أعتبر الآن ، وبعد أن مضى كل شيء
والحمد لله بسلام ، أنه كان أشجع قرار اتخذته فى حياتى .
فقد كان قرارا أن أعيش .

ليس تلقائيا هذه المرة وإنما أولد على يد نفسى ، وبارادة الله خالقي
وبحياة بعد خلقه الأكبر من صنعى أنا ..
ولكن تلك قصة أخرى ..

الحديث في صميم لحظتنا الحاضرة ، في صميم المشكلة ، في صميم ما تعانیه
أنت الآن في هذه اللحظة وما أعانیه أنا . ليس لأننا كلنا — والعياذ
بالله — مرضى .. وإنما لأننا كلنا وبطريقة أو بأخرى نمر بأزمة . الأزمة
هى الكلمة ، اجعلها اقتصادية تكن ، محبة تكن ، فكرية أو زواجية أو
جنسية حتى تكن . وما المرض بكل هيلمانه وخطورته ، بل ما الموت بل
الحياة نفسها سوى أزمة . لم نخترها نحن والعادة أن الإنسان ليس غاوى
أزمات أو هو الذى يختارها ، إنما الحادث أننا ، إلى رقابتنا فيها .

ولقد لامنى كثيرون أنى لم (أشرع قلمى) وأخوض فى النقاش الهائل
الدائر حول عبد الناصر وثورة عبد الناصر و ٢٣ يوليو والسد العالمى
والاشتراكية أو اللااشتراكية — التعذيب فى السجون — المعتقلات .
لامونى وكان المسألة قد انقلبت من معركة إلى معزى أو مناسبة اجتماعية
عليك أن تؤدى (الواجب) فيها وتجير بخاطر أهل المتوفى أو تنهال باللائمة
على المرحوم وتعتبره السبب فى كل ما جرى . وكنت إذا قيل هذا أو
فوتحت فيه أكاد أنفجر ضاحكا ، ذلك أننى كنت أتصور الوضع وكأن
قد قامت فعلا حريقه فى مسرح البالون أو دار الأوبرا وأن رجال المطاق
قد تركوا الاستعدادات العاجلة المطلوبة فوراً لإنهاء الحريق وراحوا فيما
بينهم وبين أنفسهم وعلى صفحات الجرائد وبالساعات والأيام والسنين ..
راحوا يتباحثون حول ما يمكن أن يكون السبب فى الحريق ، وهل هو
بفعل فاعل ، أم أن الاستعمار العالمى كان منفاظا تماما من مسرح البالون
فقلب نظام الحكم فى دار الأوبرا وأحاطها إلى مقبض عريائت كبرى . نقاش
ونقاش وصفحات وصفحات وأطنان من الخبز الأسطود والأشجار والأشجار فى

ألف باء تاء ثاء

آخر عهدى بقرائنا الأعزاء أنهم كانوا دائما يفهمونها وهى (طائيرة)
بحيث لا تصبح المقالة أو القصة حصية ، على الكاتب فيها أن يشرح لقرائه
موضوع الدرس وملخصه وفى النهاية يختمه بالحكمة المستفادة من
الموضوع . وهكذا أجد نفسى مضطرا لأن أعود فأقول — وبمتهى
البساطة — أنه لم يكن بذهنى أبدا أن أقص رواية عجيبة عن (مرضى)
أو عن (عمليتى) الجراحية النادرة مع أن هذا فى العادة مادة محبة جدا
إلى النفس لكل مريض . خاصة إذا مرت الأزمة . تصبح قصة مرضه
وأقوال أطبائه ومفاجآت مستشفياته مادة خصبة حية يحلو له أن يتريع
نفسيا بعد العشاء مع الأصدقاء أو أثناء الشاى ويحكى السيرة وكأنها
واقعة من وقائع الزير سالم . بل لم أقصد حتى أن أستعرض حالة فردية
(ولو كانت حالتى هذه المرة) لأقتصص منها ذلك الجزء الذى يمس الحالة
الجماعية لنا ويصبح للموضوع حيثئذ فائدة عامة .

لا ألبها السادة ، لا مرض ولا يحزنون ، ولا تستعينوا بالله من السيرة
وتقلبوا الصفحة إلى موضوع آخر أكثر أملا وإنعاشا للنفس . إنى فى
حقيقة وقرارة نفسى كنت أريد وعلى وجه التحديد أن أتحدث عن ذلك
الجانب المشرق فى النفس . الجانب الأحياء وليس الجانب الأمراض ،
الجانب المكفأ وليس الجانب الأعجز . كنت أريد — ولا أزال أريد —

تدلق فوق جرائد وكتب ومجلات يتخاطفها رجال المطافئ ويجلسون على المقاهي يطالعونها بحماس شديد لمعرفة الأسس الفكرية والعقائدية والنفسية التي تسببت في الحريق والحريق والعمى والمتأجج والحمد لله أمامهم يلتهم الأوبرا والبالون والمصانع ويلتهم النفوس البشرية ويلتهم التليفونات ويلتهم المواد والمجاري وكل ما يمكن أن يلتهم على سطح أرضنا الطيبة . كنت أكاد أنفجر ضاحكا من الغيظ ومن غرابة الموقف ، ناقش الموقف وكأننا والحمد لله وصلنا إلى بر السلامة وجلسنا مسترخين فوق رمال الشاطئ نتشمس ونستامر بالحديث عن البحر المهيول العميق والمركب التي غرقت بنا أو كادت تغرق والمغامرة العجيبة الغريبة التي لا تضارعها مغامرات أجعص سنبدا . وكأن السندباد قد عاد من الرحلة وكأنه نازع الأهوال والأمواج وأكله خوم البشر وعاد معافي سليما لا يشكو من مرض . والعجيب أنه ليس أول موقف مضحك من مواقف التاريخ المصري أو الطريقة التي يعالج بها الإنسان المصري حاضره وتاريخه ، فلقد ظللنا بعد ثورة عرابي نقاش أخطاء ثورة عرابي وخيانة خنفس بك ، بينما نفس الذين أفضلوا ثورة عرابي وعشرات الخنافس الذين خانوا الشعب في خضم هذا النقاش الهائج ائاثل ، يسرقون ما تبقى من ثورة الشعب المصري بعد عرابي ويهدون الجدران والأساسات التي تقف بعد انهيار الأدوار العليا كي يجعلوها سداح مداح كذلك الأمر حين قيل إن ثورة ١٩ قد انتكست .. فقد ظل النقاش الساخن الفائر دائرا حول سعد وعدلى وأيهما كان على حق بينما كان الإنجليز والسراي في نفس الوقت المشغولة فيه العقول والقلوب بالتحزب لعدلى أو لسعد .. كانوا

يخالون البقية الباقية من ثورة ١٩ ويبلهون دستور ٢٣ الذي جاءت به السورة ، مني ليصل الأمر في أوائل الثلاثينات بمحمد محمود وإسماعيل صدقي أن يحكما مصر ، مصر التي ثارت ثورة رجت الإمبراطورية البريطانية في عنقوان قوتها ، يحكمون ذلك الشعب الأسد الذي ثار بالحديد والنار ويحولون العداء الذي كان من الواجب أن يستحكم بين المصريين والمحتلين إلى عداء بين الوفد وبقية أحزاب الأقلية .

ونصل إلى الآن ، وإلى ألد المواقف إضحاكا . تصوروا نحن بالكاد قد انتهينا من بناء السد العالي ، بل ولم تعمل فيه إلا أربعة توربينات فقط أى ثلث قوته العادية وأنفقنا عليه من الجهد والعرق والمال ما لا بد يتوء بحمله شعب صغير محدود الموارد مثلاً . نحن بالضبط مثل التاجر أو الموظف الصغير الذى قضى عمره يحوش ويدير لبيتى عمارة من ثلاثة طوابق مثلاً ، وها هو قد بناها وأصبحت أكبر رأسمال يمتلكه وأسكن منها الطابق الأول وبدل أن يعتبر أنه أصبح أمام أمر واقع فعلا ألا وهو ذلك البناء وأن لا سبيل مطلقا إلى استرجاع ما أنفق عليه وما بذله من جهد إلا إذا هدمه وباعه خردة ، بدل أن يدرك هذه الحقائق الواضحة التي لا تقبل الشك أو الجدل ، بدلا من هذا يجلس على الرصيف المقابل لا ليتناقش أنسب وأكسب الطرق للاستفادة بهذا البيت الرأسمالى ، بدلا من أن يفكر في إقامة كازينو علوى أو إنشاء صناعة تعليب أتمناك على ضفاف البحيرة أو استعمال الثمانية توربينات الكهربائية التي بعد لم تستعمل ، بدلا من هذا يجلس وحوله عائلته الكريمة ، تارك البيت ينطى الوقت والجهد والمال الذى بذل فيه ليتناقش هل كان يصح أو لا يصح إقامة بيتين بجانب

لنفرض أن إقامته كانت خطأ في خطأ .. ماذا نفعل ؟ .. نهديه ؟ ..
نظره في المزداد العالمي لشترية دولة أخرى تقيمه فوق نهر آخر ؟ بل
لنفرض أننا قاضينا المفاوض الذي بناه أمام محكمة خاصة قاسية تماما
وحكمت عليه بأقصى الأحكام ألا وهو الموت مثلا ، ألم ندرك بعد أن
المفاوض مات فعلا وأن هذه التركة لنا وأن المحاسبة لابد أن تكون أولا
محاسبة لأنفسنا لأننا لا نستغل التركة — حتى بفرض وجود عيوب فيها
ومنها — كما يجب — لا . نحن لا نفعل هذا أبدا وإلا تخلفنا عن صفتنا
القومية البارزة ، سنظل نناقش أكان يجب بناء السد أو كان لا يجب حتى
ونحن ، بلا نقاش ، وقبل أن نستفيد الفائدة الكاملة من كهرباء السد
نشرع فعلا في إقامة سد آخر في منخفض القطار لتوريد وتوليد كهرباء
لنا ، وكأننا استنفدنا القدرة على توليدها من السد العالي دون إنفاق مليم
واحد . بل أكثر من هذا وبلا نقاش أيضا أو حتى محاولة للاستشارة نقيم
محطات لتوليد الكهرباء بالطاقة النووية تتكلف ملايين الجنيهات ودائما
سنستورد وقودها النووي من بلاد أجنبية وستكلفنا إدارتها وسيكلفنا
الكيلوات الواحد منها أضعاف أضعاف ما يمكن أن يكلفه توليد
الكيلوات الواحد من الطاقة المائية المتوفرة عندنا والحمد لله بكثرة ، ومن
الطاقة الشمسية التي تغمر الأفق . نفكر في إزالة الملوحة عن مياه البحر
الأبيض وبالطاقة النووية المكلفة وكأننا استنفدنا تماما المياه العذبة الطبيعية
التي من الله بها علينا من نيلنا الكبير الذي تذهب مياهه هدرا وبمتهى
الإسراف إلى البحر المتوسط إياه لكي تستحيل بتقصيرنا إلى مياه ملحة
نقيم لها المحطات لإزالة ملوحتها . ونفعل هذا كله بلا نقاش بيننا النقاش في

هذه المرحلة هو المحتم والواجب إذ ربما يتفق الأمر عن عمل مواسير أو ترع
بالأسمنت المسلح تنفوز في قلب الصحراء إلى سيوه لو أردنا ، وبتيكاليف
لاتكاد تعادل واحدا على ألف من مشروع القطارة الذي قيل — والله
أعلم — أننا سنستخدم في إنشائه القنابل الذرية .

النقاش على حسب تقاليدنا القومية المعتادة سيكون بإذن الله بعد إقامة
هذه المشروعات وبعد أن نكون صرفنا عليها نحن الفقراء الجلد والسقط
وبدلا من أن نناقش الآن وبمتهى الهدوء أولئك المهندسين والمخططين
الذين يتصدون لمشروعات القطارة وإزالة ملوحة البحر وتجنب خسارة
محققة جسيمة أو يتكشّف لنا الأمر عن مكسب حقيقي ، بدلا من هذا
ننتظر حتى يخططوا بسرعة وعلى عجل للمشروع ويصبح أمرا واقعا
ومالا وجهدا وعرقا تحتويه الرمال وتبتلع أمواج البحر وهنسا نجار
بالصراخ ونطالب برعوس هؤلاء المخططين والمهندسين بعد أن يكون
معظمهم قد تاواه القبر أو انتهى أجله أو أصبح في حالة لا تسمح بأي
عقاب .

أليس الأفضل أن نناقش الشيء (قبل) أن يصبح خطأ أو صوابا من
أن نعاقب مرتكب الخطأ (بعد) أن يكون العمل قد تم ؟

ما علاقة كل هذا بالمرض والعملية ..

العلاقة أن المرض والعملية والظروف القاسية التي نكره الحديث عنها
الآن وعن قولنا إننا نمر بها ليست في شكلها الجرد سوى (أزمة) ..
والإنسان إذا مر بأزمة مفروض أن لا يتوقف ولا يتذلل ..

ونيكى وينوح ويتساءل .. لماذا هو دوننا عن بقية الدنيا قد أصيب بتلك الأزمة ؟ إنه قد يتوقف لبرهة هذا صحيح ليعرف من أين أو كيف جاءت ، ولكنه لا يعرف هذا ليحكم جسده الذى تخاذل أو يصب جام غضبه على الميكروب أو الجلطة وإنما ليستمد من معرفته هذا نورا يهديه السبيل للمقاومة الفورية الواجبة . مرة أخرى أقول يعرف ليقاوم . وخللايا الجسد نفسها ببساطتها وتلقائيتها تعلمه تماما هذه الحقيقة . تتولى معاملها ومراكز المقاومة تحليل سم الميكروب وتحديد فصيلته ثم تتولى مصانعها المدفونة فى أكبادنا ونخاع عظامنا تتولى على الفور صناعة الأسلحة المضادة ، تصنع الأسلحة وهى قد دخلت المعركة من أول لحظة ، تحارب وهى تصنع ، تحارب وهى تفكر وتحدد ، تنظم مقاومة شاملة غير محدودة فى أول الأمر ثم حين تتولى معاملها الخلطة تبين العدو أكثر فأكثر نتيج له وهى أيضا تحارب وتقاوم أسلحة أكثر دقة وأكثر تخصصا وأكثر قدرة على التهايب أسباب العلة ومقاومتها .

ولكن المسائل تتعقد كثيرا ، حين ندرك رحلة مقاومة الجسد وحرب الخلايا الطبيعية الفورية ونصعد فوقها إلى المرحلة الأعلى حيث لا بد على الإنسان ككل وكإرادة أن يدخل المعركة . فهذا هو دخول الأسلحة الثقيلة ، إذ أن أثقل سلاح يمتلكه الإنسان ليصد به العدو أو يرحب بالصديق هو إرادة ، وأثقل قذيفة تطلقها الإرادة هى قذيفة القرار .. وهنا تأتى علتنا القومية .. فأسخط شئء لدينا هو إنتاج هذا النوع من الأسلحة المحلية مع أنها السلاح الوحيد الفعال.

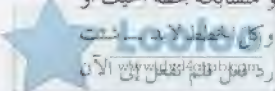
لا أدري لماذا ؟ .. أنسب أننا تعودنا دائما استيرادها ، أنسب أننا

رغم حديثنا الكثير عن أن الإرادة لا بد أن تكون إرادتنا وأن القرار لا بد أن يكون مصرياً أولاً وأخيراً نفعل عن حقيقة خطيرة هى أننا يمكن بهذه الوسيلة أن نجعل اتخاذ القرار حقيقة فى أيدي غيرنا بل ربما فى أيدي أعدائنا ؟ فحين يعرف أعداؤنا — حتى بفرض وجود عيوب فيها ومنها قراراتنا هى فى الواقع ردود أفعال لأفعالهم هم — ردود مصرية حقيقية .. نابعة منا .. هذا صحيح .. ولكن سببها وعلتها أنها موجهة ضد (قرار) آخر اتخذ العدو أو أنتخذ الصديق . وأن هذا العدو باستطاعته التحكم فى قرارنا .. أى التحكم فى ردود أفعالنا بالتحكم فى قراره هو . وبهذا تكون النتيجة فى النهاية أن العدو هو الذى يقرر لنا .. ومثل هذا واضح تماما فى حرب ٦٧ فقد بدأت المسألة بصرخة استغاثة مشبوهة من الحكم السورى فى ذلك الوقت أن إسرائيل تحشد قواها لاجتياح سوريا ، ولأن رد الفعل كان مدروسا فقد كان معروفا للإسرائيليين أن رد الفعل الطبيعى لمصر أنها ستقول : لو حدث عدوان على سوريا فسوف تصدى مصر للدفاع عنها . وهنا تصرخ صحف مشبوهة أخرى فى بيروت وتقول : كيف يا عبد الناصري من زعم أنك زعيم القومية العربية تستطيع الدفاع عن سوريا وأنت نفسك تستعمل القوات الدولية لتحريك من الإسرائيليين ؟ فيكون رد الفعل الطبيعى — بعزة النفس المعروفة — أن يقول جمال عبد الناصر : لست فى حاجة لهذه القوات للدفاع عني ، فلتنسحب هذه القوات .. وبسرعة وبلا أى نقاش وكأن الأمر مؤامرة دولية يصدر لقوات الأمم المتحدة الأمر بالانسحاب من سيناء وبالذات من شرم الشيخ .. ورد الفعل معروف

مقدما — كلعبة الشطرنج ومدروس — فمعنى خلو شرم الشيخ من القوات الدولية أن تتقدم القوات المصرية للحلول مكانها . بخطوة مدروسة تماما ، وحين يحدث هذا تنفجر ميكروفونات الدعاية الإسرائيلية والغربية في كل مكان : الحقوا .. عبد الناصر سيخنق إسرائيل . لقد أطبق على زمارة رقبته من شرم الشيخ .. إسرائيل تخنق ثلاثة ملايين إسرائيلي مهذدون بالإبادة .. إلخ .. أليس في هذا أروع إعداد مسرحي على مستوى الرأي العام كله للوقوف بجانب دفاع إسرائيل عن نفسها ؟ أى الحرب ، أى ما حدث فعلا وهو قيام إسرائيل جهاراً نهاراً بحرب غادرة حطمت فيها الجيش المصرى تحت الشعار الذى يبدو عادلاً تماماً ومنطقياً تماماً ومحل عطف العالم كله ألا وهو : الدفاع عن شعب نقبض نحن على زمارة رقبته . كل هذه القرارات كانت مصرية فعلا ، ولكن لأنها ردود أفعال لقرارات من صنعهم هم ومن صميم إرادتهم كانت في الحقيقة قرارات عدوة ونحن لا ندرى .. قرارات ليست مصرية ولا عربية ، في الحقيقة تكاد تكون قرارات إسرائيلية مضمونا ووظيفة وعلّة . وليس من أجل المقارنة — وإنما نحن لازلنا في منطقة القرار .. كان أحد الجوانب العظمى في حرب ٦ أكتوبر أنها وإن كانت في عمومها رد فعل للاحتلال الإسرائيلي لسيناء وإنهاء لحالة اللاسلم واللاحرب إلا أن القرار هنا كان فعلاً قراراً ولم يكن رد فعل .. ولهذا أربك ليس فقط إسرائيل ، أربك إسرائيل ومن هم أكبر منها : أمريكا وروسيا وأوروبا وكل العالم بحيث أصبحت قراراتهم هم مجرد ردود فعل . والحكمة في هذا أن الذى ينتصر هو الذى يصنع القرار المنتصر .

لا ينتظر أن يرد له القرار جاهزاً . لا ينتظر الآخرين ليقرروا ، يضع هو القرار ، وإذا كنا اليوم في أزمة فالخروج منها ليس بانفتاح سحري دائماً نتصوره كخزائن سليمان ستفتح لنا ، وليست فقط بمعونة عربية . وليس فقط بالقروض . إنما هذه أدوية مصنوعة خارجية تساعد الجسم على مقاومة المرض . ولكن حتى المضادات الحيوية في أقصى أدوارها لا تشفى في حد ذاتها ، لا تشفى إلا جسدا يقاوم بنفسه أولاً . وبأدواته وأسلحتها التى أنتجتها معاملته ونخاعه مهما بلغت من ضآلتها . وأولاً وأخيراً بقراره . قرار ذلك الجسد أن يقاوم الأزمة .

وهذه تدخل حالتى وحالتك في الموضوع ، فهو صحيح لا يمكن إلا أن يكون قراراً جماعياً من صنع أمة ودولة وحكومة ورئيس وشعب ، ولكن حتى هذا كله لا يصلح ما لم يتخذ القرار أولاً على المستوى الفرد ، على مستواك وعلى مستواي . وليس في أمور كبرى كالانفتاح أو مشروع القطارة أو مجتمع الكفاية والعدل الذى نريد صنعه ، وإنما هو يبدأ ، إذا بدأ ، على أول وأسرع وأبسط مستوى في هذه اللحظة بالذات . لحظة انتباهك من قراءة الجريدة . ماذا سوف تفعل ؟ . ثقل أنك مهما تكون قد قررت أن تفعل فالفعل لابد أن يكون له في النهاية هدف ، والهدف لابد أن يكون مرتبطاً بخطّة ، خطّة يوم جمعتك هذا ، وخطّة هذا اليوم لابد أردت أم لم ترد أن تكون مرتبطة بخطّة الأسبوع القادم كله والشهر القادم ، ولابد في النهاية أن تكون مرتبطة أو متشابهة بخطّة أخيك أو جارك أو رئيسك أو مرعوسك أو زبونك . وكل الخطّة لابد — شئت أم أبيت — أن تكون مرتبطة بقرار ، ليس



سوى ردود أفعال إنما قرار أى فعل تبدأ أنت أو أنا وتحديد به بشكل قاطع ماذا تريد وعلى الدنيا كلها بعد هذا أن تخضع أولا تخضع لما تريد .

وفي المرة القادمة سأحدثك عن مواطن مصرى مثل ومثلك أخذ قرارا صحيحا لم يكن قرارا عاديا ، ولكنه قرار كأى قرار ، قرر أنه يصبح أعظم جراح قلب فى عالمنا المعاصر .

فكيف فعل ، وهل وصل ، وكيف وصل ، وهل المسألة بهذه الاستحالة ، أم أن الاستحالة الحقيقية التى اكتشفتها هى أولا وأساسا : أن تأخذ القرار ؟ ..

* * *

اقتحام الحياة

أحسنست أنى أمت إلى الرجل بصلة ما .. أتكون نداء الدم .. هذا الهادئ المريح تماما المذهب عنك حتى قبل أن يفحصك كل ما يقلقك فى هذا العالم ، مصرى ، وإن بدت مصريته فى إطار أوسع بكثير حتى من خريطة منطقنا .. إذن هذا هو مجدى يعقوب الذى سمعت عن نبوغه وأنا فى مصر ، وأنا فى أمريكا ، وأنا هنا فى لندن ..

كنت قد شجعت طبا وأطباء واستقر رأيي تماما أن آخذ الأمر ببساطة ، فما دام ليس هناك خطر آجل أو عاجل على قلبي أو صحتي ومادامت شرايين القلب كلها فى حالة حسدى عليها طبيب الأشعة العظيم ميسون سونز نفسه ، ومادامت كما أنا ، عائش ، حنى ، صاحب الحياة والضحكات كعادتي ، فما الداعي إذن لإسلام رقبتي لعملية خطيرة كعملية القلب ، لا مسوغ لها الآن بالمره .. وربما لن يكون لها — كما أكد لي جميع من قابلت من أطباء عالمين — داع فى المستقبل .. كان موعد عودتي إلى القاهرة قد تحدد وحجزت ولم يبق إلا شيء أخير أفعله ، ذلك أنى كنت وأنا فى أمريكا قد أخذت موعدا مع الدكتور مجدى يعقوب عن طريق سفيرنا الطبى فى لندن صديقنا القديم الدكتور عبد الغفار خلاف ، إن هو إلا رأى آخر أو أخير أضيفه إلى حصرتي من الآراء والتقارير ، وسلام عليكم سلام ورحمة الله .

ولكن — تقدرون فتضحك الأقدار — هذا صحيح ..
فحصنى مجدى يعقوب . فخور أنا به .. ذلك المصرى النابغة الذى عرف ما يريد وعمل له ، فأثناء دراسته — وهو فى الثالثة طب قدم لامتحان المرحلة الأولى فى شهادة الزمالة فى كلية الجراحين الملكية ، ونجح فيها ، وتلك ، فى الوسط الطبى والجامعى حادثة لا تقع كل يوم .. لم يقل لى كلمة واحدة أو اشتكى من أحد مع أنى أعرف أنهم أفهموه منذ اليوم الأول لمزاولته الجراحة فى إحدى كليتنا الكبرى أن لا أمل له فى مستقبل جراحى فى مصر ، ورفضوا تعيينه مدرسا . وجاء إلى لندن كما يجىء عشرات ومئات — وآلآن أصبحوا آلاف — الأطباء المصريين للدراسة أو العمل . هجرة إرادية أو إرغامية المهم أنه كان دوننا عن هذه المئات من الأطباء يصر فى نفسه أمرا .. أن يصبح جراح القلب الأول فى هذا البلد الذى ليس بلده ، بل أن يصبح جراح القلب الأول فى عالم ليس من السهل حتى على النابغة فيه أن يحصل على وظيفة ، أى وظيفة محترمة تدر دخلا طيبا . وبدأ العمل فى لندن ، فى عروقه تجرى جرثومة الكدح الدعوب الأعظم الذى ينحدر إلينا من سلالات بعرقها ونضالها أقامت للعالم القديم والجديد وإلى الآن أكبر وأضخم رمز للحياة والموت معا .. الأهرامات والمعابد والتمائيل التى لاتعبر عن القوة والفن فقط ولكنها وبفصاحة تحرس الأسنن وتعب عن روح شعب إن استهل أو استعبط أو تمسكن يوما فإنه يملك داخله طاقة لا نهاية لها ورغبة فى إثبات الوجود لا حدود لوصفها .. بهذا الدأب مضت أصابعه غير الرفيعة — كما تعودنا دائما أن نعرف بها الجراح — تعمل ، الأربع والعشرين ساعة ، تعمل

الأسبوع بأكمله ، والعالم بأكمله ، بلا كلل . بجهد ، جهد معجز جبار استطاع أن ينتزع من دهاة الطب والعلم فى العالم — الإنجليز — اعترافهم بنبوغته حتى إنهم منحوه الجنسية الإنجليزية .. وأطلقوا عليه مستر ياكوب ، وأصبح مستر ياكوب بلانجارت فى جراحة القلب بعدد حالاته التى يعرضها فى المؤتمرات بالبناء الهائل الخفيف الذى راح ينيه صخرة فوقها صخرة وإصرار فوق إصرار ، يتحدى ، ويقبل الحالات الميوس منها ، وبالساعات يجاهد فيها ويجوارها حتى ينقذها . تتحول الحالات التى يجمع فيها على اللا أمل من خلال أصابعه إلى أمل وحياة جديدة يستنقذ بها إنسانا آخر من موت محقق . أصبح بهذا كله مفخرة للإنجليز ، وصرنا نحن ، نحن الذين رفضنا تعيينه مدرس جراحة بسيط نستقدمه كما نستقدم كبار الخبراء العالمين وتستضيفه جامعاتنا ، نفس جامعاتنا التى أنكرته ناشئا ، تستقبله عظيما وكبيرا وخبرة عالمية لا تقدر .

فحصنى وشاهد الفيلم السينمائى ، وقال لى فى النهاية منلما قال كبار الأطباء الذين سبقوه : ليس هناك حاجة لعملية وكما قالوا لك ، فعلا تستطيع الحياة كما تشاء وربما لا يتحدث لك بالمررة أى تعقيدات إلى نهاية العمر .

دون تحصيل حاصل آخر وآخر .

وارتديت ملايسى وغادرت المستشفى الأنيق الذى بناه الإنجليز خصيصا لعلاج الأثرياء . وبالذات الأجانب وبالذات الذات العرب حتى إن لافتاته مكتوبة بالإنجليزية والعربية

ورحت في ليل لندن المبلل دائما إما بمطر سبق أو ذرات مطر قادم .
اللامع بالنور والضججات الصغيرة المبعثرة ، رحت أتمشى وقد قررت أن
أعود لفندق سائرا على القدمين .. أفكر . في ماذا ؟ . تلك هى
المشكلة ..

شيء ما كان يؤكد لى — رغم كل التقارير والآراء التى لا ذرة شك
في صحتها وجديتها أن في الموضوع ناحية غامضة لا تزال ، ولكنها ،
هناك ، رابضة وباستمرار تدق .

فوجئت — بل ماذا أقول — أقول لى أبدا لم أفاجا ، بمكالمة تليفونية
في اليوم التالى من الدكتور مجدى يعقوب ، لم تكن هناك تقارير أو
معلومات مؤجلة وأقول إنه طلبنى ليقول لى رأيه فيها ، ما الموضوع إذن ؟
إنه يريد أن يراى فى الغد — الأحد — العطلة المقدسة عند الغرب قاطبة .
— اسمع .. سأكون صريحا معك ... لو كنت نوعا آخر من البشر
لاكتفيت بما قلته لك بالأمس ، ولكنى أكاد أعرفك وأجزم أنك لن تقبل
الأمر أبدا ، لن تقبل أن يظل داخلك خلل ما ، مهما بلغت تفاهته أو
أهميته ، سيظل القلق من هذا الشيء ألما يتأجج داخلك حتى يقضى هو ،
وليس المرض ، عليك .

أية حكمة أعطهاها الله لهذا الإنسان حتى ينطق هكذا ما كان داخلى
ينوء به وأحسه بعنف وعمق ولكن معناه وألفاظه لم تكن تطفو أبدا إلى
سطح عقلى لتتخذ شيئا ميلورا قابلا للفهم هكذا .
وهنا ، لا بد ، وفوق آراء مجدى يعقوب في شخصى وشخصيتى أن

أقول كلمة عن نفسى ، وأنا أكره تماما أن أتحدث عن نفسى ولكن لأن
أحدا لم يفهم ما حدث إذا لم أتكلم فلا بد أن أقول لى شخصية ليس من
السهل فهمها .. ولكن هناك جانب منها أعلمه علم اليقين ذلك أنى أبدا
أبدا لا أقبل المساومة أو النص نص ، وبالذات حين يتعلق الأمر بصحتى
أو بآلتاجى ، إما الكل وإما لا شيء .

إما أن أكون أو لا أكون بالمرءة .. حتى أن أمراضى كانت كلها سببها
رغبتي الشديدة أن أظل سويا ، وقد وضع مجدى يعقوب أصبعه بمهارة
فائقة على (قلب) مشكلتى تماما ، وفهمنى تماما ويارب ، لهذا السبب
ظفت العالم لآنى في نهاية المرحلة وعودتى مقررة في الغد ويكون على أن
أأخذ من جديد قرار العملية !؟ ..

لكم كان يوم أحد قاس حقا . أنا الذى أعرف في الطب وأصبحت
ضليعا في القلب بحكم ما حدث ، قرأت كل ما كتب ، حتى ما لم ينشر
قراءته . أعرف تفاصيل التفاصيل ، أدرك موطن الخطر في كل خطوة من
خطوات العملية ، يتولى ذلك الحالم الفنان الغزير الخيال تضخيم الحقائق
حتى ليبدو الفار مخيفا في حجم الفيل ، أنا .. ألهذا ، أنا المحب إلى حد
الوله للحياة ، المقدر أضعافا مضاعفة لقيمتها . القادر في نفس الوقت على
أن يقامر بها كلها من أجل ألا يخسر جزءا ولو يسيرا منها ، بل ليس منها ،
ربما من أجل ألا يخسر أحد آخر بعض حياته ، أو على أمل أن أضيف لها
وللدنيا شيئا ولو طفيفا يجعلها أكثر عدلا وأكثر احتلا .. أنا الوحيد في
كل هذه الجمعة فكل المعارك ممكن أن تأخذ أى الآخرين فيها وتغير
رأيتك من أجل رأى آخر أحسن .. ولكنى ..

فأنا الذى سأعيش ، وإذا مت فأنا وحيدى ولا شئ آخر غيرى
سيموت . صحيح قد يحدث حزن كبير أو صغر ، أسف ، حسارة ألف
خسارة ، غزاء ، أشياء أخرى كثيرة قد تحدث ولكنى أنا أكون قد
انتهيت .. أنا ولا أحد غيرى .

مادامت المعركة معركة راكب واحد وسائق واحد وقرار واحد كله
أنا فلا أكن وحيدى تماما إذن ، ولأرسل زوجتى — وقد اطمأنت تماما فى
رأبها على حالتى — ولأخلف أنا بحجة قضاء يومين لمعرفة آخر التطورات
المسرحية والأدبية فى لندن ، وأذهب معها إلى المطار ، وأقبلها قبلة الوداع
إلى القاهرة ، ولكنها أبدا لم تلحظ أنى ، فى جزء من الثانية كانت قبلة من
أجل الوداع إلى الأبد .

مصيبتنا فى مصر أننا نحب الحياة ، ونحب لها أن تطول ، ونحن أول من
ابتكر للعالم وعدها بفكرة الخلود والحياة الأخرى. تشبها بها بنينا المقابر
وغورنا بها فى قلب الجبل وزودناها حتى بالطعام والشراب حتى نكون
جاهزين للحياة الأخرى المؤكدة التى لا بد سنعود — وكما كنا تماما —
إليها . كان المصريون القدماء مؤمنين إلى حد اليقين المطلق أننا عائدون
وأن الموت لا يمكن أن يكون نهائيا ولو كانوا قد وضعوا احتمالا ولو واحدا
فى المليون أن الموت هو النهاية تماما ربما غيروا وجه تاريخهم وبالتالي وجه
تاريخ العالم . نحن هكذا ومن قديم الأزل تسبح فى دماننا عقيدة أن
الموت — لأنه مروع ، وخيف وغير محتمل فكرة تصديقه بالمرة — لا
يجب أبدا أن يكون النهاية . ربما الجنس البشرى كله هكذا ولكنها فىنا

مضاعفة آلاف المرات ..

ولكن هذه العقيدة نفسها بقدر ما أراحتنا سيكولوجيا بقدر — فى
رأبى ما قتلنا عمليا ، طول العمر والرغبة فى تطويله إلى آخر المدى ،
التمسك بالحياة ، أى حياة ولو حياة العبيد حتى خير ألف مرة من فكرة
النهاية النهائية بالموت . موضوع أترك للأثر وبولوجيين خوضة وتفنيده ،
فلم أكن فى ذلك اليوم (أنفرج) على مصر وشعب مصر وعادات
المصريين وتركيباتهم النفسية . كنت مصريا يواجه فكرة أن يموت أو لا
يموت . مرعوبا رعب الأول من الموت . خائفا من فقدان الحياة خوفا لا
مثيل له لأنه خوف أوحد ليس مثله أى خوف آخر . عائدا من المطار فى
الأتوبيس ذى الدورين الأحمر ، جالسا فى الدور الأعلى أدعخ وأحس
براحة عميقة تجعلنى شديد الضعف من نفسى . ذلك أنى كنت قد
اتخذت القرار . أن أعمل العملية وأخلص . ولكن المهم ليس العملية .
المهم فى كلمة (أخلص) هذه . فهو لم يكن قرارا بإجراء عملية جراحية
هدفها الشفاء النهائى إلى آخره ، كان القرار فى حقيقته وكما كنت أراه ،
قرارا بالموت .

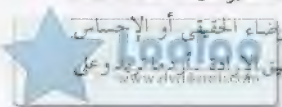
تصوروا .. رجل بكامل قواه العقلية وبمطلق إرادته يأخذ قرار أن
يموت هو ليس قرار مرووش ضاقت الحياة فى عينيه فقرّر أن ينتحر . لا ،
لم يكن قرار انتحار ، ولكن كان قرار أنه لى أن أعيش كما أريد ، وإذا
كان على أن أفعل لأحصل على هذا أن أمّر فى نفق الموت ، فسأمر . قد
أخرج من النفق سليما ولكن ليس هذا هو المهم ، المهم أنك عرفت أن
تدخل النفق ، قرار أساسه الأول أنك لن تخرج من النفق أبدا .

حاصرَكَ الأعداء فوق سطح العمارَة أن تقفز من العمارَة عبر الشارع لعمارَة أخرى ، وهو أمر يبدو للمشاهد من الخارج أنه شبه مستحيل ، وأن تلك القفزة شيء لا يمكن أن يقدم عليه عاقل .. فما بالك ولم يكن هناك أى أعداء يحاصروننى ولم أكن مضطرا أبدا للقفزة ؟ لو عرف الواقف فى الشارع هذا الخطب كفا بكف وأقسم أنه إنما يشاهد شخصا خارجا لتوه من سراية المجانين .

ولكن . هذا هو بالضبط ، ما يمتينا أحياء أيها الأعرء المضربون ، هذا العقل الشديد الذى تأخذ به الأشياء ونظر به إلى الأشياء هو الذى يخيفنا من الأشياء فيجعلنا لا نفعل شيئا بالمرَة ، لأن كل فعل ، أى فعل ، يحمل فى طياته بالضرورة نسبة من المغامرة ، والتعقل الشديد ضد أى مغامرة ، ولهذا ولكوننا متعقلين أشداء لا نقدم على أى فعل — أو بالأصح هذه هى القاعدة — لا نقدم على الفعل إلا مضطرين ومكرويين ومهمومين وبانسحاق شديد ، ولا بد أن يكون هربا من احتمال آخر أكثر مغامرة وأكثر بالتالى خطورة .

إن الخوف الشديد من الموت يستتبعه بالضرورة خوف شديد من الحياة ، وحرص شديد على ألا تموت ، هذا الحرص الشديد يستتبعه بالضرورة تجنب أى نسبة من المغامرة ، أو بمعنى أكثر وضوحا أى نسبة من الفعل ، ولهذا نحن نفضل الفرجة على من (يفعلون) وكأننا نستعيز بهذه الفرجة عن الفعل نفسه . والنتيجة أننا نحرم أنفسنا من أعظم اللذائذ جميعا لذّة الفعل لأنها لذّة الحياة الحقيقية ونوهم أنفسنا أن لذّة الفرجة أسلم وأضمن . نحن بهذا نفعل تماما كما لو كانت الحياة حكومة

وكما لو كنا نحن الأحياء موظفين لديها ونخاف أن نفصل منها ، والنتيجة أن نركع تماما لها ونكف تماما كأى موظفين مثالين عن أى حركة مخافة أن نخرج على قوانين التوظيف ونرقد . نحن موظفون لدى الحياة وبالتالى لدى الأحياء فى الدنيا قاطبة ولكننا — وصدقنى — لسنا أحياء بالمرَة ، وليست هذه حياة . فالحى لم يخلق ليتفرج على الحياة .. لقد خلقه الله وسواه ليحيها ، أتعرفون ، معنى أن يحياها ؟ أبسط المعنى أن لا يخاف منها . وهذا معناه — واسمعوا من فضلكم — ألا نخاف الموت ، لأننا من فرط خوفنا من الموت نحيا فى موت أو نموت حياة .. لا أعنى بهذا أن نستتر بأعمارنا ونروح نبعرقها هنا وهناك ولكن ما أعنيه بالضبط هو أننا — لكى نكون بنى آدميين بحق وحقيق — يجب أن نحيا ، وأن نحيا معناه أن نفعل ، وأن نفعل معناه أن نريد ، وأن نريد معناه أن نختر ، وأن نختر معناه أن نقرر ، لا بد وحتم سيكون فى القرار — أى قرار — قدر من المخاطرة ، ولكن تجنب القرارات خوفا من المخاطرة سيؤدى بنا حتما إلى تجنب الحياة كلها . تجنب روح الحياة وقلبيها ونبضها والإحساس الحقيقى بها . نحن جميعا ، وبالذات الآن نعانى من اكتئاب موجه يأخذ كل منا مأخذا شخصيا محضا ويعتقد أن سببه الفلوس والأولاد والمواصلات .. الخ .. ولكن اكتئابنا الجماعى سببه الحقيقى أننا نوقفنا أن نحيا لأننا توقفتنا أن نفعل لأننا توقفتنا أن نقرر ، والغريب أن هذا الاكتئاب والتوقف يؤدى بنا فى النهاية إلى عمليات (انتحارية) أو انبثاقات بركانية ، غضبية عصبية لا علاقة لها بالغضب الحى الجميل أو الرضاء الحقيقى أو الإحساس بالاكْتفاء نتيجة تحقيق الذات عن طريق تحقيق الذات أو كما نريد وعلى



مهمل شديد قرر ، ولكن لا بد في النهاية أن تقرر ، وحتما لا بد أن يستحيل قرارك إلى فعل وحينذاك فقط تذوق لذة الحياة .

حتى لو كان ذلك القرار قرارا بالموت أو يحمل في طياته خطر الموت الأكبر ، فالموت هنا سيعني دون أن تدري الحياة بأرحب وأعمق وأحب صورها ، لأنه سيكون قرارا عظيما ، أخذه إنسان حى عظيم وتحمل مخاطراته العظيمة ، وما أحلى طعم الحياة بعده .

جمعت ملابس قليلة جدا في حقيبتى بينما تركت معظم أشياءى باسم زوجتى — في حالة حدوث شيء — بأمانات البى لاس كورت ، وودعت (رضا) ذلك الشاب المصرى النبيل الذى يعمل مديرا للفندق ، وقلت لشوارع لندن وتاكسياتها التى تشبه عربات موقى سوداء مقطومة، وقلت للدنيا :

— وأيه يعنى ؟ باى باى . موتا فلنموت .. الموت قادم قادم .. أردت أم لم أرد . فإذا كنت قد أخذته أنا وبارادى وكنفق رهيب عثم أن أنفذ منه إلى الحياة الحقبة إن نفذت . فبارادى أنا آخذ القرار فإذا مت فعلى الأقل سيكون لى شرف أنى أنا الذى واجهت الموت ولم أظل خائفا منه حتى يطعننى غيلة . الحياة للشجاع وللشجاعة والجبن هو الموت وإن تنكر فى كافة الأشكال . لقد أخذت الدنيا بيدك واغتصبت وجودك من براثن المستحيلات والدنيا هكذا ، كالحب ، كالحرب ، حتى كالنكتة لا تؤخذ إلا اقتحاما .

ولأول مرة أحس فى حياتى أنى أصبحت حرا ، وأنى أستحق الحرية

فعلا ، وأننى أصبحت نبىلا وأنى أستحق هذا النبىل ، وأنى — لأول مرة فى حياتى — أحس أنى إنسان فعلا وأنى فخور بأنى إنسان .. فخور بأنى أمت إلى الخالق الأعلى . فخور أنى أبو وأولادى وزوج زوجتى . فخور أنى مصرى وشرقاوى وابن بلدى . فخور أنى أنا ، ذلك الشعور الذى لم يراودنى فى حياتى مطلقا .

والى مستشفى هارلى كلىنيك يا مستر .

— ستذهب وتعود يا سيدى ..

— لا يا سيدى — ذهاب فقط ..

والمفاجأة المذهلة أن أصابع مجدى يعقوب الذهبية كانت ساحرة كما يقول الإنجليز فعلا وأنى بعد يومين بالضبط كنت أصد سلا لم المستشفى وأهبط بأوامر من ممرضتى الحسنة أنحس الشاش المعقم وأسأل زوجتى : حقيقة أجروا العملية ؟ .. وتؤكد ودموع الفرح تلمع فى عينها وتروى لى ساعات انتظارها وفرحتها بوجه مجدى يعقوب وهو خارج من غرفة العمليات وبعمرة بالغة وبلا فرجة أو انفعال شديد يقول لها : الحمد لله . كله تمام ..

الله .. أعيدك ..

مجدى يعقوب .. أشرك ..

يوسف إدريس .. أحبك ..

يكنسون باريس . عمال معظمهم من عرب الشمال الإفريقى .. كثيرون هم هنا كثيرون . ينظفون باريس ويحاولون تجميلها ومع هذا فهم مكروهون من الفرنسيين . كلمة عربى هنا لها وقع آخر غير وقعها فى لندن أو نيويورك . فالعرب هنا هم البروليتاريا اليدوية التى يعهد إليها بأشق الأعمال . حين توفى جمال عبد الناصر صنع له العمال العرب جنازة فى نفس الوقت الذى خرجت فيه جنازته من القاهرة روعت الحكومة الفرنسية فى ذلك إذ شلت الحياة تماما فى باريس حتى إنها أنشأت بعد هذا قسما خاصا فى وزارة الداخلية للعمال العرب .

مشيت فى بوليفار سان ميشيل ، قلب الحى اللاتينى ، حى الجامعات والطلبة والبوهيميين والكوشار ومقصد السياح . ربما كراهية الفرنسيين للأغراب سببها كثرة السياح . (واسألنا نحن !) وأكثر الأحياء ازدحاما بالسياح هو الحى اللاتينى .. فرجة باريس . ربما لهذا فضلت أن أرى باريس بلا سياح ، فى الصباح الباكر .. أرى الباريسيين يخرجون إلى العمل . لا ألمح ابتسامة على وجه أحد .. جادون وجادات ، مسرعون ومسرعات ، والساعة تقترب من الساعة .. غريب هذا المدينة التى تصدر إلى العالم كله أدوات المكياج والتجميل نادرا ما نضع نساؤها المساحيق . بلا مساحيق أرى باريس تستيقظ لتوها من النوم ، لم تغسل وجهها بعد ، ولكن الوجوه نظيفة ، والقوامات رشيقة . حتى الكبار ومتوسطو العمر ليس فيهم سمين أو مجعلص أو نحينة أو نحين .

فجأة وجدتنى وجهها لوجه أمام باريس أخرى ، مختلفة تماما عن تلك التى لحصها رفاعة رافع الطهطاوى أو انقلع بفنائه ويغفرها لرفيق الحكيم

باريس ٧٦

السادسة والنصف وباريس وبوليفار سان ميشيل . ماذا أيقظتنى فى الخامسة بعد نوم ساعتين فقط .. أهى الحى الباريسية التى تحتاحنى كلما هبطت هذه المدينة .. كان حظى معها سيئا دائما .. أول مرة كانت ثورة الجزائر وعلاقتنا المتوترة بفرنسا . ما إن رأوا فى المطار — مطار لا بورجيه — جواز سفرى المصرى حتى ووجهت بالوجه الصارم لباريس — بوليسها الفرنسى — وبأتوبيس يحملنى قسرا من المطار الجنوبى إلى المطار الشمالى لأوضع فى الطائرة المتجهة لبيروت . المرة الثانية لم يصرحوا لى إلا بأربع وعشرين ساعة قضيتها كلها بلا لحظة نوم . هذه المرة أحببت أن أراها بلا مكياج .. لترى أى مدينة على حقيقتها العارية استيقظ فى الخامسة وطف بشوارعها .. لم أكن أتصور أن شوارع باريس تحمل كل هذه الكمية من الزبالاة والقذارة وبقايا الليل . هذه ثالث عاصمة عالمية أزورها فى رحلتى تلك وكلها بلا استثناء قد بدأت القذارة تزحف إلى شوارعها تكادى بعض أجزائها أن تقترب اقترابا مخيفا من قذارة شوارع القاهرة . كأن عا لم مطلع القرن النظيف المثالى قد اختفى .. الصراع الرهيب الدائر بين الإنسان والنظام فى كل مكان جعل اليأس يدب فى القلوب على هيئة إهمال سواء فى النظافة الشخصية أو النظافة العامة . الإنسان المهموم قذارة . عمال النظافة

وبرقصها على البارود أحمد الصاوى محمد . باريس بلا هالة من جمال ونور . باريس التى تكدح وتعيش . باريس التى تخلصت من كل علامات البورجوازية فى المأكل والمشرب والملبس . أكاد لا أعرف الفقير من الغنى ، والعاملة من صاحبة المتجر . كلهن تقريبا بالبنطلونات البهلوجنز ، وكأنما كلما كان البنطلون قديما كان أشيك — تخلصوا من عقدة الأثواب والوجاهة مثلما فعل الصينيون فى الشرق البعيد ، ليس بناء على توجهات حزب وإنما فيما اعتقد بناء على اندثار التقاليد البورجوازية القديمة من تنايز بالأزياء وتصنع فى تسريحات الشعر ومكياج الوجوه . كأنما أصبح الهدف أن الأجهل هو الأكثر أصالة . والأصالة أن تكون شكلك أنت لا شكلك المصنوع . وأن ترتدى ما يريحك أو ما يدفئك أو ما يبرد جسدك لا مانتية به على الآخرين . والطعام أصبح هو المغذى فقط وليس الشهى ، لم تعد الموائد العامرة هى المقياس ، ولا اللذة فى الطعام هى الهدف . الهدف لا بد متعة أرقى من الزى وأرقى من حشو المعدة . الهدف لا بد إمتاع العقل والقلب .

كانت الشوارع لا تزال شبه خلوية ولهذا كانت تبدو لى مزدحمة بالإعلانات والملصقات . لم أر عاصمة فى العالم فيها كل هذا الكم من الملصقات ، والغريب أنها كلها إما عن مسرحيات أو معارض فنية أو حفلات موسيقية . حتى رمسينا الكبير تحتل الإعلانات عنه — فى المقاهى والمطاعم — مكانا بارزا . المتعة هنا هى الاستمتاع بالجمال الأرقى . وليس أجهل ولا أرقى من الفن فى كافة أشكاله وصوره . هذه هى مدينة فنانة أو مدينة فنانين . خيل لى وأنا موزع البصر على الأفيشيات ،

أن نصف سكان هذه المدينة على الأقل فنانون وفنانات . هذه مدينة التعبير عن النفس . المتعة الحقة أن يعبر الإنسان عن غايته . حيا أو فنا أو شذوذا إذا أراد . لا بد أن هذا هو السبب فى الصوت العالى الذى يتكلم به الباريسيون والباريسيات . هذه مدينة لا همس فيها .. رأيك تقوله واضحا وصريحا ودون خجل وبصوت عال . رأيك هو أنت . وما دمت لا تخجل من نفسك لأنك أنت .. وسعيد بأنك أنت فلتفخر بذاتك وبرأيك وبذوقك وبشخصيتك وبفردك . الناس هنا لا يقولون على بعضهم البعض لأنهم يقولون لبعضهم البعض وفى مواجهة بعضهم البعض . أتكون هى الثورة الفرنسية ؟ قال فيها الشعب الفرنسى ومنذ مائتى عام رأيه الجماعى فى الملكية والاستبداد والتفرقة . وكانت النتيجة أنه بعد أن تحرر جماعيا ، بدأ يتحرر فرديا ، ووصل التحرر الفردى إلى حد الاعتداد الكامل بالذات والرأى ووجهة النظر ، حتى عاملة التليفون فى الفندق ، لا تقول لك : نعم يا سيدى . إنها تقول ، وبلا همس : إفى أسمع . عجيب هذا بينا الإنجليزية مليئة بكلمة (يا سيدى) فأنت لا تسمع فى الفرنسية إلا كلمة يا سيد . وكل الناس سيد . مضية . إفى أسمع . لم أستطع هضمها فى أول الأمر ، ولكنى حين لم أجد علامة واحدة من علامات النفاق فى هذا المجتمع بدأت أدرك . يا لها من كلمة نقولها منافقين : سيدى .. مع أننا جميعا ندرك ونعلم أنه لا أحد سيد أحد . ولأن الفرنسيين كانوا السابقين فقد حذفوها من اللغة . ولا أعرف فى الفرنسية ما يقابل فى الإنجليزية كلمات : سيدى .. وماى لورد ، وماى ليدى .. إلخ . كل هذه الكلمات الكبيرة المناقمة

التي تقال تأديبا . ولماذا لا يكون التأديب هو المصارحة والإحساس بالمساواة الكاملة . هنا حقيقة تلمح شعارات الثورة الفرنسية وقد أصبحت واقعا ملموسا ومقدسا . هنا تفهم لماذا أصبح الشارع الفرنسي الآن يكاد يكون كله يسارا محضا .. فكلمة اليسار نفسها اخترعتها فرنسا ومنها عمت العالم . وفي يوليغار سان ميشيل نفسه والساعة قد بدأت تشرف على الثامنة أرى المعركة بعيني قائمة على قدم وساق بين قلاع اليمين الأخيرة وزحف اليسار . ولكنها في رأيي تكاد تكون معركة ممتعة . فيها هي صورة ماركس بلحيته الشهيرة ولكنه بوجه ضاحك كالجد السعيد بل إن يده مرسومة في الصورة على شكل إشارة (الهيتش هايك) تدعو الشباب إلى مهرجان سياسي موسيقى راقص يقيمه الحزب الشيوعي . وأحسن مجلة أطفال تصدر في فرنسا تصدر عن الحزب الشيوعي . وهي مجلة ممتعة حقاً فليس فيها أى دعاية رخيصة ومادها رائعة إلى الحد الذي يرغب أطفال (اليمين) أهلهم على شرائها لهم . معركة راقية متحضرة حقاً حتى إن اليمين لا يقول عن نفسه أبدا إنه يمين ، ولا يقاوم الشيوعية بتلفيقتهم للإحاد والعمالة للاتحاد السوفيتي وكل هذه الوسائل الفجة التي تستعمل في عالمنا الغريب الثالث . إنما هي معركة أساسها الحرية . فاليمين يحاول أن يجتذب الناس عن طريق إقهاهم أنه الحريص أكثر على الحرية ، بينما اليسار وصل في خرصه على الحرية إلى حد تنازل الحزب الشيوعي الفرنسي عن واحد من أهم أركان الحركة الشيوعية وهي فكرة ديكتاتورية البروليتاريا . إن كلمة الديكتاتورية هذه تعادل الموت هنا أو الطاعون ، فالحرية للباريسي والباريسية أهم من أى مبدأ

أو دين ، بل هي تكاد تصبح هنا ديناً ، دين العصر ، إنهم هنا يحاولون حتى الانعتاق من عبودية العمل . يومان إجازة في الأسبوع وعلى الريف فوراً للمدينة حتى لو كانت باريس عبودية أيضاً ، والريف هو الحرية . هو الهواء والخضرة والانطلاق .

والحرية هنا ليست معادلاً للفوضى ، فأنت حر بقدر ما الآخرون أحرار .. والأطفال جمال . وأجل ما فهم أن كثيرين يذهبون منهم إلى المدرسة في سن الخامسة أو السادسة بمفردهم ، ولم أر عساكر أو بالأصح عسكريات المرور في باريس إلا بين الساعة والثامنة والنصف ، فقط عند التقاطعات لعبور التلاميذ الصغار . بعدها تتركب العسكرية موتوسيكلها الصغير الأنيق وتذهب لتعود في المساء حين يعود الأطفال . كدت أروع وأنا أشاهدهم صغاراً جداً ، سائرين بمفردهم ، ولكنهم مسئولون . من فرط ما أرضعوا مسؤولية المحافظة على أنفسهم .. لم أشاهد أحدهم يمين ويندفع إلى الشارع ، فقط عند الإشارة ، وفقط حين تقف العربات بيد العسكرية المرفوعة .

في الضحى تمتلئ الشوارع بربات البيوت والعواجيز .. وأستغرب لهذا العدد من العواجيز الأصحاء تماماً في هذه المدينة ، لكنهم وحدهم ملايين . كل ربة بيت وكل عجوز ، يتسوق خبزها وطعامها وفي يد كل منهم رغيف فرنسي في طول نبوت الغفر ، أقف عند الجزار .. أقرأ أسعار اللحوم .. يذهلني أن سعر الكيلو مائة وخمسون قرشاً . أرخص من القاهرة في حين أن متوسط الأجور يكاد يعادل عشرة أثمان الأجور

في القاهرة . ولا أحد يشتري كيلو إن اللحم هنا يباع بالحنة والقطعة ،
ويكفي لكل شخص في اليوم الواحد قطعة .. بخلا ؟! سمه ما شئت ،
لماذا لا تسميه تدبيراً ؟ . لماذا لا تقول إنه شبع ؟ فليس مثل الجوعان حياً
في الطعام ونهما لانهامه . غريبة هي هذه المدينة .. مدينة الفرد
الأعظم .. أنا قادم من نيويورك حيث العمارات هائلة الضخامة ،
والمؤسسات الخوتية الرهيبة ، والسوبر ماركت في حجم الحي الكامل ،
هذه مدينة اليوتيكات والدكاكين الصغيرة .. الصغيرة .. جزار بقال
دكانه ملايس مطعم قهوة وهكذا .. عشرات ومئات والآف مثلما يحفل
بهم شارع فيكتور هوجو يحفل بهم شارع بلزاك . جميل جداً هذا . لا
يوجد اسم ملك أو حاكم على شارع .. حتى بونابرت بجلالة قدره مطلق
اسمه على شارع غير مهم أبداً بينما اسم فولتير يأخذ شارع نهر السين كله .
مدينة ملوكها الشعراء والكتاب والفنانون . أحبب الملوك سطوة ولكن
أعظمهم خلوداً .

هل يوجد عندنا شارع باسم لطفي المنفلوطي أو ميخائيل رومان ؟

باريس الواحدة صباحاً .. لم أتم .. قضيت اليوم كله سائراً على
أقدامي . وما هو الليل يوغل في تقدمه ولا أشعر بذرة تعب واحدة .
الأصدقاء المصريون معي تضرب في ليل باريس . بقدر ما أحببت باريس
النهار ها أنذا أقف في شبه انزعاج أمام باريس الليل .. الأزدهام رهيب
وكأنه مولد الحسين في قلب باريس .. الصعاليك أشد صعلة من
مجاذيب الحسين .. غايات باريس علنا هكذا وبالبنطلون القصير

الساخن وكثيرات ومنتشرات ولهن مناطق نفوذ ويكدن يكن بسلا
زبائن .. يخل لي أن وزارة السياحة الفرنسية تدفع لمن أجرا فمشهدهن
سياحي أكثر منه مشهد (عمل) . المضحك أنهن واضحات جدا
وصريحات جدا وبلا نفاق . مهنة يقمن بها في وضح الليل . بل أعجب
إضراب هو ما قمن به منذ شهور واحتلن الكنائس لتخلصهن الحكومة
من سطوة الفتوات وظهرت بعضهن على شاشة التلفزيون يشرحن
قضيتهن العادلة . إنه فعلاً مجتمع يكره التخفي والنفاق . مجتمع الشجاعة
حتى في بيع الجسد . إن أي عاصمة في العالم فيها أكثر من هذا العدد بكثير
من نساء المهنة ولكن الفرق أن باريس لا تخفي ولا تتنكر ، الفرق أن
باريس تلميذاتها لا يوردن للشقق ولكن يجبن علنا ويجلسن على المقاهي
ويدخن علنا .. الفرق أن نساء المهنة في باريس معروفات وعددهن
معروف .. أما الأدهى فهو أن يكون كل شيء محظوراً في العلن ويباح في
السر ويجبن بشديد .

الفرق أن لا أحد هنا يقيم من نفسه وصيا على الآخرين ويخاف منه
الآخرون . والنتيجة ظلام النفاق وما أبشع ما يدور في ظلام النفاق .

باريس الخامسة صباحاً .. بعد لم أتم .. فتمتد الثانية وعقلي يفكر في
القاهرة .

الأدب العربي تقيمه جامعة برنستون ونادى القلم الدولى فى نيويورك والدعوة مرفقة بطلب الفيزا ..

قالت : هذا صحيح ، ولكن الإجراءات هى الإجراءات ، وأنت تعرف طبعا ما هى الإجراءات ..

عن لى أن أحاورها فقلت : هل ممكن أن أعرف لماذا أنا فى قائمتكم السوداء ؟

نظرت لى نظرة شبه مأكرة شبه متخابئة هذه المرة وفتحت ملفا ضخما أمامها وقالت ..

قالت كلاما كثيرا جدا : فى سنة كذا حضرت مؤتمر كذا ، وكتبت كذا وقلت كذا وكذا .. سجل دقيق حافل وكأن لم يكن هناك عمل للقسم القنصلى الأمريكى إلا رصد تحركاتى وسكناتى وكتاباتى الشخصية . ثم راحت تنصحنى أن أحاول رفع اسمى من القائمة السوداء . وكيف يرفع يا سيدتى العزيزة ؟ . بأن تثبت حسن نواياك وموقفك لمدة خمس سنوات متصلة ، ليس فقط تجاه الولايات المتحدة ولكن تجاه أى حكومة أو نظام حكم فى العالم (!!) وكدت أضحك وأنا أسمع السيدة الطيبة وهى تذكر لى شروط (الولد الطيب) فى عرف الإجراءات القنصلية الأمريكية . كدت أضحك لأن هذه هى مأساة الولايات المتحدة ، شديدة الديمقراطية بالنسبة لرعاياها شديدة التوجس والديكتاتورية بالنسبة للآخرين . إجراءات تعتبر أن كل ثورى فى العالم هو بالضرورة عدو للأمن الأمريكى ، كل متحرر من أى سجن فى أى بلد من أى دولة هو بالضرورة عدو للولايات المتحدة ، كل من يجرب أن يكتب أو يقول أو يفعل هو بالضرورة عدو للولايات المتحدة ، كل من يجرب أن يكتب أو يقول أو يفعل هو بالضرورة عدو للولايات المتحدة ..

أمريكا ٧٦

قالت لى السيدة الطيبة قنصل الولايات المتحدة بالسفارة الأمريكية : — انى آسفة جدا ، ولكننا لن نستطيع أن نعطيك فيزا الدخول إلى بلادنا إلا بعد استئذان واشنطن .

وسألتها بحيرة :
— هل تستأذنون واشنطن فى كل فيزا تعطونها ؟
فقلت :

— لا .. ولكنك لسوء الحظ فى القائمة السوداء ، ولا بد أن نستأذن واشنطن لاستثنائك هذه المرة فقط من القائمة . بل لى آسفة أيضا إذ أقول لك إنك فى كل مرة ستطلب فيها فيزا للولايات المتحدة سيكون علينا أن نستأذن واشنطن .

قلت :
— سيدتى .. ولكننى كنت فى أمريكا منذ أربعة أشهر وأعطينمونى فيزا فى الحال ودون استئذان واشنطن فماذا حدث ؟
نظرت لى من فوق حافة منظارها الطبي وقالت :
— لقد منحت الفيزا خطأ فى المرة السابقة . أخطأ الموظف المسئول فقد كان المفروض أن لا يمنحك الفيزا إلا بعد استئذان واشنطن .
قلت : ولكننى غير ذاهب من تلقاء نفسى .. أنا مدعو لمؤتمر عن

المتحدة . وهل من المستغرب بعد هذا أن يعتبر كل هؤلاء الولايات المتحدة ضدهم . إن المرحوم دالاس قد مات ولكن الدبلوماسية لا تزال موجودة . أو على الأقل هكذا بدت لي وأنا أحاور السيدة القنصلية وأختم حديثي معها بقولي : إذا كانت هذه هي إجراءات الدخول للجنة نفسها فأنا أفضل الجحيم الذي أحتفظ فيه بحقي أن أقول ما أريد قوله وأحضر ما أريد حضوره وأهاجم أو أشيد بما أريد مهاجمته أو الإشادة به .

وصرفت نظرا عن الندوة وعن السفر .
ولكن السفارة دقت لي تليفونا في اليوم التالي بأن الفيزا جاهزة .

وهكذا سافرت مرة أخرى إلى نيويورك ، وحسن أن قرصت هذه المرة قبل أن أذهب ، فقد كان انطباعي عن زيارتي الأولى ، تلك التي زرت فيها المعاهد والمستشفيات والجامعات ، انطباعا مبالغاً في تفاؤله . ذلك أني وجدت أمامي أمريكا أخرى غير التي رأيته عام ٦٦ حين زرتها بدعوة من جامعة شيكاغو لأول مرة .

في ذلك الوقت أقولها بصراحة ، لم أر أمريكا الواقع ، ولكني رأيته ما كنت أغفله أنا عن أمريكا . كانت أزمنا كوطن في ذلك الوقت بلغت القمة مع الولايات المتحدة . لقد بدأت الثورة المصرية بعين من الرضا من أمريكا . الرضا عن خروج الإنجليز من مصر وخروج الفرنسيين من الشمال العربي الأفريقي ، خروج الاستعمار القديم . وكان طبعيا أن تبدأ الأمور تتأزم حين بدأت معظم دول العالم الثالث التي استقلت وعلى رأسها مصر ترفض أن تحل الولايات المتحدة محل الاستعمار القديم ملء

ما يسمى في ذلك الوقت بالفراغ ومشروع أيزنهاور لملء الفراغ ، وكان الصدام محتما ، ولكنه في الحقيقة كان صداما فوقيا ، بين مصر الثورة الدولة والدولة الأمريكية . ولكنه انعكس على الشعبين وبمثلما كان الأمريكيان يرون في كل مصري عبد الناصر آخر عدوا لهم فقد كنا نحن أيضا نرى في كل أمريكي مندوبا للمخابرات المركزية الأمريكية حتى يثبت العكس وأحيانا دون أن يثبت العكس . وهكذا وفي حالة توجس تام ذهبت لأمريكا عام ٦٦ ، رأيت قارة غنية تماما جديدة تماما كل شيء فيها ميسر وبسيط ولكنني كنت أحس في كل فرد أراه الدولة التي تعادينا والنظام الاقتصادي الرهيب الذي يدعم الدولة ويهدد بالسيطرة على العالم كله . ولم أكن مجحفا في وجهة نظري تلك . فالتاريخ الحديث لأمريكا ينقسم قسمين في رأيي :

قسم يبدأ من الحرب العالمية الثانية وينتهي بحرب فيتنام ، وقسم آخر جديد تماما يبدأ منذ انتهت حرب فيتنام بزعمة ساحقة لطريقة القاهرة التي حاول بها النظام الأمريكي أن يفرض طريقته على دول العالم الثالث ، ومن ثم يفرضها على المعسكر الاشتراكي نفسه وبهذا تتم له السيطرة العالمية الكاملة . كانت فيتنام درسا كبيرا حول مجرى السياسة الأمريكية تماما ، ثم كانت حرب ٧٣ المجيدة درسا آخر فيمثل ما أوجدت حرب فيتنام جنوب شرق آسيا وحقه الكامل في استقلاله وحرية ، أوجدت حرب ٧٣ العرب وحقهم الكامل في الاستقلال والسيادة . أنا لا أتحدث هنا عن الالتفاف حول نتائج الحرب ومحاولة تجميلها للحرب في حد ذاتها كانت عملا من أجد أعمال تاريخنا الحديث

وكان مفروضاً أن بها ، وبغيرها لو احتاج الأمر ، أن تستمر ، ولكن تصوروا هذه الحرب المجيدة بيننا وبين أعدائنا الحقيقيين تنتهى إلى حرب قذرة قدرة في لبنان داخل صفوفنا نحن ، وكأنها الطعنات يوجهها الإنسان ضد عدوه ودفاعاً عن نفسه .. تنتهى بأن يوجهها الإنسان لنفسه هو ولصدوره وليستحضر .

في المرة السابقة وهذه المرة أتيت في أن أشاهد أمريكا أخرى ، أمريكا الشعب والشارع ، أمريكا الثقافة والصحافة والفكر . وباله من تغير ! ..

مشيت في شوارع نيويورك أنا وصديقي الشاعر العراقي اليساري الكبير عبد الوهاب البياتي نتحدث في هذا . سنين طويلة قضيناها نتحدث عن أمريكا وكأنها كتلة صماء لا تستطيع أن تفرق فيها بين الشعب والدولة ولا بين النظام ورجل الشارع ، كله أمريكاني وكله استعماري وكله عدو .. وفي الوقت الذي يوجد فيه بالولايات المتحدة أكثر من أربعين أو خمسين مركزاً لدراسة منطقتنا العربية والشرق الأوسط عامة ، لا يوجد لدينا ولا لدى أى بلد عربي مركز واحد لدراسة أى من الدول العظمى ، ونحن نجعل ما يعمل في صدر الشعب الأمريكي يمثل ما نجعل ما يعمل في صدر الشعب السوفييتي في حين أننا منذ سنوات طويلة وإلى سنوات طويلة قادمة سنظل في كل خطوة نخطوها نواجه أيهما أو كليهما معاً . نواجه ونحن نجعل ، نواجه ونحن على الأقل لاندرك أن تغيرات خطيرة تجري في كل من المعسكرين ، وأنت لا بد أن نلتحق بها

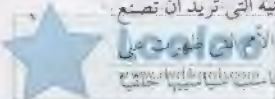
فيتنام جاءت فكشفت للمواطن الأمريكي أن أمريكا ليست دائماً على حق ، أقصد أمريكا النظام والسياسة والمؤسسات الكبرى .. إنها ممكن أن تخطئ ، وتخطئ ببشاعة ، وتثور ، وتورط معها الشعب بأكمله . وجاءت فضيحة ووتر جيت لتثبت للشعب أن ليس المؤسسات والنظام والدولة هي وحدها التي تخطئ ولكن القادة والرؤساء هم الآخرون يخطئون ويقومون بأعمال غير أخلاقية أحياناً . لقد تركت أمريكا ورجل الشارع هناك يكاد يشير إلى كل مسئول وكل سناتور وكل مرشح أو رئيس بأصابع اتهام بلغ بها الشك حد الرجفة .. أذكر هذا السناتور الأمريكي الذي رأيته بعيني في التلفزيون يعترف أنه كان على علاقة جنسية بسكرتيرة وأنه آسف إذ يقول هذا وأنه يرجو أن تغفر له زوجته وأن يغفر له أبناؤه . وجدتني يعصرفني التساؤل : أهذا موقف يدفع إليه الناس باسم الأخلاق والطهارة ، إن انتحاره الحقيقي وضرب نفسه بالرصاص كان أسهل . باسم الأخلاق العامة يقف الشيوخ والمسؤولون عراة هكذا وقد أجبر كل منهم على إبداء عورته . ولكنها هي التطهر التي تحتاج المجتمع الأمريكي كالصبي الذي اكتشف فجأة والديه يعيثان بفقد الثقة في كل والد وكل والدة وكل كبير وكل مسئول . حين يؤنب الأب الأمريكي ابنه على طول شعره ، ويقول له الابن : ولكن كل المتهمين في فضيحة ووتر جيت كان شعرهم قصيراً ..

إن من الممتع حقاً أن يحيا الإنسان لبعض الوقت في مجتمع كالمجتمع الأمريكي لا تخفى صحافته أو تليفزيونه شيئاً متعلقاً . حتى مساعدات

الخبايا الأمريكية لبعض الحكومات وللبعض الأشخاص يقولونها علنا وبالأسماء .

كيندى يثبت أنه مسئول عن قتل لوموبا وكان يريد اغتيال كاسترو . روبرت أخوه يخبر في حياته الشخصية حتى يعثرأ له على مارلين مونرو أو لأخيه على سكرتيرة توصد أمامه باب الرئاسة . وعملية الكشف قائمة على قدم وساق . المهاجرون الأمريكيون الأول كانوا إما من ضحايا التعصب الدينى أو كانوا من المتعصبين البروتستانتين الذين يغفون التطهر الكامل في عالم جديد . كرو موسوم التطهر يعود ليظهر بعد مائتي عام من الاستغلال والوجود . شارع يريد أن ينفي حكاهم وحكومته من أى شبهة فساد ولكنه الفساد الخلقى أولا ، فقد تجاوز الشارع الأمريكي مرحلة الماكاريثية واعتبار السياسى حمة . فالآن نجد في قلب الجامعات الأمريكية والمؤسسات من يشهرون أنهم شيوعيون أو ماويون أو حتى من أنصار جيفارا وكاسترو . والحرية السياسية في القمة ولكن المضحك أن هذه الحرية السياسية لا تمتد لتشمل العالم فهى وقف على استعمال المواطن الأمريكي . وكذلك هذا التطهر الخلقى قاصر على السياسيين الأمريكيان وحدهم ، أما أن تتعامل الدوائر الأمريكية مع سياسى مرتش أو ذاعر لبلد أجنبى فهذا في عرف الشارع أو السلطات مسألة مشروعة تماما وخلقية . مسألة تكاد تقترب بنا اقترابا غريبا من الشريعة اليهودية . ففى عرف اليهود الزانى هو من يزنى مع يهودية ، أما إذا زنى مع غيرها فلا يعتبر زانيا . وهكذا يقترب أكثر من تشخيص للحالة الأمريكية فواضح أن المسألة لم تعد مجرد بصمات يهودية وإسرائيلية

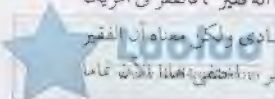
على الفكر الأمريكى المعاصر ، المسألة أن العناصر المفكرة اليهودية نجحت خلال سنوات من الدأب والصبر والمواظبة على مزج التعاليم اليهودية بالديانة المسيحية وإلى تكوين نوع من المركب يسمونه الـ Judo Christianity يصنع العمق الروحى لأقوى وأعنى دولة وجدت في العصر الحديث . دولة يسميها البعض الدولة الرومانسية الحديثة . دولة القوة من أجل القوة . ولقد اكتشف اليهود هذا ، فطوال تاريخهم وهم يحاولون السيطرة على العالم ، وحين كانت ألمانيا مرشحة لحكم العالم تدققت إليها قوافل المهاجرين اليهود ليحكموا الدولة التى ستحكم العالم ، وكانت النتيجة تدمير الألمان على هيئة نازية أشبعتهم تكيلا وذبحا ، ونفس الشيء كاد يحدث في إنجلترا حين كانت بريطانيا العظمى مرشحة لتسود العالم ، وهذه المرة نجحت التجربة ، وأصبح اليهود قوة عاتية في الولايات المتحدة ، حكاهما الروحيون والماديون ، وتفجرت الاتهامات الخلقية التى توجه إلى السياسة الأمريكية فيما اعتقد انحراف موحى به من اليهود والمسيطرين على أجهزة الفكر والإعلام في أمريكا بهدف صرف الناس عن الاتجاه السياسى مع أنه الأهم إذا كانت المسألة تتناول رئيسا أو سياسيا ، إنهم يجرون للسياسيين محاكمات تفقيش خلقية في حين أن حساب السياسى هو حساب سياسى أولا وأخيرا . فماذا يعنى إذا كان هذا الحاكم فاضلا من وجهة نظر أعلاهة الشخصية ولكن سياسته يرسلنى إلى الجحيم ، ولكنها اليهودية والبروتستنتية التى تريد أن تصنع الكون الروحى الداخلى لأمة من أعظم وأقوى الأمم التى ظهرت على سطح الأرض . والمضحك أيضا أن أمريكا بيننا تحاسب سياسيا حقا



تحاسب السياسيين خارجها سياسيا أولا وعقائديا ولا يهمها أبدا المسألة الخلقية في كثير أو قليل .

ولكن الشرح حدث . منذ سنة ٦٦ وأنا أرى المقدمات ، ولكن طمستها هزيمة ٦٧ . أثناء حرب ٧٣ دق ولأبد إسفين في هذا التزاوج غير المنطقي بين البروتستانتية واليهودية إذ كان تزاوجا لمصلحة اليهود على طول الخط . إسرائيل كانت تكسب وأمريكا تخسر ، وليس صدفة أن العرب هم الآخرون كانوا يخسرون . ربما حرب ٧٣ جمعت الخاسرين معا ، وبدأت (زمزقة) ما تحدث في هذا الزواج اليهودي الأمريكي . وكنت وأنا أدب في شوارع نيويورك مع عبد الوهاب البياي نلمح آثارا واضحة للزمزقة الخفية . نيويورك وإمبراطوريتها المهولة أشرفت بل هي تقلس فعلا . نيويورك معقل الرأسمالي اليهودي ذلك الذي حكمها ومنها حكم أمريكا ردحا طويلا ومن هؤلاء إلى ما نهاتن كان يمتد نفوذه ها هو الآن ينحسر . وها هو الرئيس الأمريكي جيرالد فورد لا يريد أن يعطى لنيويورك البلدية والمؤسسات المائة ، وديونها تصل إلى المليارات ، وأسفلت الشوارع حافل بأشبع المطبات ، وعمال النظافة مضربون ، وكل بضعة أمتار إضراب ، ولم أر في حياتي هذا العدد من لافتات (للإيجار) ، (المبنى كله للبيع أو للإيجار) . نيويورك كلها وكأنها تقدم نفسها للبيع أو للإيجار ، فهل من شار أو مستأجر ؟ . ينظر الرئيس الأمريكي من واشنطن متدفعا برأسمال أمريكي قبح — اغتنى كثيرا بالبتروول وبأزمة البتروول وحتى بالمقاطعة البتروولية حتى يستأسد وينظر شذرا إلى نيويورك ويتركها تلعق أسفلتها الأسود وتجارا بشكاواها .

وفي نفس الوقت — وكان الاقتصاد هو محرك التاريخ فعلا — بدأ الشعب الأمريكي ينظر إلى إسرائيل نظرة أكثر موضوعية ، وإذا به يكتشف أن هناك فلسطين وفلسطينيين ، وأنه مستعد أن يحل مشكلة شعب متشرد ولكن ليس على أساس تشريد شعب آخر .. ومع هذا فقد فوجئت وأنا أرى الحيز الذي أصبحت فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية تحتله من وسائل الإعلام هنا . شاهدت برنامجا استغرق نصف ساعة بأكملها — وهذا في عرف التلفزيون الأمريكي شيء كثير جدا — عن المستشفى أو أحد المستشفيات التي أقامت فتح لخدمة جرحى حرب لبنان من مسلمين ومسيحيين ويهود ، وكان الذي يتحدث طول الوقت هو مدير المستشفى شقيق ياسر عرفات . ولا تخلو نشرة أخبار من خبر ، ومعظم الأخبار محايد أو منصف ، إن شيئا ما يتغير في تفكير الناس هنا ، ويتغير إلى الأحسن . شيء مامثل التغير الذي بدأ يحدث للمجتمع ككل ، حتى بدأ بعض الناس يعترفون أنهم فقراء فعلا وأن هناك أغنياء في حين أنها مسألة لم تكن واردة أبدا عام ٦٦ ، حدث أن زرت جامعة إنديانا وجلسنا تناول العشاء في منزل الدكتور ليجاسك أستاذ الأدب العربي في الجامعة وقص علينا قصة المنزل الفاخر الذي يسكنه وقال إن المدينة قد أنشأتها أصلا هو ومئات غيره ليسكن فيه الفقراء أو أصحاب الدخل المحدود ، ولكن حين تم البناء رفض الفقراء أن يسكنوا في تلك البيوت باعتبار أن من العار أن يعترف الإنسان أنه فقير ، فالفقر في أمريكا لم يكن كما تواضع الناس هنا مسألة نظام اقتصادي ولكن معناه أن الفقير إنسان دنس أولا وإلا لما كتب الله عليه الفقر



وهدر الاعتراف بالفقر ، وتدفقت المطالب الاقتصادية والاجتماعية وبدأ المجتمع الأمريكي يدمدم بتحويلات اشتراكية جعلت الخوف يدب إلى قلب طبيب مصرى صديق وغنى هنا يقول لى : أنا خائف أن تصبح أمريكا شيوعية في القريب العاجل . ترى لو أصبحت كذلك فأين يذهب إنسان مثل ؟ .. إلى لا أهزل .. أنا أفكر جادا .. أتعرف أى لا أضع علامة طبيب على سيارتي ، فلو وضعتها لوجدتها مسروقة حتما فمن المعروف أن الأطباء هنا أغنياء ويكسبون كثيرا والناس أصبحوا ينظرون شذرا إلى الأغنياء هنا .

والشارع الأمريكي ينظر أيضا شذرا إلى المؤسسات الهائلة الضخامة فهي ليست مؤسسات أو شركات .. إنها دول ، ودول كبرى ميزانية أقلها شأنًا تعادل أضعاف أضعاف ميزانية دولة بأكملها من دول منطقتنا .. أرياح بعضها يقدر بمئات المليارات من الدولارات أى أرقام وعلى يمينها ثمانية أو ربما تسعة أصفار . وهل يمكن الإحاطة بقارة في موضوع ؟ .

أمريكا لغز العصر الحديث

أن تفهم شعب مسألة سهلة .. أما أن تفهم قارة فذلك مشكلة ، وأن ترى أمريكا من الخارج شيء ، وأن تراها من الداخل فشيء مختلف تماما .. وإذا ذهبت هناك فمن الصعب تماما أن تصدر أحكاما عامة مطلقة تخرج منها بنتائج حاسمة . من الصعب جدا مثلا أن تقول إن الأمريكيان شعب طيب ، ودود جدا . تلقائي يشبهنا تماما في هذه النقطة نحن المصريين . ولكنه مختلف قطعًا عن أى شعب أوروبى . فصحيح أنه طبقات من المهاجرين الأنجلو ساكسون والأيرلنديين والإيطاليين واليونانيين والبولنديين واليهود والروس والزنج وأخيرا العرب ، ولكن يبدو أن كل عائلة هاجرت ، أو كل جالية ، كانت تخلع زبها القومى في ميناء نيويورك وترتدى زي العالم الجديد . ذلك أن أمريكا فعلا كانت بالنسبة لهؤلاء الناس عالما جديدا حقا . كانت أوروبا الإقطاعية وبيادتها الرأسمالية مثل خلية النحل التى تشبعت دينيا وعقائديا وحضاريا وفلسفيا وبدأت (تطرد) ممالك النحل الجديدة .. ولكن السمعة البارزة للمهاجرين الأمريكيين الأول بل ربما إلى الآن أنهم إما كانوا من المضطهدين دينيا أو اجتماعيا في بلادهم وإما كانوا من المفقرين والأفاكين .

وهؤلاء كانوا كذلك بالطبع متمردون ومضطهدين أيضا والبلد

تعانق التياران على أن يخلقاً مجتمعاً غربياً جديداً لا اضطهاد فيه ، ولا حق لأحد على الآخر ، والقانون الوحيد السارى هو البقاء للأصلح أى البقاء للأقوى . فليكن شعار العالم الجديد أن يصل الإنسان فيه إلى أعلى مراتب القوة . وطبعاً لا يمكن أن تصل بهذا إلا على حساب آخرين .

ولكن ذلك الوضع كان في البداية ، كان القادم الجديد جيشاً جائعاً إلى مكان تحت الشمس ، ولهذا فمن حق كل إنسان أن يحمل السلاح ويقتل إذا اقتضى الأمر . فقط عليه أن يثبت أنه كان في حالة دفاع عن النفس . وهذه وحدها لا بد أن تؤدى مجتمع عنيف . ومنذ البداية والمجتمع الأمريكى عنيف ، حتى حين تضاعف دور الفرد وقدرته على الوصول إلى ما يصبو إليه من قوة ، وتكونت الشركات والمؤسسات ، أخذ العنف في المجتمع طابع المنافسة المحمومة ، وما دمت تحيا في حالة تنافس ، فالزمن مهم جداً ، والقرارات لا بد أن تكون سريعة وحاسمة ، ولا بد أن تظل في حالة حركة ، بل في حالة جري وسباق ، مع الزمن ، ومع الآخرين .

* * *

كنت وأنا أسير في شوارع واشنطن ونيويورك وديترويت ولوس أنجلوس وسان فرانسيسكو وكلفيلاند . وأنا أركب الأنوبيس الصاعد شمالاً إلى برنستون ولا أجد أثراً (للارتياح) أبداً بعد مغادرتي نيويورك . المصنع تلو المصنع والطريق فوق الطريق فوق الطريق ، والمطارات تلو المطارات . وأعرف مثلاً أن أكبر شركة طيران في العالم ليست الخطوط العالمية أو اليابان أمريكان وإنما هي شركة طيران محلية أمريكية لا تطير لها

طائرة واحدة خارج الولايات المتحدة . كنت وأنا مبهور بغابة ناطحات السحاب التي تلمحها في قلب كل مدينة أمريكية ، حتى العمارات القديمة المبنية قبل سبعين عاماً ، ناطحة سحاب ، اختراع أمريكى للتغلب على المساحة الأفقية وإنشاء مساحة رأسية ، مضاعف ، عمارات من صلب وزجاج ، مسافات رهيبية شاسعة (فارق التوقيت ثلاث ساعات بين نيويورك وسان فرانسيسكو) وأوتو ستراتات مبعثر فوقها ما لا يعد ولا يحصى من الكافيتريات والاستراحات والموتيلات والوكاندات . هذه مؤسسات وأبنية وطرق أقامتها فعلاً أيادى شعب جبار على نفسه أولاً .. العمل عنده مقدس ، من لا يعمل يموت ، والوقت عنده قاتل الأهمية . كنت وأنا أرى هذا كله ، وأنا في قلب الرأسمالية الحقيقى ، فالبلاد الأوروبية لا ترى فيها الرأسمالية على حقيقتها ، أنت تراها وقد هذبت بتدخل الدولة وبحقوق العمال والفلاحين والقوانين المحددة والمزمنة لكبح جماح المؤسسات والشركات .. تراها في ثوب من (اشتراكية) الرأسمالية . أما هنا فأنت في قلب عالم رأسمالى قح ، غير مخفف لا بالماء ولا بالصودا ، تتجرعه وقد يلسع حلقك ، فأنت قادم من مجتمع لا قيمة فيه للزمن ولا للوقت ولا للمسافة ، حتى المنافسة فيه صغيرة وغير قاتلة ، مجتمع ممتد ، عمره سبعة آلاف عام وسيبقى ربما لل سبعين ألف سنة المقبلة . مجتمع تتمطى فيه وتمتع لتصحو من نومك وعلى مهلك جداً تشرب شايبك أو قهوتك ، الخطأ فيه يغتفر مهما كان والجرائم قليلة وغليظة ، والبشر هم الظاهرة البارزة في بلادك فأنت في القاهرة لا ترى عمائر ولا مؤسسات ولا مصانع ولا شوارع أو أراضى

أو طرقات ، ناس ، ناس ، ناس ، كثيرون جدا حتى ليسدون عين الشمس . في أمريكا ، رغم ضخامتها لاتجد أناسا أبدا ، الشوارع شبه خالية ، ولا يتحرك سائر على قدميه فيها إلا أفراد مبعثرون .. فأمريكا فيها مائتا مليون هذا صحيح .. ولكنهم مبعثرون على قارة بأكملها . نحن أربعون مليونا أننى خمس الشعب الأمريكى ومع هذا فنحن محشورون في ما لا يزيد على واحد على ألف من مساحة أمريكا . أرض واسعة غنية فيها كل معادن الأرض ، فيها البترول والذهب ، فيها غابات الخشب ، فيها قمح وقطن وفواكه وتلوج في الصيف في الشمال ، وبلاجات في عز الشتاء دافئة . هذه البلاد الغنية الشاسعة ، في أقل من مائتى عام ينشأ عليها ذلك المجتمع الرأسمالى بعلومه واختراعاته ، بقدرات الإنسان الهيبية على الخلق والتفكير القورى لكل جديد ، يحمى المنافسة وهى تستخرج من كل مواطن أعشق وأهم قدراته ، بالفردية فى قيمتها وهى تعطى ليستحيل العطاء الفردى فى النهاية إلى بناء جماعى خفيف ..

كنت وأنا فى قلب هذا كله أنساءل :

— أهو النظام الرأسمالى التنافسى هو الذى أنتج هذا كله ، أم هى الأرض السخية الغنية غير المستنكة أعطت كل ما لديها ، أم هى الخطورة والجدية التى أخذ بها هؤلاء المغامرون والمتمردون الأول أنفسهم وصبغوا بها مجتمعاتهم . أم هو هذا كله الذى تفاعل وتكاتف ليصنع أمريكا الحديثة العملاقة .

كنت أنساءل لأن الإجابة عندى كانت مهمة جدا . إنى إنسان

اشتراكى يؤمن أن الاشتراكية أو على وجه الدقة التطبيق الإنسانى الديموقراطى للاشتراكية هو أعدل نظام عمل ووجود للإنسان ، وليس أسهل من أن يدغم أى اشتراكى متعصب الرأسمالية كلها بالاستغلال واللاأخلاقية وينذر ظهره لها تماما ويبدأ من الألف باء يبنى صناعته وتجارته وزراعته . وربما هذا هو ما حدث فى الاتحاد السوفيتى كأول دولة اشتراكية . ولكنى أعتقد أنهم هناك فى الاتحاد السوفيتى بدأوا يتلافون هذا الخطأ ، فالنظام جميعه قد يكون مرفوضا ولكن التجربة الرأسمالية الأمريكية ، خلقت على طول تاريخها آلافا وآلافا من الاختراعات الاجتماعية الصغيرة والكبيرة ، اختراعات لم يصنعها النظام بطبيعة الحال ولكن صنعها أولا وأخيرا الإنسان . والمركزية مرض يفيض من أمراض اشتراكية ، فلو كنت عاملا أو مهندسا فى مصنع واخترعت اختراعا صغرا ثم كبر لتسهيل العمل أو تغييره فالمصنع لا يستطيع أن يطبق اختراعى فورا ، لا بد أن يمر الاختراع على لجان أعلى وأعلى حتى يوافق المركز فى النهاية عليه ثم يعود نفس المرحلة ليطبق ، بمعنى أن المركز فى الاشتراكية هو الذى (يفكر) للنظام ، وهو المفكر الأوحى ، بينما فى هذه الرأسمالية اللامركزية الكاملة كل إنسان باستطاعته أن يفكر ويبتكر ويجد ألفا ممن يستجيب له وينفذ ، وهكذا باستطاعة المائتى مليون أن يفكروا معا للنظام كله ، وهذه حسنة كبرى من حسنات الرأسمالية ، علمت أنهم أخيرا فى روسيا بدأوا التفكير فى تطبيقها .

فعلا هذه بلاد يفكر من أجلها ملايين ، صحيح أن كلا منهم يفكر ليستفيد هو شخصيا وأولا ولكن النتيجة النهائية أن الجميع يفكر لأمر

تصبح ملكا للشعب للحاضر ثم للمستقبل ، بل إن الولايات المتحدة في إدراكها لأهمية التفكير في المجتمع بدأت تلغى كثيرا من الحواجز التي كانت توضع على تفكير المواطن الأمريكي. بدأت تؤمن فعلا بأهمية حرية الرأي والعقيدة ولم يعد أحدا يضطهد لأنه مار كسنى أو حتى شيوعى . وهذا بالنسبة للولايات المتحدة شىء كثير . فأذكر أنى قرأت أن مدرسا في مدرسة ثانوية أمريكية في العشرينات فضل من المدرسة لأنه كان يدرس نظرية داروين في النشوء والارتقاء لطلبة فصله .

(أليس من المضحك هنا أن نذكر أن مضر كانت في العشرينات فيها مجلات تصدر لا تبشر فقط بداروين ولكنها تنشر حتى مقالات عن الإلحاد) .

بل بدأت أمريكا تستثمر غنى مؤسساتها الفاحش في شراء الذكاء من العالم كله . لن تجد أعلى طبقات العلماء والأطباء والمهندسين وحتى الفلاسفة إلا هناك . كنت في زيارة لجامعة لوس أنجلوس واصططحبني المرحوم الدكتور فون جرونباوم المستشرق المعروف وأستاذ التاريخ الإسلامى العالمى في زيارة لبعض أقسام الجامعة . وذهلت من عدد العلماء الحاصلين على جائزة نوبل — ومعظمهم غير أمريكيين — الذين تحفل بهم أقسام الجامعة . وعرفنى على عالمة طبيعة إنجليزية حاصلة على جائزة نوبل . وكانت فعلا تشبه قديسة العلم كما يحلم الإنسان بقديسة علم . وذكر لى الدكتور جرونباوم ونحن نغادر معلمها كيف أغرتها جامعة لوس أنجلوس على الهوى . قال : كانت عتيبة تماما فقد رفضت كل عروض الهوى وتمسكت بعملها المتواضع في جامعتها بإنجلترا ، فما

كان من جامعة لوس أنجلوس إلا أن أنشأت لها في قسم الطبيعة معملا يحتوى على أحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا والعقل البشرى . ذلك المعمل الذى لا بد يحلم به أى عالم . ودعوها لتلقى محاضرتها لمدة أسبوع في قسم الطبيعة وقبلت وحين حضرت وألقت محاضرتها الأولى بدأوا يفرجونها على الأقسام والمعامل . ودخلت المعمل المذكور ، ولم تخرج !!

إن الغنى يؤدي إلى مزيد من الغنى ، والذكاء إلى مزيد من الذكاء ، والعمل إلى مزيد من العمل ، وأمريكا الآن ، أغنى دولة ، تستعمل غناها في حشد الذكاء البشرى ، ليضيف لغنى الأرض غنى الإنسان . هذا النظام الرأسمالى المرن الذى يتأقلم ويتشكل ويغير نفسه ويقتبس من الاشتراكية ومن الوطنية وحتى من النظام الهتلرى الألمانى يقتبس ، ويهيئ أحسن ظروف عمل ليأخذ من الفرد أقصى ما عنده ، غير مهم أن يكون أمريكيا أو غير أمريكى ، فمضيره أن يصبح أمريكيا ، وما دام إنتاجه سيئى لأمريكا فما معنى ضيق الأفق ؟

ولكن السؤال يبقى :

هل المواطن الأمريكى أو حتى المتجنس سعيد ؟

لا بد أن نستدرك هنا ونقول : يجب أن لا نخلط بين سعادتنا نحن وسعادتهم هناك ، ولا بين تعاساتنا هنا وتعاسيهم هناك . فالمسائل مختلفة تماما . إن ما يتعس مواطننا هنا وربما ما يدفعه للهجرة هي التآعب اليومية الكثيرة الصغيرة التى ترهق النفس والبدن وتطغى الروح .

مواصلات ، أزمة اتصالات ، أزمة مكاتب ونوع عمل ، أزمة ازدحام واختناقات ، أزمة أخلاق ، أزمة الحصول على مسكن أو مأكل أو مشرب . هذه كلها مشاكل لا جود لها ، ليس فقط في أمريكا ، ولكن في كل تلك البلاد الغنية التي تكون شمال العالم ، هذه بلاد الوفرة ، الوفرة في كل شيء ، المساكن بكثرة ، الأرض بكثرة ، الطعام بكثرة ، المواصلات بكثرة ، الاتصالات بكثرة ، حتى إن إغرب إعلان شاهدهته في حياتي في التلفزيون الأمريكي كان إعلاننا يدعو الناس إلى تركيب تليفونات ، ويغريهم بالتسهيلات بل ويغريهم بإجراء المحادثات التليفونية البعيدة المدى . من هذا المثل الواحد تستطيع أن تدرك مقدار عمق الهوة التي تفصل بيننا في جنوب العالم وبينهم في شماله .

ولكن للمواطن الأمريكي مع نظامه مشاكله هو الآخر ومشاكله العظمى .. مشاكله العظمى ومشاكله الصغرى أيضا .

ذلك أن هذا النظام النشط المحموم المتطور الساعي إلى الغنى الفردي المؤدى في النهاية إلى الغنى الجماعي قد كان لا بد له في النهاية أن يتجه إلى الخارج ، ويتوسع ، ويرث كل ما تخلف من بقايا الإمبراطورية البريطانية والفرنسية والهولندية . ويدفعه خوفاً على نفسه من الفقر والاشتراكية إلى إعلانها حرباً مقدسة ضد المعسكر الشيوعي ، وجعل من نفسه ، كما يقولون — رجل البوليس العالمي لإلقاء القبض على أي دولة في أي ركن من أركان العالم أو أي نظام تحدته نفسه أو يخطر له خاطر الشيوعية أو الاشتراكية . وقد كان من المحتم لدور كهذا أن تغرز ساق رجل البوليس في فينتام ذات مرة ، وفي محاولته لاستخراجها تغرز الساق الأخرى ، ثم

يبدأ الجسد نفسه يغرق .

ولقد ظل الجسد يغرق حتى أفرزت الجامعات الأمريكية (عقل النظام) كيسنجر ، والكيسنجري وسيلة لإنقاذ النظام الرأسمالي ، ليس فقط في أمريكا ولكن في العالم كله ، والكيسنجري ببساطة حولت (الثور) الأمريكي الذي كان ينطح أي لون أحمر يلحمه إلى إنسان ذكي .. يميز أولاً بين الألوان ، فليس كل أحمر هدف وليس كل هدف ممكن نطحه ، ثم أليس من المستحسن بدلاً من أن تنطح أن تحتوي وبدلاً من أن تهدم الحائط أن تصنع لك فيه فجوة وبدلاً من أن تعادى نصف العالم : روسيا والصين معا ، تأخذ الصين في حضنك ، وتسلم — باليد — على روسيا .. وبدل أن تكون أبيض تماماً مع إسرائيل وأسود تماماً مع المصريين والفلسطينيين والسوريين والعراقيين ، تجرب الرمادي ، قليل من البياض على كثير من السواد ، وقليل من السواد على كثير من البياض ، هل تمشي المسائل ؟

ذلك سؤال في الواقع متروك للتاريخ ..

ولكن الذي لا شك فيه أن الكيسنجري أكثر دهاءاً وبالتالي ديمقراطية من الدالاسية . ومن الخارج إلى الداخل بدأت الديمقراطية تسعى ، ولا شك أن نيكسون كان آخر رئيس أمريكي يملك سلطة الرئيس ، وإزاحته ، لم تكن فقط تخلصاً من رئيس أخطأ ولكن كانت في الحقيقة تخلصاً من أعباء الرئاسة كلها .

أمريكا الآن تحيا في عهد السناتورز ، وحتى رقابة رأى قوى وخطير ، عثر على نفسه وقوة بفضيحة ووتر جيت ،

وبدا يسلك بزمام الأمور ، ويلوى عنق النظام بحيث لا يعود يخدم المليونيرات فقط ولكن يخدم المواطن الفرد العادى بالدرجة الأولى . ثورة ؟! سنها ثورة ، ولكنها ثورة على الطريقة الأمريكية . فهى ثورة أفراد ، يثورون بشكل متردى فردى ، يهاجمون المارة وليس لديهم مانع من مهاجمة السيدات بالذات ، يسرقون بتهديد المسدسات ، ينشعون العصايات الثورية التى تسطو على البنوك والمؤسسات ، يقتلون (يفتح الباء) ويقتلون (يضم الباء) ، وجزء من المجتمع العنيف يتحول ليواجه الجزء الآخر ، وعنفا بعنف ، وفردية ، وما دام البقاء الأقوى فلماذا العمل وأنا أستطيع أن أكون الأقوى بالمسدس والطلقة .

ولهذا فمشكلة المواطن الأمريكى هى بالدرجة الأولى مشكلة أمن .. تنزل الأمن فى أغنى قارات العالم . ومنذ أن تغلق عليك باب حجرة الفندق تجد التعليمات واضحة وصريحة ومشددة . لا تحمل نقودا .. لا تمش بمفردك ليلا .. لا تفتح الباب إلا بعد الاتصال بالاستقبال والتأكد أن أحدا بعينه قد جاء لزيارتك .

وهكذا يتحول الإنسان فى مدن أمريكا إلى كائن نهارى يختفى تماما فى الليل لتظهر العفاريث فى الشوارع ، وصوت سيارة البوليس الأمريكى الجديدة صوت مزعج حقا ، فقد استبدلوا السرينة المتصلة بصوت كنعيق اليوم عال ومزعج ، كنت لا أكاد فى قلب واشنطن العاصمة تسمع أجفاني لدقات حتى يوقظني نعيق آخر ، وكان فى كل خمس دقائق تحدث حادثة .

أهى ثورة اجتماعية تأخذ ذلك الطابع الإجرامى ؟ أم هو إجرام يأخذ

شكل الثورة الاجتماعية ؟ ..

ذلك سؤال هام جدا . والإجابة عليه ليست مهمة فقط للأمريكيين ، إنها مهمة جدا لنا أيضا ، فالولايات المتحدة تلعب وستظل تلعب دورا خطيرا ، ليس فى العالم أجمع فقط ، ولكن بالتحديد فى منطقتنا وبلادنا ، وفهم العوامل الداخلية التى تعمل فى قلب ذلك الشعب العملاق مسألة من الواجب أن نعرفها ، ونعرفها الآن بالتحديد .. والحيز الآن يضيق .

مدينة ومدن مزودة بأحدث ما وصلت إليه تكنولوجيا مقاومة الجريمة ، وبلاد غنية ، الأجور فيها وافرة ، والحياة تبدو مسألة إلى حد كبير ، حياة النهار على الأقل ، قلت ربما هو الخوف التقليدي من الغربة ، وربما هو كثرة مشاهدة قصص العنف في التلفزيون الأمريكي ، وهو أغرب تلفزيون في العالم ، فعشرات المسلسلات كل يوم حافلة بأنواع من العنف يقتلها البدن ، وكأنه لا هم هؤلاء الناس إلا أن يقتلوا بعضهم بعضا ويضربوا بعضهم بعضا ، الآباء دائما أعداء .. الأبناء ، والبنات متمرديات ، إلى درجة الجريمة على تعاليم الأسرة .. أفهم أنه مجتمع عنيف آه ، ولكن أن يتحول التلفزيون إلى وسيلة لزيادة النار اشتعالا ، وتعليم الجريمة ، والتحريض عليها رغم النهايات التي تقول دائما إن الجريمة لا تفيد ، مسألة تدعو إلى الدهشة الشديدة ، ولا بد أن سبب انعدام أي إشراف شعبي ، أو حكومي ، على محطات التلفزيون الكثيرة ، بل لا يوجد حتى أي ميثاق أو اتفاق على حد أدنى من مراعاة أي قيمة ، المسألة كما ذكرت متروكة للتنافس (الحر) وفي محاولة الجذب الانتباه وتجميع أكبر عدد من المشاهدين لتعرض عليهم الإعلانات ، فلا بد أن تعرض الأتعف ، وكلما كان عنفك نادرا ومثيرا كلما (نجحت !) .

المهم لم أكن حريصا على تتبع هذه القصص المرعبة والمريعة ، حتى وأنا أسمع نعيق عربات البوليس والإسعاف ليل نهارا ، حتى وأنا أقرأ هجومًا تعرض له السفير السويسري ، في حي السفارات بواشنطن ، وهو أكثر الأحياء أمانا . رجل عمره ستون عاما ، هاجموه وطعنوه ، وأخذوا نقوده . حتى حين علمت أن نائب وزير مصري دخل عليه في

ذات الأصابع الطويلة الشاحبة

ملحوظة: حين عدت خجلان إلى زوجتي في الفندق ، ذكرت لها أن بطل القصة كان رجلا غليظ الصوت ، ولعلها الآن تعرف أن البطل كان فتاة ، امرأة أو آنسة ، لا أعرف ، ولكنني أعتقد أنها كانت فتاة ، وبالتحديد فوق العشرين . ثم أتت ذكرت لها أنني أحسست بفوهة المسدس في ظهري ، ولكن الحقيقة أني (تصورت) أنه لا بد مسدس ، فما أحسسته كان شيئا صلبا حديديا دون شك ، أما أن يكون مسدسا أو غير مسدس . فتلك مسألة أخرى .

والآن بعد أن أرحت ضميري ، لنبدا القصة من أولها . وأولها كان في واشنطن حيث وجدنا التعليمات في الفنادق ، وحيث تولت سيدات الجالية المصرية في أمريكا بشكل عام عملية تحذيرنا بشدة أن نسهر أو نمشي في الشوارع بمفردنا ، أو أن نحمل نقودا أكثر من عشرة أو عشرين دولارا . ويجب إذا مشى الإنسان ألا يسرع حتى لا يلحظ أحد أنه خائف ، وأيضا ألا يبطئ حتى لا ينتهز أحد الفرصة ويهاجم .. عليك أن (تضبط) مشيتك بحيث توحى لأي مار أو أي ممن تحدته نفسه أنك واثق وقادر وأنتك غير مهزوز .

في الحقيقة كانت أحاديث ، وتحذيرات كهذه ، تطن في أذني وكأنها صوت بعوض لا تجده إلا في مستنقعات الأرز ، يطن حولك في قلب

حجرته بفندق هيلتون وأخذوا كل ما معه من نقود بعد نصف ساعة فقط من وصوله إلى الفندق .

معظم القاتلين ينسبون الحوادث للزواج ، ولكنى الملح هنا تغيرا كبيرا في المجتمع ، الزوج أصبحوا موجودين ، وبكثرة شديدة ، في كافة مرافق الحياة ، حتى إن الإعلانات عن البضائع لا بد أن تحتوى على أكبر عدد من الوجوه الزوجية ، لإغراء المشتري الزوجي وقد أصبح قوة اقتصادية ، ومذيعو التلفزيون ، لا بد على الأقل من مذيع أو أكثر زنجيا ، وعمدة واشنطن نفسها زنجي ، الثورة الزنجية العنيفة والثورة الزوجية غير العنيفة بقيادة مارتن لوتر كنج أدت إلى نتائج حاسمة فعلا . فأنا لا أصدق الإحصاءات الرسمية التي تقول إن الزوج تعددهم ٢٠ مليوناً فقط ، إن الزوج يشكون على الأقل ربع هذا المجتمع الكبير ، بل إنهم في المدن يبدو عددهم أكثر من البيض كثيرا .

لم بعد إذن القضية العنصرية حادة إلى الدرجة التي تدفع إلى كل هذا العدد من الجرائم . وأنا لا أتحدث هنا عن الجرائم المنظمة التي تقوم بها عصابات كالماфия وغيرها ، تلك التي ترتب لسرقة بنك أو قطار أو محل مجوهرات . هذه هي الجريمة التقليدية في الغرب الرأسمالي كله . إنى إنما أتحدث عن الجرائم شبه التلقائية ، الفردية ، أو العصابات الكثيرة الصغيرة التي انتشرت بطريقة محمومة على مساحة أمريكا كلها والمكونة غالبا من فردين أو ثلاثة على الأكثر . أو ربما فرد واحد قد يهاجم أو حتى يقتل ضحيته مجرد لذة القتل إن كان للقتل لذة . كم ضخم من المسدسات والخنجر والسكاكين والأيدي التي يمكن أن تمسك بها كثيرة . أيد

مسئولة وأيد غير مسئولة لكأنما كانت الموضة في الستينات هي موضة البيتلز والهيبيز وثبت أنها وسيلة غير مجدية لقهر المجتمع الرأسمالي الكبير الراسخ ، فلجأوا في السبعينات إلى الجريمة ، وإجرام بإجرام فليكن الطوفان وليفرق الجميع ..

ولكن هذا كان آخر ما يدور في ذهني وقد وصلت إلى مدينة هيوستن الجميلة بولاية تكساس في الجنوب في انتظار موعد مع الدكتور ديكى أشهر جراح قلب في العالم الآن . الفندق الذي نزلت أنا وزوجتي فيه شاق وجميل ورخيص أيضا ، فوق أن أسعار الفنادق في أمريكا أرخص من مثيلاتها في أوروبا فإن الفندق ملحق بالمستشفى الذي يعمل فيه الدكتور ديكى لينزل فيه أقرباء المرضى .

وصلنا بعد الظهر وكان اليوم يوم الكريسماس الماضي ، كل شيء في المدينة مغلق ، ولن يخلو يومها فقط ولكن سيظل كل شيء مغلقاً للأيام الثلاثة القادمة . وبحث في سجاثرى فوجدت أنها كادت تنقد .. سألت في الفندق فقالوا لي إن المكان الوحيد الذي تستطيع أن تحصل على سجاثر فيه هو فندق هيلتون . وهو يقع على بعد لا يزيد على نصف كيلومتر من الفندق الذي كنا نزل فيه . وفعلا ، حين خرجت من الباب الرئيسى وجدت علامة هيلتون أمامي بفضلى عنها منتزه يغطى المساحة كلها بين فندقنا وفندق هيلتون . سعدت أنى سأتمشى عبر المنتزه . كانت السماء صحو والجو جميلا . ورائحة الكريسماس تهب وتطفي الكبر من السلام على المدينة وعلى المنتزه . وصلت هيلتون بعد نصف ساعة

من السير عبر المنتزه حين غادرته عائدا وجدت الجو قد انقلب فجأة ، وبدأ مطر خفيف أول الأمر ، ثم غزير جدا يتساقط . كانت السابعة مساء ولكن الظلام لم يكن سببه غروب الشمس . كان بسبب اختفائها خلف طبقات كثيفة من السحاب ظهرت فجأة في الأفق وكأنما دفعها يد (ميكائيل ملاك المطر) على عجل ، فقدت الأمل في ثياني وأسرعت عبر ممرات المنتزه التي بدأت تمتلئ بالمياه وتصنع من حداثي مركبا غارقا بجاهد ليوصلني إلى الفندق .

فجأة أيضا ، سمعت الصوت .. يداك إلى أعلى . حسبته رجوع الصبدي في ذاكرتي لكثير من حلقات التليفزيون التي أراها ليل نهار ... يداك إلى أعلى . كأنما الذاكرة ترددها . ولكنها حين جاءت صارمة حادة في المرة التالية ومعها جاء ذلك الإحساس بجسم معدني مسدد إلى عمود ظهري الفقري . انسحب الدم من رأسي في الحال حتى خفت أن أسقط . أنا إنسان غير عنيف ولم أشارك — حتى وأنا طفل — في أي خناقة أو قتال ولا أحب العنف . مع اندفاقة الدم مرة أخرى إلى رأسي تدفق بركان مختلط من الأحاسيس والمشاعر والخواطر . ولكن يدي كانتا قد ارتفعتا تماما إلى أعلى . إنه صوت فلاة هذا واضح . كيف ومن أين جاءت والمنتزه واسع ولم يكن به أثر مخلوق ؟ .. تعليمات البوليس أن تسلم كل ما معلق دون بادرة مقاومة أو نقاش . وحتى إذا لم تكن هذه تعليمات البوليس فكيف تعصى ذلك المسدد إلى ظهرك . أحس أنه ليس مسدسا ، ولكن ما أدراني أنه ليس كذلك . المغامرة هنا على أي حال احتمال آخر . انتحار .. هل تقتلني ؟ .. في نفس اللحظة كانت اليد

الأخرى تمتد لتفحص جيوب سترتي بسرعة وخفقان واضطراب . هنا فقط تحت اليد .. أصابع طويلة نحيلة شاحبة جدا . هي بيضاء إذن .. ألف خاطر وخطر .. ماذا لو أيتها الحلوة تلقي هذه اللعبة من يدك وتدعوني لقضاء كريسماس سعيد ، وتأخذني كل ما معي بإرادتي أنا ؟ .. ارفع يدك . يبدو أن اليدين كانتا انخفضتا تعباً فقد أحسست حقا بتعب مفاجئ وشديد وكأني عدوت مائة ميل .. تنسمرت يداي مرتفعتان .. فجأة بدأت أخاف . هذا أروع صوت ولو أنه أنشوى إلا أن فيه نبرة قتل . الجو يغري فعلا بالقتل ، المكان خاو تماما ولا أرى على امتداد البصر إنسا أو جنا أو عربة أو أي شيء متحرك أو حي . لكننا فرغ العالم تماما من بشره . والدنيا — هكذا أدركت وكأنما كنت قد غبت عن الوعي صاحيا — لا تزال تمطر ، وبغزارة . جو تراجيدي مظلم مضيق يغري بالاكثئاب والاكتئاب يدفع حتما للجريمة . في لفظة عصبية شديدة كانت كل محتويات جيوبى تستخرج بمهارة فائقة . حتى السجائر تستخرج ، ولا ريب أنها تودع حقيبة يد معلقة في الكتف ، تلك التي كانت تخفي السلاح أو المسدس . هي ترتجف سارقة وأنا أرتجف مسروقا ، وبيننا ذلك الشيء المسدد إلى ظهري . وبيننا ما هو أكثر من هذا بكثير . نظام كامل أحالها سارقة مرعوبة وأحالني مسروقا أشد رعبا . فجأة أيضا ذلك الفلاح المصري الشرقاوى الكامن في ، بدأ من سباته الطويل يستيقظ ويتمرّد : كيف تسرقني امرأة ولو حتى بمسدس . ارتعش جسدي بالانفعال المفاجئ ، هكذا لا بد أن تكونت أحاسيسنا في الحال أن الجسم المعدني يغور أكثر في ظهري www.alfalaki.com

القادمة بلا أدنى شك . امتلأ رأسي بدم أحمر . فكرت في حركة سريعة أنخلع بها من مجال التسديد ، وأقلد الكاوبوز وما أكثر ما رأيته يفعلون هذا . ولكن هكذا يفعلون في الأفلام وفي البلاطوه . أنا هنا في بلاطوه آخر . مرعب لأنه حقيقي . لا أخرج يقول : ستوب لا ممثلة تصافحني بعد انتهاء المشهد . هنا الموت فعلا ليس فقط ممكنا ولكنه الاحتمال الأغلب . يارب .. أهذه ميتة .. أقبل من آخر الدنيا لأموت في منزله عام في هيوستون تكساس ، ويبد غيلة رشيقة لبيضاء مجهولة ؟ .. فلينخدم الفلاح الشرقاوى فما دام العنف بالعنف فالأذكى أن نستسلم إذا . كنت في الكفة الأضعف . فلينتهي المشهد بسرعة . وفعلا بسرعة انتهى المشهد ولكنى أنا لم أتحرك . فالصوت جاءنى واضحا وصرخا : قف في مكانك لا تتحرك لمدة ربع ساعة ويداك إلى أعلى . إذا تحركت ستقضى ليلة الكريسماس في جهنم .. وكأن الخطوات لجنية تنسل فوق سطح الماء الذى غمر الممرات .. لم أشعر بها تذهب مثلما لم أشعر بها تقدم . واقفا ظللت .. ماء المطر يتدفق بغزارة رهيبه يملا عيني ويلسعهما ويتحول شعري إلى مزاريب تنسال على متركى التى تهدلت وقلبت جيوبها . كل ما معي كان قد راح ولكن المهم أنى لا زلت حيا . المهم أنى لا زلت حيا فقد قالوا لى إنهم يقتلون الضحايا مجرد إغلاق القم أو حتى لجرد التسليّة .

وقفت مذهبا وما فى الموت بد لواقف . تلميذ صغير أذنب ويذنب على جريمة لم يرتكبها هو . ألتقى مزاريب المطر وتغسل عن عيوى كل آثار ناطحات السحاب والأوتو سترادات والنجاح والغنى والبراء .. إننى فى

قلب الغابة الحديثة .. أشجارها عمارات .. وقروها سماسرة .. وأفيالها جمهوريون (الفيل شعار الحزب الجمهورى) .. ونموها سود وبيض ، والأنثى حية ، تسدد نابها إلى الظهر . ما فائدة الغنى إذا كنا سنعود القهقرى ونستحيل من بشر إلى وحوش . أطلق التنافس على أشده .. يستحيل البشر إلى وحوش . البقاء للأصلح إذن البقاء للمسدس والدبابة والقاتوم . اصعد إلى القمر بجسدك ولكن روحك تهبط إلى الجحيم . أى نظام هذا الذى يدفع شابا أو فتاة إلى حمل آلة القتل والسرقة بالإكراه ربما تحت تأثير عقاقير الهلوسة أو المخدرات أو فى النهاية سعيا إلى إنفاق النقود على عقاقير الهلوسة والجنس والمخدرات . صناعة رهيبه عملاقة هذا صحيح ، حريات خذ ما شئت من حريات ، انتخابات مجالس محلية وسناتورات ، ديمقراطية على أشدها ولكن النتيجة غابة ، وإنسان رغم كل مظاهر التحضر ، ينقلب إلى حيوان مفترس يسرق وينهب . بودى لو لم أكن واقفا وحدى هنا ، ولكن معي ، مسددة إلى ظهره المسدسات والخناجر كل أولئك الذين يحملون بهذه الجنة على الأرض .

وقفت ربما لساعة . ربما لساعتين . وقفت وظللت واقفا حتى حركتى الخوف . الخوف من أن يمرأى أحد واقفا هكذا فيغريه أنى هدف جديد ويقتلنى ، إذ هكذا ذهب الأمن البشرى عنى وانتهت تماما أسطورة أنى فى قلب مدينة متحضرة . أنت لا يمكن أن ترى نظاما على حقيقته إلا إذا اختلفت معه ، إلا إذا عاداك أو عاديتك ، أو على الأقل كشف لك عن أنيابه . وأنبات أى نظام خفية فى العادة للعين الباصرة لا تتحرك (الإدارة)

وذهبت إلى الفندق ، وأنا على بابها فقط بدأت أفكر ، أو بدأت القدرة على التدبير تعود إلى حسي ، إذ لن لقد ذهب عني كل ما أحمله من نقود مخصصة لعلاجي ولإنفاقى لحوالى الأسبوع الذى سأ مكث فيه فى هيوستون . فماذا أفعل والبنوك مغلقة للأيام الثلاثة التالية ، ومطعم الفندق مغلق ، وليس معى أنا وزوجتى حتى نأكل بسكويت .

أبلغ البوليس !؟

وماذا سيفعل البوليس وأنا لم أر الفاعلة ، وحتى لو رأيتها فهى قطعاً هاوية لا سجلات لها ولا صور . كل ما سيحدث أنى سأقضى الكريسماس بإذن الله مع ضابط بوليس متبرم بالعمل فى يوم الأجازة المقدس . ولن يصنع لى فى النهاية شيئاً .

كارثة .. ولكن الكارثة الأقدح أنى كنت حزينا تماماً من أجل الإنسان . ذلك الذى يخترع التجارة والصناعة والزراعة لتتقده فإذا به يذهب فى النهاية ضحيتها . يخترع الثورة فإذا بها أحياناً تطبق على عنقه . أما من خلاص ؟ أما من نظام يكفى حاجاتى دون أن يسرقنى ، وأحكم به نفسى دون أن يتحكم حزب فى وأكون حراً ولا أدفع ثمن حريتى عقاباً ينزل على من (أحرار) آخرين !؟

حزينا ومبتلاً إلى النخاع أرتجف .. دخلت الفندق .. ولكنى فى وسط ذلك الكابوس الخائف تذكرت شيئاً ، ودمست يدي بصعوبة فى جيب بنطلونى المبتل ، ولو كنت قد وجدت كنوز سليمان كلها فى جيبي لما سعدت قدر سعادتي ببقية العشرين دولاراً التى أخذتها بعد

خصم ثمن السجائر فى الهيلتون . أربعة عشر دولاراً بأكملها صحيح لا تكفى لشراء بضع علب محفوظة ولكن المشكلة كيف تشتري هذه العلب ، من يشتريها ، ومن أين وقد أصبحت المدينة على محرمة ؟ ولكنها قصة أخرى ..

هذا أو الجهمجون

قرأت كثيرًا من التعليقات في الصحف العربية والغربية عن فوز كارتر (الصاروخي) في انتخابات الرئاسة الأمريكية. والحق — وإن كان كثير من هذه التعليقات قد لَوَّن أجزاء من الصورة — إلا أنني ظلمت أحس باستمرار أن ثمة أشياء ناقصة كثيرة لتكتمل اللوحة .. ثم أتى أحسست وما دمنا نقول إن ٩٩ ٪ من أوراق اللعبة في يد أمريكا بالأسي لأن اتصالنا بها على أساس اجتهاد شخصي ولا يوجد لدينا على المستوى المحلي أو العرفي مركز وطني أو قومي واحد لدراسة السياسة الأمريكية وتحديد الأسس التي تقوم عليها علاقتنا بها . وإذا طبقنا هذا بالنسبة لعالم عرفي واسع مترامي الأطراف والاتجاهات تلعب أمريكا فيه الدور الرئيسي في صناعة أحداثه أو التدخل لمنع أحداثه ، يكاد موقفنا نحن العرب من أمريكا يمتدنا في قبض من الضحك .

فظمة دول عربية تعتبر أن أمريكا هي (رأس الرمح في حركة الاستعمار الجديد المعادى لأمة العرب ، وكأنها بهذا قد أدت واجبها الوطني خير أداء ، وأطلقت هذا الحكم شهادة للتاريخ يذكرها لها حين يعن لأحد أن يراجع التاريخ والمواقف . وهذا ليس اتجاهًا غريبًا على منطقتنا ولا على إنسانتنا العرفي ، اتجاه إصدار الأحكام . اتجاه أن هذا رجعي وهذا تقدمي وهذا رافض وهذا قابل وهذا بين وبين .. وكأننا لا نحيا في فترة تتحرك بنا

وبها الأحداث في سرعة رهيبية والسبق فيها هو لمن (يحرك) الأحداث ولا يكتفى بإصدار حكم بيزنطي عليها ، وإنما كأنما نحن في محكمة قد توقف الزمن بنا وبها وسكنت الأحداث تمامًا داخلنا ومن حولنا ولم يبق على كل منا إلا الإدلاء بشهادة الإدانة أو بشهادة البراءة . ومن هو قاضي هذه المحكمة أيها السادة ، وأين الادعاء وأين الدفاع ، وحتى لو أصدر هذا القاضي المزعوم (حكمًا) ما ، من ينفذه ؟ يخيل إلى أن كل مسئول أو قائد يملك هذه العقلية المضحكة ، قبل أن يدلي بأى تصريح أو يحدد موقفه من أى اتجاه يصيح في سره : حضرات القضاة .. حضرات المستشارين .. أنا يرى يا حضرات وهذا هو الجاني اللعين .. في حين أنه لو تصور الموقف على حقيقته وأدرك أنه يخاطب أشباح قضاة ومستشارين وعدالة لا وجود لها إلا في خيال سعادته ، وأن أحدا لا يهتم بالمرء أن يكون سعادته بريئا أو مذنبًا إلا بقدر (قوته) هو على فرض براءته أو حتى فرض جرمته ، غيا في عالم لا تسيره أحكام محكمة عدل دولية أو مجلس أمن وإنما يسيره منطق القوة القاهرة الغاشمة ، والحق دائما هو منطق الأقوى . والكلام الذي يذوب في الهواء ولو كان مصنوعا من البراءة المذابة هو دائما منطق العاجز .. لو تصور أنه إنما يتحدث بلغة أشباح وإلى أشباح ، ويستذكر دروسه من دفاتر (القيم) ، إذ مازلنا في الحياة الدنيا وحساب كهذا لا يتم إلا يوم القيامة ولا يقيم حده إلا إله قادر يفرض العدل والعدالة .. نحن للأسف مازلنا في الحياة (الدنيا) مكانا ومعنى ، فأى معنى بعد هذا إصدار (أحكام) غير قابلة للتنفيذ أو رفض شيء إلا وأنت قادر على فرض شيء آخر ، وعجيب أن لا نفرق بين كل شيء

(فرض) و (رفض) ، نفس الحروف ، ولكن حركة الراء إلى أمام الفاء لا تغير تماما ولكنها أيضا رمز عميق لكون الفرض (حركة) أو (فعلا) وفي النهاية إجبار .. برضه ما علينا من هذا كله ، هناك كما قلنا أجزاء من العالم العربي تعلن عداها لأمريكا وللسياسة الأمريكية وتعتبرها أشنع درجات الاستعمار العالمي ، وأنا لا أناقشها في هذا . وقد يكون لي نفس الرأي ، ولكن هؤلاء الذين يقولون هذا ويفعلونه دول ومؤسسات وتنظيمات ، وليست أفرادا مثل عاجزة . وبما أنها كذلك ، وبما أن أمريكا ليست كلمة وإنما هي مؤسسات (جهنمية) و (أخطبوط) وعقول خبيثة واسعة الخيلة ، ومعامل تفرغ أسلحة وأشكال عدوان ، فالسؤال هو ماذا فعله أو يفعله هؤلاء اللاعنون الساخطون لمعرفة ذلك (العدو) ما داموا يعتبرونه عدوا . وما دام المثل الحكيم يقول : اعرف عدوك ؟ الواقع أن معلومات الرافضين لأمريكا وللسياسة الأمريكية في شرقنا العربي لا تقل عمومية أو سطحية عن معلومات من يعتبرونها الصديق الأول أو على الأقل الراعية المثالية لاستتباب (النظام) واللاشيوعية واللااشتراكية في المنطقة .. فنصور أنت تربط نفسك وبلدك وشعبك وتضع كل بيضك كما قلنا في سلتها وأنت لا تعرف عن هذا البلد الخطير في حياتك وفي مصيرك إلا معلومات أى سائح أو ضيف طالت قليلا ضيافته .

يقيني أن من يعادون أمريكا هم أولى الناس بالتهام المعلومات وتحليلها وإدراكها ومن يصادقونها تعتبر مسألة كهذه مسألة حياة أو موت .. ومع هذا فعلى اتساع علمنا العربي كله لا يوجد في أى بلد عربي أو أى جمع

أو تجمع عربي (مركز) لدراسة أمريكا : النظام والسياسة والعوامل الظاهرة والخفية واتجاهات الرأسمالية الأمريكية والشارع الأمريكي والمؤسسات ، سياسة الدولة الاتحادية وسياسة الولايات ، سياسة البنتاجون ووزارة الخارجية ومجلس الأمن القومي الأمريكي وسياسة الـ سى . أى . إيه وآلاف نى آى ، والمراكز الجامعية المتعددة (للتفكير) الأمريكي تجاه الشرق الأوسط .

لهذا السبب لا نستطيع أن نجد ببساطة (سياسة) يتخذها بلد عربي ، أى بلد عربي ، تجاه أمريكا .. نجد علاقات وصدقات وصلات شخصية ومصالح أو معارك وعداء ، أو رضاء ، ولكننا نجد سياسة مرسومة .. سياسة بمعناها العلمى الدقيق .. سياسة تحدد فيها بالضبط ماذا تمثل أمريكا بالنسبة لنا ، ثم ما هي هذه الدولة العظمى التى أصبحت كما يقول حتى بعض كتابنا التقدميين أعظم دولة في عالم اليوم .. من هي .. وما هي ؟ دراسة واعية دقيقة مفصلة بحيث حين نأتى للخطوة التالية وهي خطوة ما هو موقف هذا البلد أو ذاك تجاه أمريكا ، لا تأخذنا على ظلام ، أو (جهجهون) كما يقولون ؟ وإنما هو نور وبيئة . وبحيث يتحدد لنا على ضوءه أيضا ليس أن نكتفى (بوصف) أمريكا بأنها استعمارية مؤيدة للصهيونية أو تصدر حكم الصداقة لصالحها . بحيث يتحدد لنا كيف يمكن أن نغير من تجاه أمريكا ناحيتنا إذا كان اتجاهها ضارا بنا ، أو نحارب هذا الاتجاه إذا كان لا مفر من محاربه . أو في الناحية الأخرى — بحيث ندرك كيف يمكن أن يتغير هؤلاء الذين يعتبرون

أمريكا صديقة وحامية لمصالحهم ضد « الزحف الشيوعي » ، ينمون هذه العلاقة ويطورونها لمصلحتهم الشخصية هم ، وأيضا إذا كانت بلادهم وشعوبهم تهمهم فلمصلحة هذه البلاد والشعوب أيضا .

والدليل واضح أمامنا وصریح والمثل واقع أمامنا في الحال و صارخ ، حكاية فوز كارتر وهزيمة فورد . لكننا تعليقاتنا العربية — ومن أناس محترمين في نظري تماما — تتحدث عن ظاهرة كونية حدثت هكذا والمطلوب هو بحث أسباب حدوثها واستقصاء جذور الموضوع كله . إن نجاح كارتر بالتأكيد لم يكن ضربة حظ أصيب بها السيد جيمي أو سوء حظ لازم السيد فورد . لو كان عندنا (مركز) واحد أو هيئة واحدة فقط في عالم عربى شاسع وغنى وخطير ، بل يكاد يكون صانع الأحداث الأول في عالم اليوم ، لو كان لدينا في عالم كهذا مركز كذاك ، لعرفنا ومنذ زمن أن فورد لن ينجح ، وأن التغييرات التى سبقت وصاحبت عملية انتخاب الرئيس الأمريكى ، بل ومنذ حكاية ووتر جيت وعزل نيكسون ، لعرفنا وأدركنا أن دفة الأمور تتغير ، وأن اليد تتدخل دائما لتغيير دفة الأمور في اللحظة المناسبة — كما حدث عند اغتيال كيندى — قد بدأت تعمل في اتجاه يهجم نجاح كارتر والحزب الديمقراطي .

وأنا لا أزعم أنى دارس أو متبحر أو حتى أملك واحدا على مائة من قدرة أى مركز دراسات أو أى كاتب متخصص في السياسة وتبحر فيها ، في الواقع أنا أسمى معلوماتي السياسية وبالذات عن المسائل الخارجية ،

اسمها بيني وبين نفسي على الأقل معلومات وتحليلات أحيانا لا سند لها من الواقع ولا أستشهد فيها بأقوال أو وقائع ، وإنما هي في حقيقة أمرها خواطر فلاح مصرى يفكر في السياسة العالمية في وقت أصبح التفكير في السياسة مسألة علمية لا يقوم بها أبدا شخص أو مكتب وإنما أجهزة رهيبة كاملة متكاملة وحسابات إلى أبعد من أبعد مدى .

الواقع أنى حين كنت في الولايات المتحدة في الخريف الماضى سعيا لفرض نفسي على مراكزها الطبية ، ورغم أن مستشفى البحرية الأمريكية — أرق مركز للعلاج في العالم — اعتذر عن قبولي كمريض باعتبار أنهم لا يعالجون إلا من يخدم علاجه السياسة الأمريكية في المنطقة التى جاء منها ، في الحقيقة لم يفضنى أبدا هذا الموقف ، فمراكز العلاج في الدول الشيوعية أيضا لا تقبل أن تعالج في مستشفى الكرملين مثلا إلا من يخدم علاجه الجبهة الاشتراكية أو الشيوعية في العالم .. أو في تلك البقعة من العالم . لم آخذ المسألة بطريقة عاطفية لسبب أنى أدرك بعق أنا لا أنحيا في عالم رومانسى حالم شهم يقدم العلاج للمحتاج بصرف النظر عن رأيه أو دينه أو مبدئه . عوالم صادقة تماما — وحتى صريحة جدا — مع نفسها ومصالحها . من معى أو يتفنى أعالجه أو أعطيه . ومن ليس معى أو لا يفيدنى فمن الحق أن أضيع معه وقتى أو جهدى أو مالى .

المهم . في ذلك الخريف تصادف أيضا أن كانت تلك الزيارة ذات الدلالة العظمى التى قام بها الرئيس السادات للولايات المتحدة بمرافقة

تأت من فراغ ولم يكن مفروضا أن تؤدي إلى فراغ ، ففى كل حديث للرئيس الأمريكى فورد أو للدكتور كيسنجر مسألة النجاح الأمريكى فى حل مشكلة الشرق الأوسط تقدم كالمؤهل رقم واحد للفرديّة الكيسنجريّة ومن قبلهما النيكسونيّة . كانت تقدم وكأنها أهم من مشكلات التضخم وازدياد البطالة أو سياسة الوفاق ذلك أنها لم تكن تقدم إلى (جماهير) الشعب الأمريكى ، وإنما كانت تقدم إلى من هم أهم من مجرد كونهم جماهير .. إلى (صناع) الرأى العام الأمريكى .

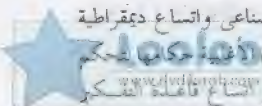
ولنتوقف قليلا عند نقطة الرأى العام هذه ، أو رأى رجل الشارع .. فالكثيرون منا ومن غيرنا يأخذونها دائما وكأنها قضية مسلم بها ، ومادام رأى رجل الشارع كذا أو رأى الجمهور كذا فلا بد أن هذا هو الحق . لا أحد جرؤ فى حياته أن يتهم الرأى العام بالخطأ أو الخطل ، إنما الكل إذا وصلت المسألة إلى الرأى العام ، يسجد منطقيا ويؤمن على صوابية الرأى العام (إن جاز هذا التعبير) ذلك لأنه دائما رأى الأغلبية العظمى من أفراد الشعب ، ومادامت الديمقراطية هى حكم ورأى وسياسة الأغلبية (مع الاحترام الواجب طبعاً للرأى الأقلية) فدائما هذا الرأى العام السائد هو الصواب .

وإذا كان لنا أن نعرف عدونا حقاً فمن الواجب أن لا نعرفه فقط لنفسد خططه وإنما فى أحيان لتتلعن منه ، ولا بد لنا هنا إذن أن نسلم أن اليهود كشيء وكسلالة كانوا — باعتبارهم فى أى مجتمع يكونون هم الأقلية — أدركوا أن قوتهم عمادها سلاحان رئيسيان : المال ..

والرأى .. أو الدولار والفكرة . إذا كنت أغنى من فى مجتمعك فقط فلن تكون أقوى من فيه ، وإذا كنت أذكى الناس أفكاراً فى مجتمعك فقط فستظل قوتك نظرية . أما إذا كنت تملك الفكرة والمال فأنت مالك حينئذ العقل والجسد معا ، أنت فى الحقيقة مالك الجهاز العصبى والجهاز الدورى والباقي كله عضلات وعظام .

وقديما كان ينحصر الفكر فى بعض الكتاب وذوى الرأى ، ثم يظهر الكتاب والمطبعة اتسعت دائرة أصحاب الفكر فى المجتمع ، ثم يظهر الإذاعة والتلفزيون وأجهزة مخاطبة عشرات ومئات الملايين معا وفى وقت واحد وصلت (ديمقراطية) الفكر من الدائرة الضيقة التى كانت محصورة فيها وكانت تصل إلى الرأى العام منقولة (عن) المتحدثين أو عن الكتب والكتاب إلى أوسع دائرة وصلت إليها (الديمقراطية الفكرية) حتى أصبح رجال نساء الشارع يفكرون مع المفكرين ويبدون الرأى مع أصحاب الرأى . ومنذ أخذت هذه الوسائل تتسع وتشمل أعداداً أكبر وأكبر من الناس ، بدأ أولاد أعمامنا اليهود ذوو الذكاء الرهيب الذى تعمل به أى أقلية منضامنة فى أى مجتمع ، بدأوا يدرسون ثم يتقنون ثم يستأثرون تماماً (بصناعة) الفكر وقد وصل (أرسطو) الواحد القديم أو (فيثاغورس) المتواضع إلى عصر صناعة الـ mass production of thoughts .

وهكذا صاحب عملية تطور المجتمع الصناعى واتساع ديمقراطية الحكم أى الاتجاه أكده فأكثر إلى أن (تختار) الأغلبية حكاماً يحكمونها بواسطتهم .. صاحب هذا باستمر اتساع قاعدة الفكر



العريضة .

وأى حكم في الدنيا ، ماذا هو على وجه التحديد ؟ أليس هو عملية أن يختار المواطنون جميعا أناسا أو أفرادا يودعونهم ثقتهم ليحققوا لهذه الأغلبية العظيمة (الأفكار) التي تراودها . إذن الذى يحكم في النهاية ليس هو الشعب بحسده أو بوجوده العضوى ولكنها (الأفكار) التي تسود هذا الشعب ، وتملكه ، وتسيره .

بمعنى آخر إذا كنت أنا كأقلية لا أستطيع أن أفرض على المجتمع العريض تمثيلي الجسدى له ، فأنى أستطيع أن أنفذ سياستى أنا إذا استطعت أن أجعل رأى العام الشعبى يتبنى أفكارى أنا ويسير بها . من أجل هذا نلاحظ أن تركيز (أبناء عمومتنا) كان في القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر وحتى العشرين يلجأون إلى الحكام والملوك ليكونوا مستشاريهم وصناع أفكارهم .

وما قصة يوسف الصديق وعمله وزيرا لمالية فرعون تمهيدا لجلب قومه إلى مصر بغربة (أو حتى بعيدة) ، نلاحظ أنه بانتقال السلطة تدريجيا من أيدي الملوك الأفراد والزعماء الأفراد إلى أيدي المجموعات الحاكمة التي بدأت تتكون مثل مجالس اللوردات ثم مجالس الشيوخ ومجالس النواب .. الخ .

ولا نجد في التاريخ الحديث مثلاً أوضح مما حدث في الولايات المتحدة لهذا (السيد) ، على خزائن المجتمع دولاراته من ناحية ومن ناحية أخرى على عقول هذا المجتمع أو بالضبط على أفكاره .

ولهذا أنا أرى أن (فضيحة) ووتر جيت لها وجه آخر مختلف تماما عن كل ما سبق في تحليلها . وإليك ، فى رأى ، المتواضع ، الساذج كما سبق وحذرت ، ما حدث .

عقب الحرب مباشرة والمآسى التي حدثت ليهود أوروبا ولألف اعتبار آخر ساد الحزب الديموقراطى الحياة السياسية الأمريكية ، ذلك لأنه الحزب الذى لا يمثل الرأسمالية الأمريكية القحة ، وإنما هو فى حقيقة أمره يمثل الأقليات الرأسمالية — وأكبرها طبعاً الرأسمالية اليهودية — المتحالفة معه والمربطة بأقسام كبيرة من الرأسمال الأمريكى — حزب فى ظاهره يبدو أكثر تحمراً وأكثر شعبية ولكنه الحزب الذى تحظى الدوائر اليهودية التى أخذت تتبلور بعد قيام إسرائيل — على هيئة دوائر صهيونية علنية أو شبه علنية تحظى داخل هذا الحزب بأكثر اعتبار .

ولقد ظل هذا يحدث إلى أن تورط الحزب فى حرب فيتنام (التى بدأت فى عصر كيندى) وكاد يتورط فى حرب عالمية (حادثة خليج الخنازير مع غروشوف وكوبا) ثم التأييد المطلق الأعمى لإسرائيل ضد العرب فى الشرق الأوسط .

وحين طال المدى وفتشت الرأسمالية الأمريكية ومن ورائها الطبقة المتوسطة والعامة فى أمريكا فى دفاترها فوجدت أنها تخسر بهذه السياسات الخارجية عمياء التعصب على طول الخط (بينا — وهذا هو المضحك ، سياسة داخلية أكثر تحمراً ساعدت هذه الفئات نفسها على اكتشاف الحقيقة) حينما فتشت ووجدت أنها تخسر الرأسمال اليهودى ورأسمال الأقليات بعيد عن استثمارات البصرة التى كانت تسيطر

عباب الخط البياني صعودا إلى القمة . حينما بدأت تنتعش هذه الرأسمالية الأمريكية القمحة وتحاول أن ترى الأمور من وجهة نظر مصالحها هي الخاصة بنجم نيكسون الجمهورى — ضد منافسه الديمقراطى رغم حصول منافسه على تأييد الدوائر اليهودية قاطبة . وجاء نيكسون إلى الحكم ، وفي نفس الوقت الذى لمع فيه نجم كيسنجر كمفكر يهودى هذا صحيح ، ولكنه ليس متعصبا ذلك التعصب الذى يجعله لا يفكر إلا لما تحت قدميه ، فأمرىكا تحمى يهودها ويهود إسرائيل إذا كانت قوية وقادرة على هذا الحمل ، أما أن تظل تحمل ما فوق طاقتها حتى لو كانت الدوائر الصهيونية هي الراكبة فسوف تنهار أمريكا وينهار معها ما تحمله فوق كتفها . كان المطلوب إذن ليس إنقاذ أمريكا ورأسمالها القمح فقط ، ولكن إنقاذ الرأسمالية العالمية نفسها ، تلك التى كانت تدفعها سياسة الديمقراطيين بقيادة الصهيونية لسياسة عنيفة تجاه روسيا والمعسكر الشرق وتجاه العالم الثالث وبالذات تجاه العرب .

وفعلا ، انتهت المواجهة تماما في فيتنام ، وقعت اتفاقيه سيناى في الشرق العربى ، استفاد الرأسمالى الأمريكى من المقاطعة البترولية ورفع الأسعار إلى درجة ركعت الرأسمالية اليابانية والألمانية والأوربية وبالتالي الرأسمالية في العالم كله بما فيه خلفاء دييول وأمسك الرئيس الأمريكى لأول مرة منذ أمد طويل بمقود السفينة الرأسمالية كاملة .

وسمى الناس ماتم إسفينيا حدث بين اليهود الأمريكيين وإسرائيل وبين أمريكا السلطة والدولة والرأسمال ، وسموه سياسة التوافق ، وسموه أشياء كثيرة ، إلا أن اسمه الحقيقى كان بداية عهد أن تقود الرأسمالية الأمريكية

القمحة الولايات المتحدة والعالم الرأسمالى كله ، لمصلحتها ، وبصرف النظر إن تضامن هذا أو تناقض مع الأقليات الرأسمالية الأخرى وعلى رأسها الرأسمالية اليهودية .

وهناق ناقوس الخطر .

فمعنى هذا أن تستقل السياسة الأمريكية أو بالأصح رجال السياسة عن التوجيه السياسى والفكرى للدوائر الصهيونية العالمية ، والأمريكية بالذات .

ولذا فكان مطلوبوا وبسرعة حل (بحجم) — على رأى إخواننا الشوام — أولا الرئيس الأمريكى .

للمشهد ثانيا (لتحجيم) الجمهوريين الرأسماليين الأمريكيين القمح . ثالثا وبسرعة إنهاء حالة وحلاوة وثمار استقلال الرأسمالية الأمريكية عن أى نفوذ يهودى ، وهذا لا يكون إلا ليس فقط بالتحجيم دائما بإزاحة الحزب الجمهورى كله من الحكم ، لعودة حكم (الجبهة) ، تلك التى تستطيع الدوائر المذكورة أن تلعب وبسهولة وخفة يد عظمى في مياهاها حتى لو كانت رائقة كمياء البيسين .

و (فضيحة) ووتر جيت لن يذكرها التاريخ ، إذا كان جادا حقا كتاريخ ، إلا كنتكة .. نكتة هائلة الضخامة ضحك بها ليس فقط على شعب كبير عظيم ذكى مثل الشعب الأمريكى . ولكن على عالم كبير وذكى مثل عالمنا المعاصر .

صحيفة الواشنطن بوست هي أهم مصنع صحفي تصنع فيه الأفكار .

وآه من عملية أن (تصنع فكرة) .

الأمر ليس فهولة كما تعودنا أن نفعل هنا ، وليس لعب عيال كما تفسر بعض الحكومات حقائق دامغة في بعض الأحيان . الأمر هنا أمر ذكاء مفرط ودقة متناهية — وعلمية شديدة — داخل فيها علماء اجتماع ورجال دين ومثلاث سبينا ودهاة مخبرات وخبراء في كل فرع ولون وملة .

ولهذا لم يكن صدفة أبدا أن الذي بدأ (فضيحة) ووتر جيت صحفيان شابان من صحفيي الواشنطن بوست أصبحا الآن أشهر صحفيين أمريكيين بطبيعة الحال .

بقي يعني أمريكا التي يغتال فيها رئيسها كيندى وتؤلف لها ألف لجنة وتحقيق لا تستطيع العثور على القاتل الحقيقي أو القتل الحقيقيين وراء الحادث والتي يغتال فيها مارتن لوثر كنج وأيضا لا يعثر لقاتله على أثر . أمريكا التي صعدت الجريمة إلى عصر الفضاء والمعجزات ، وأصبحت المافيا فيها في مستوى علم وأسرار الطبيعة النووية وفيها من يستحقون — بجدارة — جائزة نوبل في الإجماع . واستحووا لي هنا أن أستطرد بمناسبة جائزة نوبل التي منحت للكاتب اليهودي الأمريكي (سول بيلو) ، والذي حين دعنتي جامعة شيكاغو عام ١٩٦٦ لا يكون (كتابا زائرا) في قسم الشرق الأوسط كان هو في نفس الوقت يعمل كاتبا أمريكيا زائرا في كلية الآداب بنفس الجامعة ، وحدث أن التقينا عند

الأساتذة ودعوته على العشاء (أنا الذي دعوته والله ، مع أننا كنا في أمريكا) ، وخلال الساعات الست والثلاثين التي كانت لا تزال أمامي ليحين ميعاد الدعوة حاولت أن أعرف عنه شيئا من خلال إنتاجه ، فذهبت إلى مكتبة الجامعة واستعرت الروايات الخمس — وقد كانت كل ما كتبه حتى ذلك الوقت — وبدأت قراءتها وفي ذهني الأطار الذي أدخله في روعي الأستاذ الذي عرفني به حين قدمه لي باعتبار أنه (أحسن كاتب روائي أمريكي) ، أقرأ وأذهل ثم أغلق الكتاب وأعود أقرأه ، أتناول قصة أخرى . أكرر المحاولة لألحقة عبقرية واحدة ألسها ، قصة قصيرة واحدة هيمنجواي ، بل رواية لفرانسواز ساجان أعظم بكثير من هذا الكاتب ذي الروح الميتة التي يحاول أن يصور بها بطلا واحدا خلال القصص الخمس ، يهودى وحيد ضائع وأحاسيسه التي لا تريحك أو حتى تستثير شفقتك ، عالم شاحب لا تحترقه شهابة انفجارية أو مفاجأة إحساس ، وأقسم أني جاهدا ومخلصا حاولت أن أركز كل طاقتي وأقرأ له رواية كاملة وكأنها واجب مدرسي ، ولم أستطع أبدا أن أتمها . ولكني أيضا لم أعجب أبدا أو أندش حين نال جائزة نوبل — لنفس هذه الأعمال — لهذا العام ، فهو كاتب ويهودى وأمريكي . وجائزة نوبل . جائزة داعرة يمنحها داعرون سياسيون باسم الأدب وكل ما فيها إما مسخر لإذكاء الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، وإما لجعل أكبر عدد ممكن من (علماء) اليهود ، أمريكيين أو غير أمريكيين ينالونها ، ولتراجع معا من فاز بها ولماذا خلال الأعوام العشر الأخيرة . إن ما أزعجني حقا أن الصناعة الغربية كانت دائما متفتحة ، حتى الصناعة

المغشوشة منها كانت متقنة .. أما أن يأخذ سول بيلو الجائزة وفي العالم مارلو وجارثيا وألان روب جرييه وليوبولد سينجور وجنتر جراس والبي ومنك راخ أناند وعشرات غيرهم في أمريكا اللاتينية وتركيا واليونان وحتى في عالمنا العربي أستطيع على الأقل أن أعدد عشرة من الأحياء يتوارى أمامهم كل ما كتبه مستر بيلو خجلا . ولكنها جائزة لم تعد تخفى وجهها ، فهي بصفاقة غريبة تطل من باب (الأدب) وتقول : صهيونية أنا والأفضل عندي دائما هو اليهودي السامي . وكأنها تخرض العالم ليصبح كما يودون وكما يصورون : ضد السامية . ولكن الحسن الحظ فالعالم أرقى من هذه العقول التي تؤجج الأحقاد والنعرات العنصرية . وتحت شعار - يا للوقاحة - القيم الإنسانية ومحاربة العنصرية .

وأيا ، ما علينا ..

السؤال هو : هل لو كان أصحاب الواشنطن بوست أو المشرفون على تحريرها ، ثم الموجهون لجرائد وتلفزيونات ومحطات الإذاعة الأمريكية والنوادي وقاعات المؤتمرات والمحاضرات ، باختصار صناع الرأي العام ، هل لو كان هؤلاء لا يريدون لووتر جيت أن تكون أميكن أن تكون قد حدثت ؟ هؤلاء الذين تغاضوا عن اغتيال رئيس بأكمله ، وأكبر زعيم زنجي بأكمله ، أكان سيؤرق ضمائرهم كثيرا أن يتغاضوا عن أن رئيسا (أمر) بأن يستمع بعض مساعديه إلى مكالمة تليفونية يجريها أفراد الحزب المنافس ؟ يا سلام على الضمائر الحساسة ، وبالضبط عند اللزوم ! والنتيجة : يره بأستاذ نيكسون وبفضيحة مدوية . يره لأي رئيس

أمريكي يحاول أو يفكر أو يجرب مرة أخرى أن يفرد ، حتى لو كان يمثل فعلا مصلحة أمريكا الرأسمالية الحقيقية ، باللعبة .

وليس هذا فقط فعلى الكونغرس الذي آلت إليه أجزاء كبيرة من مسؤوليات رئيس الجمهورية بعد طرد نيكسون ، أن يحذر هو الآخر . فضائخ الجنس ومعداتها جاهزة ، ويمكن حتى أن يحاسب على رأى الكاتب الساخر بوكوالد « على » الزنا بالنظر « فالرأى العام قد تنبه ، وتنبه إلى أن الذين يحكمونه لا بد أن يكونوا (أطهار) . هذه (الفكرة) هي عينة واحدة من عينات (صنع) أفكار الرأى العام وخلق محظوراته (و تابلوهات) .

وكان النفع فيها والتضخيم أمرا لا مفر منه لأن الهدف لم يكن التخلص من رئيس جمهوري كنكسون بدأ يصنع علاقات مباشرة مع ألد (الأعداء) السابقين الصين وروسيا والعرب ، فإن سريان الماء مباشرة بين البيت الأبيض أو حتى بين الكونغرس وبين بكين وموسكو والقاهرة والرياض والجزائر وبغداد والكويت مسألة خفيفة قد تجعل المؤسسة الأمريكية تستغنى تماما عن هذا السمسار النيويوركي الذي لا يزدهر إلا بالمضاربة والمواجهة وازدياد التوتر وخلق عداوة صليبية (تخيف) الأمريكيين دائما وتجعلهم باستمرار أسرى الأفكار التي يصنعها لهم صناع أفكار الرأى العام الأمريكي ، وبالذات الدوائر الصهيونية المسيطرة سيطرة شبه كاملة على أجهزة توجيه الرأى العام .

سابقا كانوا يحكمون عن طريق الملك الخليل (ذا) كان هذا ملك مطلق .

إذا جاءت الرأسمالية والديمقراطية يسيطرون على الأحزاب بدعوى الاشتراكية العالمية (الشيوعية) مرة ، والاشتراكية الديمقراطية العالمية (الاشتراكية) مرة وحتى الاشتراكية الوطنية (التي يسمونها الأفكار الفاشية والنازية) .

ولكن أعلى تلك المراحل على وجه الإطلاق ، هو ما حدث في أمريكا ، فمادام الذي يقرر من يكون السناتور ومن يكون الرئيس هو الرأي العام المكون من الناخب العام والمواطن العام ، فليكن الهدف على وجه التحديد هو (ضيافة) الرأي العام كما تريد وتدعو ، هو بعد هذا يختار الأشخاص الذين ينفلون هذه السياسة وتلك الأفكار فهي أفكارنا وسياستنا .

ومن المؤسف أن عصر ازدهار أجهزة الاتصال الجماهيرية الواسعة يحتم بالضرورة (لأنه أيضا عصر الإنهاك العصبي المستمر والاستنزاف الفكري) ازدهار الأفكار الوقتية والسهلة والمتناولة وغير الشخصية وغير العميقة وغير المدروسة ، بحيث أن (صناعة) الأفكار لم تعد تقتضى التمعن والعسق وإنما أصبحت تتطلب أن تكون (كبيرة ولذيذة) ، و (سهلة على العقل وسهلة على المعدة) أسهل أن تروج أن أمريكا في خطر وأن الشيوعية ترحف وأن لا بد من تقوية الكنائس والأديان لمواجهة خطر الإلحاد الماحق والوفاق مصر وإسرائيل هي معقل الديمقراطية بين عرب أثرياء سفهاء يتفقون بتهور ويكونون لنا العداء .

وهكذا كان لا بد أن يذهب نيكسون والجمهوريون ، ويأتى كارتر والديمقراطيون . كان عظيما جدا لو جاء كارتر والديمقراطية ، ولكن

المؤسف أن الديمقراطيين في أمريكا الخارجية رجعيون تماما ولا علاقة لهم بديمقراطية الداخل .

ولهذا فإشفاقا على العالم مما قد تورطه فيه سياسة خارجية أمريكية ، إشفاقا على العالم من حرب المذاهب الوهمية التي يروح ضحيتها بشر حقيقيون أئمن في رأي من أى مذهب ، إشفاقا على منطقتنا العربية بالذات أن تعود إليها أمريكا الهراوة والانيياز الأعمى ، إشفاقا على العالم من سياسة لا يراد لها في النهاية إلا مصلحة خبيثة يستغلون فكرة وفلسفة شعب الله المختار وأرضه المختارة نفسها أئمنى لو تصل أفكارنا نحن ، وضرورى هناك طريقة لكنى يعرفوا هناك ما يدور في رؤوسنا نحن ، فمجيء كارتر هذه المرة قد يكون صعودا بالرئاسة الأمريكية إلى عهود روزفلت المجيدة أو هيويتا بها إلى عهود جونسون غفر الله له .

إن مفترق الطرق هذا في حاجة إلى وقفة طويلة ، خاصة من أولئك الناخبين حسنى النية الذين جاءوا بكارتر في سبيل حكم أفضل ومنطق أسمى من منطق القوة الغاشمة وذم أنظف بكثير من تلك التي تحاسب رئيسا لأنه تسمع على خصمه ولا تحاسبه لأنه قتل عشرات الآلاف من الأبرياء في فيتنام وذبح عشرات من أخلص الخلقاء في شيلي وغيرها . مفترق طرق نعم ، لأمريكا ، وللعالم ، وبالذات لهذا الجزء العربى من عالمنا .

وهذا .. أو الجبهجهون .

ومعذرة لقد نسيت ... إلى الأسبوع القادم يا مشرق ميلاد ..
ويا مارلين مونرو ..

والسماء (العدالة) .. منذ عامين ربما رأيت صورة للرئيس نيكسون في اللحظة التي قرر فيها أن يستقيل ويفادر البيت الأبيض إلى الأبد يعانق زوجته ، وينحن ليضع رأسه (المتعب تماما) فوق كتفها ، ولا يبدو واضحا أنه كان ييكي ، ولكن المؤكد أنه كان يفعل شيئا أنعس من البكاء ، ولا بد أنه هو الآخر كان يقول : ولماذا أنا وكل الرؤساء فعلوا هذا ، كل رئيس حزب في التاريخ تجسس على خصومه ، كل غنى حاول التهرب من الضرائب ، كل منافس استحل لنفسه أن يتبع أى طرق وأحط طرق للفوز على منافسه .

فلمماذا أنا . لماذا وهناك مشاكل الشرق الأوسط والأدنى ، لماذا وهناك سياسة الانفتاح مع روسيا ، لماذا ومصر أمريكا كله معلق في يدى أنا ، لماذا بالذات ، ولماذا ووتر جيت بالذات وكل مكان في أمريكا قد شهد ووتر جيت بطريقة أو بأخرى ؟ .

والحق أن محور « يونس — نيكسون » دفعنى للتفكير طويلا في هذا الأمر ، خاصة بعد أن انضم إليهما السيد المحترم (تاناكا) رئيس وزراء اليابان الأسبق (وعضو الحزب الحاكم الحالى) ، وقد ضيقت (هابرا) — أرجو أن تكون هابرا صحبحة لغويا — مليون ونصف مليون دولار من شركة لوكهيد ، ثم انضم إلى النادى ذلك الأمير زوج ملكة هولندا وأسماء كثيرة أخرى عالمية الشهرة بدأت تتسرب إلى الصفحات الأولى في الجرائد العالمية المحلية باعتبارها من نجوم (فضيحة) شركة لوكهيد — وقادتنى أفكارى إلى حكاية (الفضيحة) هذه كيف (تسربت) أخبارها إلى الصحافة الأمريكية والعالمية ، وإلى قوة العلم

محور نيكسون — يونس

مثل مارى أنطوانيت وهى تساق إلى المقصلة وقف (بطل) الساعة أحمد يونس في مجلس الشعب يصرخ : لماذا أنا وهناك احتلال لإسرائيل ليسناء لماذا أنا وهناك مذابح في لبنان . لماذا أنا وهناك أزمات المواصلات والمجارى والتليفونات .. وهناك أعاصير رهيبة في الصين وزلازل في الغليين ، لماذا أنا بالذات ؟ .

والحق أنى حين أمعنت النظر في صورة الرجل وهو يهتف بهذا الحق وجدت أن ملاحظته تنطق بكلام آخر تماما ، إذ كان وكأنما يريد أن يقول : لماذا أحمد يونس وفي البلد آلاف من أحمد يونس وأكبر بكثير من أحمد يونس .. لماذا على رأسى أنا وحده أن يطير بينا الرؤوس يانعة وكثيرة وتعج بها البلد وفي حاجة ماسة إلى ألف أنى حجاج ثقفى ، وقد حان قطافها ، أن يقطفها .

ولكنه لم يقل هذا بالطبع ، فهو لم يصل بعد إلى مرحلة اليأس الكامل : ولم يقرر هدم المعبد ويقول : على وعلى أصدقائى . إذن فالأمل لا يزال يداعبه أن ينجو بالذات نتيجة هذه الرؤوس نفسها ، أو إذا عاقبته فليكن ينقله من الاتحاد الزراعى التعاونى إلى الاتحاد الصناعى التعاونى مع لفت نظره إلى (ضرورة مراعاة ذلك مستقبلا) !

والحق أن هذه ليست أول مرة أرى فيها صورة ، لبطل يناشد الأرض

يمكن أن تضبط حالة رشوة بهذه الطريقة ثابتة المستندات وكأنها جاهزة للتقديم عند الحاجة إليها . أهى سداجة منقطعة النظير من شركة هى بالتأكيد أضخم وأدق شركة لصناعة الطائرات ومحركاتها فى العالم ، أم أن للمسألة وجهاً آخر مختلفاً تماماً فى رأى عن كل هذه المسرحية التى تدور فصولها على مسمع ومرأى من العالم .

ولكى نتبع خيط أحمد يونس وقصة الاتحاد الزراعى التعاونى لا بد أن نبدأ من ووتر جيت .. والحق أن هناك وجهات نظر كثيرة ومختلفة فى حكاية نيكسون ووتر جيت هذه ولكننى أميل إلى الرأى القائل أن الدوائر الصهيونية التى تسيطر على دور الصحف والنشر والتلفزيون والإعلام فى أمريكا لما شعرت بتحليل الرأسمالية الأمريكية الضخمة متمثلة فى الحزب الجمهورى والرئيس السابق نيكسون ورغبتها فى التخلص من المائة فى المائة تأييد لإسرائيل ومعاداة للعرب ، هذا غير الإجراءات الداخلية المتمثلة فى المحاصرة الاقتصادية لوكر الرأسمالية اليهودية فى نيويورك ، أرادت أن تضرب عصفورين بحجر واحد ، أن تلقى درسا رهيبا على كل الرؤساء الذين يفكرون فى (الاستقلال) عن المؤسسة الصهيونية الأمريكية من ناحية ومن ناحية أخرى تنقل مركز اتخاذ القرارات من الرئيس ومجلس الأمن القومى إلى مجلس الشيوخ والسناتورات باعتبار أنهم أكثر قابلية للتأثير عليهم بواسطة الناجحين الذين توجههم وسائل الإعلام المختلفة التى تخضع بالتالى للنفوذ الصهيونى بل إن هذه الدوائر الصهيونية لم يكفها إرهاب الرؤساء على هيئة رأس

الذئب الطائر « نيكسون » وإنما تلفتت إلى أعضاء الكونغرس أنفسهم ترهبهم بالفضائح الشخصية وبالانهايم بالعلاقة بالسكرتيرات بل ودس سكرتيرات جميلات (يوقعن) السناتورات الذين معظمهم فوق الخمسين ويصبحن وسائل ضغط وإرهاب مسلطة على هذا السناتور أو ذاك بحيث من الممكن استخدامها وقت الحاجة .. ووقت الحاجة دائما ما يحىء ، ولا زلنا كلنا يذكر كيف أن الكونغرس الأمريكى هو — وليس فورد — الذى أصر على رفع الإعانة إلى إسرائيل وأجبر الحكومة على رفعها .

ولكن هذا كله ليس المهم فى فضيحة ووتر جيت ، فأخطر من هذا كله أن الفضيحة تحاكم الرئيس ، ومن بعده السناتور أو غيرها . محاكمة أخلاقية فقط .

بمعنى أن الصحافة والرأى العام الأمريكى بدلا من أن يحاسب نيكسون أو غيره على دوره فى فيتنام مثلا أو دوره فى حرب أكتوبر أو دوره فى مذبحه شيل أى دوره — السياسى الأخطر بكثير جدا من أخطائه الأخلاقية أو الشخصية ، يحاكمه على تلك الأخطاء الشخصية فقط . وذلك بهدفين خطيرين جدا : الهدف الأول أن يريء (النظام) السياسى نفسه من أية تهمة سياسية أو أخلاقية . بمعنى أن النظام مضبوط تماما ولا عيب فيه مطلقا إنما العيب هو فى (بعض) الأشخاص وحتى ليس فى بعض الأشخاص — كسياسة أو كسياسين — ولكن فى بعضهم كقطر ضعف أخلاقية فقط — الهدف الثانى أن يخلل هذا النظام الفاسد غطاء راعا براقا ، غطاء ديمقراطيا جميلا حرا ، أو ترهبهم بالفساد الذى

نظام أن يقبل رئيسه ؟ أليس هذا مهر جانا للحرية والديمقراطية وقوة تأثير الرأي العام ووسائل الإعلام ؟ .

وليس إذن (تبرئة) للنظام كله فقط من كل الجرائم والأخطاء السياسية والاقتصادية والإنسانية حتى وإن كان الثمن التضحية بكبش فداء ولو كان رئيسا للدولة أو رئيسا للوزراء ولكنها تبرئة مصحوبة (بزفة) هائلة من باب المحكمة إلى باب البيت حافلة بالرقص الديمقراطي العظيم وإطلاق بالونات الحرية وضرب النار في الهواء أو في بطون الأمهات في بيروت ، آخر مولد للحرية واستنبات هائل لإيمان جديد يتزعزع لنظام هو أعلى ما وصلت إليه البشرية من مستوى في العدالة والحرية .

ومن مميزات النظام الرأسمالي في العالم كله ، وفي الولايات المتحدة بشكل خاص أنه نظام ذكي جدا ، بارع تماما في الاستفادة من أخطائه ومن اكتشافاته .. وهكذا فلم تكن ووتر جيت وسيلة فقط لخلع رئيس بدأت شكيمته الأمريكية القحة تقوى ، وتأديب سناتورات كانوا في طريقهم للتسرد ، وإنما أيضا ، وهذا هو المهم ، كان اكتشافا أمريكيا رائعا جدا ليس فقط لتبرئة النظام في أمريكا ، ولكن لتبرئة الرأسمالية في العالم كله والدفاع عنها .

كانت قضية حدثت دون وعي كامل بأبعادها : ولكن بعد حدوثها ، اكتشف أنها يمكن استعمالها كدواء سريع عاجل وكأحدث صيغة لإطالة عمر الأنظمة الحاكمة المتهرئة الدائرة في الفلك الرأسمالي

المهيمن على عالم اليوم : إن « الووتر جيتية » هي أحدث الطرق لإخفاء عيوب النظام بإظهار عيوب بعض أفرادها .

وهكذا بدأت (فضائح) لوكهيد (تسرب) ، و (تهم) رئيس وزراء هنا وأميرة أو أمير هناك ، وفي سبيل إنقاذ حزب الديمقراطيين الأحرار ونظام الحكم في اليابان ما المانع من الإطاحة بسمعة ورأس السيد تاناكا ؟ .

كنت أفهم أن يقوم مجلس الشعب ولا يقعد لأنه يناقش ليس فقط سياسة الاتحاد الزراعي التعاوني ولكن يناقش لماذا قام وماذا يفعل وماذا فعل للفلاحين أو للمزارعين أو لحركة التعاون في مصر ؟ . أما أن يقوم مجلس الشعب ليناقد إهداء عربية شيفروليه لرئيس مجلس الشعب الأسبق أو غير هذا من التصرفات فصحيح أنه عمل خطير كان المقروض أن تقوم به النيابة العامة ومن زمن بعيد — وهذه هي الشطارة أو الحق أو العدل إن كان هناك وجود للشطارة أو الحق أو العدل ، ولكن دور مجلس الشعب أن يناقش « ماهية » الأشياء وسياساتها ودورها وفاعليتها ، أن يناقش نفسه حتى والنظام الذي يسمح لأعضائه أن يتقاضوا مكافآت من زملائهم الذين يتحملون مسؤوليات في الدولة ويزاملونهم .. كنت أفهم أن نقوم جميعا لتناقش الأسباب التي تؤدي في المجتمعات إلى أن يفرخ أمثال أحمد يونس والمغربى والمئات ، وسيظل يفرخ أمثالهم وربما من هم أكثر جشعا وخراب ذمة .

Looloo

www.dvd4arab.com

لبنان هو البداية ..

وبعد ..

هذا هو لبنان قد قسم أو هو في الطريق ، ومع هذا لا تزال الدماء وبوغورة تسيل .. هاهم المسيحيون سيستقلون (بإسرائيل) المارونية الجديدة ، وها هم المسلمون سيستقلون (بإسرائيل) السنة الشيعية الدرزية الجديدة .. فهل هذه هي النهاية ؟ وهل ستكف الحرب مستقبلا بين المارون والأرثوذكس ، وبين اللبنانيين المسلمين والفلسطينيين ، وبين السنة والشيعية والدروز — وهل إذا كتف الحرب في لبنان ستكف في مسقط أو عمان أو الصحراء أو السودان ؟

أما آن الأوان أن نفيق قليلا أو نرفع رؤوسنا الممتلئة خدرا وحربا وطموحات وأحقادا وأدراننا وتساءل : أليس هناك طريق آخر ؟ إن لبنان قد يبدو النهاية ولكن الحقيقة المرة أنه ليس سوى البداية والطريق أكثر وعورة مما قد يتصوره بعض حسنى النية . بل لا أبالغ إذا قلت إن المشكلة الفلسطينية برمتها ، مشكلة اغتصاب قطعة من قلب الأمة العربية والاستعداد للزحف على بقية الأجزاء أيضا ليست سوى مقدمة متواضعة لما ستمخض عنه الأيام .

أعتقد أنه قد آن الأوان لرفع رؤوسنا الخجأة ونجابه بعض الحقائق ، أولا : حقيقة ما تكشف لنا وللعالم كله الآن ، أننا شعب عربى كبير هذا صحيح ، ولكننا فكريا أفقر الشعوب ومع هذا فنحن نعيش فوق أغنى كنز اكتشفته البشرية في كل تاريخها القريب والبعيد .. نحن أفقر الناس نجيا فوق أغنى أرض ، وليس القياس فقط بالقيمة النقدية لهذا الكنز إنما

القياس بأهمية هذا الكنز ليس للبشرية قاطبة وإنما بالذات للنظام الغربى في العالم كله ، وللصراع القائم بينه وبين النظام الشرقى ، إذ هو كنز الطاقة التى تحرك حضارة العصر الحديث بأكملها . وأنا لو كنت من أمريكا لما حفلت باستعمار العالم عسكريا أو بشن حروب ، يكفى أن أحتكر ثلاثة أشياء تجعل العالم كله يركع تحت أقدامى : القمح أى الخبز أملك سوقه وحق منعه أو إعطائه ، والطاقة أملك حق تخزينها أو توزيعها وتحديد سعرها واستهلاكها ، والتكنولوجيا وبالذات أسرارها العليا . إن من يملك هذه الأشياء الثلاثة يحكم العالم كله وتأنيه أغنى دولة شيوعية أو معادية خاضعة أو متقربة ومن بين هذه الثلاث تلعب الطاقة الدور الأول . فهي التى تزرع القمح وتسير التكنولوجيا وترسل فايكنج إلى المريخ . والطاقة نجيا فوقها العرب ولكى يمكن الاستيلاء على الكنز والتحكم فيه لا بد أولا من الاستيلاء على هؤلاء العرب .. ثانيا : ثبت أن الاستيلاء على هؤلاء العرب مسألة أسهل بكثير من اغتصاب فلسطين أو تحويل إسرائيل إلى ثكنة عسكرية أمريكية تعتبر حاملة طائرات وديابات أرضية هي — ومعها الأسطول السادس البحرى — كفيلان (بإخضاع) هذا الشعب الراقد فوق أثمن كنز .. جربت السياسة الأمريكية منطلق القوة العاشمة هذا خلال الخمسينات والستينات فكانت النتيجة نوعا من التماسك العربى الذى كاد يؤدى إلى وحدة عربية وعسكرية على الأقل — كانت في سبيلها لأن تصبح وحدة سياسية — وصحيح انتهت هذه السياسة بانتصار ٦٧ وهزيمة عبد الناصر .. هذه القوة العربية الصاعدة ، ولكن الهزيمة لم تفرق العرب واليهود عن بعضهم

الخرطوم وكاد التضامن العربى بعد الهزيمة يؤدى إلى كارثة .
من أجل هذا كان لا بد أن يغير الغرب سياسته و يأق بالكيينسجرية
لتفتح ملفات المنطقة — قديمها وحديثها — وبالذات الملفات الإنجليزية
وتفحصها بعناية فائقة وما أروع ما وجدت الكييسجرية ..
نالتها : وجدت السياسة الأمريكية غريبة الجديدة أن لا وجود لشيء
كبير اسمه أمة العرب طالما صدرت باسمه الصيحات من صوت العرب ،
إنما وجدت منطقة موبوءة بالقطرية والعشائرية والقبلية والتناحر الدينى
والطائفى والعرفى ، وجدت عشرات ومئات وآلاف من الحزازات
الكبيرة والصغيرة أحجبتها كلها حتى بلغت درجة الجحيم صرخة الثورة
السوداء المتفجرة من باطن الأرض ، وبمعكس ما فعله الإسلام حين هبط
من السماء يوجه العرب وينبى حضارة عربية عظمت ، ها هو البترول
يفعل ما يفعله الشيطان ويتفجر من باطن الأرض ليشنت ويفرق ويخلق
دولا فى أشد الثراء وثوراها فى أبهى قلة ، ودولا فى أشد الفقر وفقرها
ملك للكثرة ، وليضيف إلى الصراع الطائفى والعشائرى والقطرى
والفتوى صراعا طبقيا ليس فقط بين الطبقات فى البلد الواحد ، ولكن
بين الطبقات من دول المنطقة ، صراع طبقي بين الدول والشعوب وبين
الشعب الواحد ، بل حتى بين أفراد القبيلة أو القرية الواحدة .
رابعها : ما ضرورة الترسنات المسلحة إذن والأساطيل الأرضية
والعائمة إذا كانت النار موقدة وتحت الرماد وإذا كان عود الكبريت
الواحد كفيلا بإشعال حرب يقتل فيها من العرب أضعاف ما يمكن أن
تقتله إسرائيل أو غير إسرائيل ؟ (العرب) بأنفسهم عندهم الحل ،

وخلافاتهم وحزازاتهم كقنبلة تنضج الكنز تماما قبل أن يفرغوا هم من
خلافاتهم التى امتدت من أيام الجاهلية إلى عصرنا الحاضر .
خامسها : وحتى لا تحدث الكارثة ويقي مال العرب فى أيدي
العرب وفى بلاد العرب فلنصور لهم أن بإمكانهم أن (يشتروا) الغرب ،
أى يصبحوا من أغنياء الدول الرأسمالية الثابتة غير المهتدة بخلافات
وحروب ومصادرات وتأميمات بلاد عربية غير مستقرة .. صحيح أنه
بمجرد شراء (نظرى) مقابل أوراق نقد مودعة فى بنوكنا نتحكم نحن فى
قيمتها ، بل حتى فى قيمة رصيدها من الذهب (خسر العرب حوالى
خمسمائة مليون دولار نتيجة التخفيض الأخير فى سعر الذهب) ولكن
المال لا يزال مالنا ، والمؤسسات — رغم شرائها — مؤسساتنا ، والمهم
أن تبقى النقود بعيدة تماما عن (الأرض) العربية ، وعن (المؤسسات)
العربية ، وعن كل ما يساهم فى جعل بلاد العرب للعرب حتى لو
أصبحت وقفا على الأغنياء العرب .
سادسها : إن تجربة لبنان أثبتت أن عداء العربى للعربى لا يزال أقوى
من عداؤه لأعداء العرب ، فلنستثمر هذه التجربة ولأبعد مدى ولننتشر
عدواها من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب ، وإنما حذار من
حريق كبير يحتاج المنطقة كلها ، فلتكن الجرعات منتقاة بعناية وبدقة ،
وليكن كل حريق موقوف بحيث لا يحترق الكنز ، وإنما ينشغل (أهل)
الكنز ، بكل حريق ينشأ ويخلفون ، ويتبادلون التهم ، ويتعقدون
وينفضون ، ويدب غيهم اليأس من عروبهم نفسها وينفتنون إلى الخلاص
الفردى ، كل غنى يفكر بالهجرة بأمواله إلى الخارج ، كل تكتوى فراطى

يفكر في العمل في بلد (متحضر) : فليستنزف المال والذكاء والبترو
ولنبق لهم الصحراء والحزازات والفقر يتناحرون حولها :

وبعد ١٩

يا مفكرى العالم العربى . .

يا شبابه ..

يا عقلاءه — إن كان قد تبقى عاقل .

ولا أقول أبدا يا حكوماته ..

أرجوكم ..

اعقدوا مؤتمرا — وفورا — لتندارك الجهنم التى نحيها والجهنم

الأكبر التى تجهز لنا ..

وما أدراك

ما القلق أستطيع إن أقول إني كنت ، زمان ، أعانى من مريض
الاكتئاب .. ذلك لأن الخاصية المضحكة المساوية للاكتئاب أنك ،
الشخص الذى يبدأ يعانى منه ، لا يحس ذلك ، وإنما يغوص فى حالته دون
أن يدري ..

والاكتئاب ليس هو (الزعل) كما هو شائع ومعروف عنه ، ليس هو
الميل للحزن والوحدة .. الخ . وإن كانت هذه بعض (أعراضه) .
الاكتئاب علميا هو نوع من أمراض (القلق) النفسى ، ويحدث كرد
فعل لآواع المشاكل عقلية ونفسية . عقلانية وغير عقلانية .. وأنا حين
كنت مضابا بالاكتئاب كان الأطباء حين يذكرون هذا لى لا أجد
لكلامهم معنى أو صدق فى نفسى ، فقد كنت (داخل) الحالة ومن
يكون داخلها لا يستطيع أن يعرف لحالته سببا ، بل هو لا يدرك أصلا أنه
غير طبيعى ، كل ما فى الأمر ، أنه ، بعد أن يشفى يحس أنه فعلا كان دائما
متوتر الأعصاب ، يزدرد وكأنا رغما عنه الطعام والشراب ، ويتجرع
الحياة اليومية بمرارة ، يقوم ولا رغبة لديه أن يقوم من نومه ، فاتر الهمة تجاه
كل شيء . الهدف ، هدفه اليومي ، وهدف حياته أصلا غير واضح
مطلقا أمام عينيه ، يتخبط ، تارة تعتريه حالة من الموحش الكهيب المبالغ
فيه ، وأحيانا يئسى وكأنه حالا فقد أبويه وأصبح طفلا يتيمًا محاطا

بالظلام الكامل . أحيانا أخرى تعتريه نوبة تمرد هائلة وفعلا ، كالسجين المحاصر حين يحاول الفرار ، يتمرد ، ويرتكب حماقات ، ويشبع نفسه بكمية حقد مفاجئة على شخص ما أو وضع ما ، وكأنه هو السبب في كل متاعبه . حالات تمرد ومحاولات لإخراج الطاقة العدوانية الكامنة في كل البشر ، والتي تتحول عند الأوصياء الأسوياء ، إلى طاقة إبداع مثلا أو قهر عاقل للظروف المعروفة أو الأشخاص المعوقين ، أو طموح زائد للوصول إلى مراتب أعلى ، تخرج عنده على هيئة طاقة طفولية محطمة تخربش وتجرح وتبرح بطون الكراسي وأحيانا بطون الناس .

أعراض كثيرة كثيرة لا حصر لها ، وتأخذ عند كل إنسان طابعا خاصا به نتيجة ظروفه وتكوينه وشخصيته . ولكن دائما هناك علامات مشتركة لدى المصابين بالاكئاب . خاصة ذلك الإحساس الباطني الممض الذي وصفه علماء النفس بقولهم إن الشخص المكتئب يصبح هدفه اللاواعي وكأنه يريد أن ينكبش على نفسه ويتحول إلى جنين يعود من حيث أتى إلى رحم أمه . أو باختصار أدق ، يريد العودة إلى العدم الذي خرج منه ، الموت .

جريت كل الأطباء ، هنا وفي الخارج ، وكل عقاقير الدنيا أخذتها ، ولم أشف .. ذلك لأن الحالة كانت أكبر مني وكان الجزء الأكبر منها راجعا إلى القلق العام على مصيرنا ، فكأنه ، القلق بلا حل سريع يحدث في حياتي وأراه . القلق بلا مخرج .

ولم أكن أعرف أن عقلي العميق جدا يعمل في اتجاه آخر ، يريد الموت ويطلبه ، حتى أتى كثيرا ما حلمت به ، يأتي رقيقا جميلا كالخلم

المفهاف ، أحسن بروحي تنسحب من الجسد وكأنها قوس كان تعزف بانسحابها ذيل لحن موسيقي وديع جدا ، محب تماما ، يرغب لك أن تنتظر النهاية ، نهايته ونهايتك ونهاية الحالة كلها والحصار ، يشغف غير متعجل ولكنه أيضا يستعجل .

وهكذا كان لا بد أن تؤدي بي هذه الرغبة الدفينة إلى أن أواجه الموت الحقيقي ذات مرة ، ليس مرة واحدة فقط ، إنما عدة مرات ، قد أكتبها وتكون قصة ، وقد لأفعل أبدا ، ففارق كبير بين أن تراه حلما يبيته لك عقل عميق أحمق ، وبين أن تواجهه واقعا مخيفا ، أشنع ما فيه أنه صامت ، لا صخب فيه ولا ضجة ، كالمؤامرات ، الحياة تمهد ، تحس بها تنطفئ ، ذبالة عقلك تدرك هذا ، ومرعوب أنت إلى النخاع ، ولا تملك شيئا ، من شدة رعبك تنسى حتى من أنت ، وما النهاية ، وتصبح النهاية والموت والرغبات الدفينة أشياء تكرهها إلى درجة تخاف معها أن تموت من شدة ما يضح به جسدك من كره .

وكأنما كانت تلك المواجهة محكمة لا يعلمها إلا هو فقد قرب مني تماما ليرعيني إلى درجة أن ارتد محيا إلى الحياة بأقوى وأعظم ما أستطيع . كانت حرارة اللقاء كقيلة بإذابة أى صلب وأى ماس وأى اكتئاب ، كقيلة بإشفاء أى قلق واختلاعه من جذوره .

وهكذا ولدت من جديد ، بلا قلق أو اكتئاب .

ولكنه علاج رهيب ، لا أراه الله لأحد ، فأى مرض في العالم أفضل منه ، بالطبع أفضل من الموت ، ولكم الحق أن تجروا اكتئابكم فأنتم لم تروه ، واحذروا ، فأشنع ما فيه هو الغدر ، وهذا ما في الأوتار بروج ،

وحتى لا يعطينا الوقت لتبين ملامحه .
ولكن ..

ما هذا الحديث الكئيب عن الموت والقلق والاكتئاب .

سببه في الواقع أنى بدأت أفرع من ظاهرة الاكتئاب الجماعى المصابة بها قطاعات كبيرة من طبقاتنا المتوسطة والعامة .

وأيضاً لا يزال السؤال الذى طرحته ذات مرة عن إمكانية وجود هذا النوع من المرض الجماعى معلقاً في انتظار إجابات الدكاترة علماء النفس وعلماء الاجتماع . ولكن ما أعرفه بدقة أن تسعة من عشرة من العلماء الذين ألقاهم في قاهرتنا الحبيبة ، السائرين على أقدامهم أو فوق دراجات أو شاحنات أو عربات ، البائعين والبائعات الشارين والشاريسات ، معظمهم يعانون من حالة قلق داخلي إذا كان البعض يدركونه بوعى فالأغلبية العظمى لا تعيه ، تعاني من أعراض فقط دون أن تدرك لها سبباً ، تعاني سواء أرادت أو لم ترد ، بل حتى تعاني رغم محاولاتها المستميتة ألا تعاني .

وللقلق في حياتنا قصة .

كنا نحيا في ظل أوضاع قد بدأت إلى حد ما تستقر منذ أوائل الستينات إلى هزيمة ٦٧ . على المستوى الشخصى كانت معظم الفئات قد اطمأنت إلى أنها غير مهددة في القريب العاجل على الأقل بكموارث من أمثال الفصل أو فقدان الدخل الاقتصادى . صحيح أن الدخول قليلة ولكن هناك الارتكان الدائم إلى الدولة وقد تحدد النشاط الخاص إلى حد كبير وأصبحنا كلنا عمالاً وفلاحين ومثقفين وموظفين بطريقة أو بأخرى ،

نقبض آخر الشهر أو آخر الموسم أو أواخر العام ، بينما الدولة تمر بكل مراحل تطور تجربة الملكية العامة ، من بيروقراطية إلى حكومية إلى توكيلية ، إلى آخر هذه الأمراض .

وفجأة هزمتنا هزيمة منكرة مدبرة عام ١٩٦٧ .

وفي يوم ليلة تبدى لنا ما كنا نرتكن إليه ليس دولة كبيرة سترعانا ونحمينا ، ولكن ، وكأنما كنا نرتكن إلى حائط مائل سقط جيشه تماماً في ساعات ، وحياته كلها أصبحت مهددة بالسقوط .

من هنا فجزء كبير من فجيعتنا فاطرية وأصابتنا وكأننا جميعاً بحالة الإحباط والاكتئاب بعدها ، ليس سببه فقط الخدش الكبير الذى حدث كأمة ، وإنما سببه الأعمق في الحقيقة راجع إلى أننا كلنا بدأت عقولنا الواعية والباطنة والأبطن (تقلق) ، أى تنظر إلى المستقبل بعين متوجسة غير مطمئنة ، بحيث لم يعد أحد منا متأكداً ليس فقط من وضعه في المستقبل وإنما حتى إلى وضعه آنذاك ، وهكذا بدأت لدينا كمجتمع حالة الاكتئاب الجماعى بحيث في داخلنا مضى يترام العلقم ، سنة وحقبة إثر حقبة .

وقد حاول جمال عبد الناصر نفسه الخروج من هذه الحالة ليبدأ مرحلة مقاومة انتهت إلى ما سمي آنذاك بحرب الاستنزاف ، ورغم البطولات الفردية العظيمة التى بذلت في تلك الحرب ، إلا أن نتيجتها كانت عكسية تماماً فالتهريب المنعقد لمدن القناة وتهجير مئات الآلاف وضرب المصانع والمدارس والكبارى والمنشآت كان وكأنما يفعل على الدولة ليؤكد لنا أن قلقنا الرهيب في محله بل لا بد بمرور الأيام أن يرقبنا

وفعلا كان قلقنا بمرور الأيام يزداد .
خاصة بعد ما حدث للمقاومة ، رمز الأمل ، في الأردن .
ومات عبد الناصر الخالد من شدة اكتابه .
وكان حزننا التاريخي عليه الذي لم يحدث له مثيل ، ليس حزن شعب
فقد زعيما ، ولكنه حزن مكثبين يودعون آخر أملهم في الخروج والحياة
والانتصار على الهزيمة والقضاء على القلق ، وأن يعود أصحابه .
وهكذا حين جاء اليوم الموعود ، أفرغنا علقمنا الممغن المتراكم سما
زعافا في جسد العدو وتحصيناته وقواته .
ذلك أن أحد طرق الخروج من القلق ومن الاكتئاب أن تحدد عدوك
وسبب قلقك وتسحقه .
وقد فعلنا لأيام .
شفيينا فيها جميعا وعدنا أطفال الحياة ، نضحك ، ونتكاتف ،
ونتخادم ، عادت الشهامة ، والبطولة والتضحية ، عدنا أصحابا .
ولكن كان من المحم ألا يدوم هذا .
وكان من المحم أن تكتفينا القوتان الأعظم من جديد ، تكتف حركتنا
تجاه العدو .
ولكننا لم نبأس ، قلنا نعالج أساسا سبب نكسة عام ٦٧ ، نعالج الدولة
والعلاقة بين الثورة والمواطن ، باعتبار أن سبب النكسة أن هذه العلاقة
كانت علاقة قهرية أكثر منها علاقة ثورية ، وكانت علاقة كبت أكثر منها
علاقة انطلاق وتحرر .
ثم أن الأزمة الاقتصادية ، خاصة بعد الحرب ، ازدادت تفاقما .

وعاد القلق على المستقبل من جديد .
ولكن هذه المرة لم يأخذ شكل القلق الجماعي السوى الذي كان
السبب في نصر أكتوبر ، إنما أخذ شكل الخلاص الفردي .
والحقيقة أن الطبقات المتوسطة والكادحة هي التي تعاني أكثر من
عبء أى أزمة اقتصادية . ذلك أن السباق الطبقي الرهيب يتحول إلى
عملية دفاع رهيبة هي الأخرى عن النفس ، فالكادحون يفكرون دائما
ويحلمون أنهم يوما ما سيصلون إلى مستوى الدخل المتوسط المكفول ،
أو من يدري ، ربما الأغنى ، والمتوسطون يلهمهم دائما سوطان سوط
الطموح إلى أن يكونوا أغنى ويطمئنون على مستقبلهم تماما ، وسوط
الخوف المرعب أن ينحدروا مرة أخرى إلى طبقات الكادحين ، ويصبح
الموظف عاملا ، والعامل متعللا ، والبقال صبيا في محل بقالة .
هنا يعود القلق زاحفا ورهيبا ، فهو لم يعد قلقا فقط على المستقبل ،
أصبح معظمه قلقا على الحاضر . وكيف لا وأنا لا أركب تاكسيلا ولا نادرا
ما أجد سائقا ، سائقا فعلا ، وإنما أجد مدرسا ، أو معيدا في جامعة ،
أو أحيانا حتى ضابط شرطة . كيف لا وهاهو ذا لكى يظل محتفظا
بالمستوى المتوسط الذى هو فيه يعمل ، وفعلا عاملا ، والأزمة تزداد ،
وينشق الناس ، وكأنه يوم القيامة ، والخلاص بأى ثمن ، بشقة
مفروشة ، بما هو أفدح ، ولتسقط أى قيمة ، فماذا بعد أن أسقط أنا من
الطابق الثانى حيث أقطن إلى بدروم الحياة وقاعها ، ولينج بجلده من سرق
أو اختلس أو حلب أو نهب أو باع أو سمس ، لينج بجلده من سرق
فقط إذ يكون قد فقد كل قيمة وكل ما يجعله يحتجها ، حتى لا ينفق نفسه .

أثناء عملية (الخلاص) تلك .

إني أبتسم وأنا أقرأ كثيراً من أسماء المرشحين في الانتخابات وشعاراتهم ، وكأن كثيراً منهم لا يخوضها انتخابات سياسية يريد أن يمثل بها مواطنين أو اتجاهات وإنما وكأنه يخوضها انتخابات اقتصادية يريد أن يجمع بها أصوات الناخبين ليتاجر بها بعد هذا تحسينا لمركزه الاقتصادي هو أولاً أو مركزه السياسي تمهيدا لتحسين مركزه الاقتصادي وهلم جرا .

نعم هناك أزمة اقتصادية .

ولكن هذه المواجهة الفردية المطلقة ، هذا السباق الرهيب أن تصعد فوق أكتاف الغير ، أن تترك ، أن تسب حتى وتشاجر وتدوس ، هذا الرعب الجنوني أن يرفع الكرسي الخيزران من تحتك وتسقط كادحا من جديد وراء كل ما نلمحه في شارعنا من مظاهر التمرد والفوضى والقذارة ، وراء كل ما هو سائد على أفواهنا من كلمات متداولة ، ومسرحيات وأفلام منحطة تهدم كل قيمة وتخدر المواجه الشريفة والكرامية ، ففي سباق كهذا أنت محتاج أن تبذل تماما ولا يذكرك أحد بمبدأ أو بقيمة بالتعاطف أو الجنان أو إنكار الذات ، بالنضحية أو العيب ، في حاجة أن تنسى تماما أنك إنسان ، فأنت تريد أن تكون مجرد متسابق لا يعطله عن الصعود طيف أو مبدأ من كرامة .

أعتقد أن ذلك الحل الفردي لن يصلح أبدا .

في بلد نام كبلدنا وفي ظروف كظروفنا ، وفي نظام للتعليم يحيل كل عام مئات الآلاف إلى أصحاب مؤهلات متوسطين ، أي يأخذ من

الكادحين ويصب في طبقة متوسطة مختلفة بالازدحام والتباغض ، في ظل موارد محدودة ، وقدرة على الاستدانة ستنقل دائما محدودة ، في ظل أحلام لن يتحقق ٩٩٪ منها ، إذ من سيغتنى سيكون واحدا من الألف ربما ، والباقيون إما كما هم وإما إلى (انحدر) . في ظل كل هذا وما هو أكثر ، القلق الفردي أو الحل الفردي لا يمكن أن يؤدي إلا إلى حياة كاهلاك .

نعم هناك أزمة ...

ليست فقط أزمة اقتصادية ، ولكن ما هو أهم .. إنها أزمة قلق اقتصادي رهيب يحتاج معظم أفراد مجتمعتنا .

حتى الأطفال بدأت العدوى تسرب إليهم وتسأل الولد أو البنت من هؤلاء ؟ .. ماذا تريد أن تفعل — وهو يدوبك خمس سنوات ، يقول : أريد أن أكون مهندسا أو طبيباً .

مع أن الأطفال دائما يفكرون أن يروا بلاد العجائب أو يعزفوا الموسيقى أو يرقصوا أو يغنوا .

ولكن حتى غناء أطفالنا ، ألقى عليه القلق الاقتصادي .

أناس حولنا في بلادنا العربية يعانون من قلق ازدياد الثروة المفاجيء فيلجأون كالفئتين إلى الغرائز .

ونحن نلجأ إلى الغرائز أيضا ، ليست غرائز الجنس أو الملذات ، ولكنها الغرائز الأقل ، غرائز الدفاع عن الوجود ذاته ، إن ذلك الوجود يهدده القلق الاقتصادي الرهيب .

ألا تريدون أن نفتش معا عن مخرج أو حل ؟ ذلك أن الاستسلام إلى حالة ذلك النوع من القلق أولا لن يحل أزمتنا الاقتصادية ولا النفسية ، بالعكس ، سيؤدي إلى المزيد منها والمزيد ، وإذا كان السباق ضروري فالنتيجة سقوط جماعي .

فأهم رأس مال عندنا هو الإنسان .
ولا بد أولا من إنقاذه .

دكتاتورية العدالة

لكي يرفع الإنسان رأسه عن أكوام ما تحفل به الرسائل والأقوال والجلسات الخاصة والحياة اليومية والسنوية ! التي تبدو سمرمية ، لكي يقول الإنسان لنفسه في النهاية : وبعد ؟ ما الحل ؟

كثيرا ما أشبه حياتنا بعربة كانت مندفعة بسرعة غير مضبوطة على الطريق وكان لا بد ، شئنا أم أبينا ، أن يحدث للعربة حادث وأن تصطدم بلورى أو فنتاس أو حتى بعربة كارو ، وكان مفروضا بعد ما وقع الحادث ، وذهب ضحيته من ذهب ، أن يهبط الركاب الباقون ، بما فيهم النساء ، وأن يدفعوا العربة المصابة إلى أقرب ورشة ، وأن يتولوا إصلاحها جميعا لكي تعود وتمضى على الطريق .

ولكن ما حدث أنهم وقفوا حولها ، منتظرين معجزة أن تنصلح العربة من تلقاء نفسها ، ولما طال بها الانتظار ، وفرغ الصبر ، بدأ كل منهم يسعى إلى خلاصه المفرد ، ويأخذ له قطعة غيار أو صامولة ، أو حتى يخلع عجلة القيادة ، ويمضى بها إلى أقرب تاجر مسروقات ، ليبيعها ، وبشئنا يمتطي أى شيء ، وينجو .. ويبقى من لم يستطع أن يسرق .. ومن لم يستطع أن يخلع ، ومن عجز بشرفه أو بصدقه أو بغيائه عن أن يترك قومه الركاب ، ويمضى ناجيا بنفسه ، وتبقى معه ومعه العربة وفقد أصبحت كومة من الحديد الخردة ..

ونعود نرفع رأسنا من فوق المنظر المجمع ونقول : ما الحل ؟
أعتقد أنى لأقولها الآن وحدى ، فكل منا ، بما فينا من أطفال حتى ،
وفى كل وقت ، ولدى كل مشكلة تثار ، ودائما المشاكل وفى كل آن
تثار ، يسأل نفسه ، وبعد ؟ ما الحل ؟

ليت المشكلة يمين أو وسط أو يسار .. ليتها سياسة فقط أو أخلاقية
فقط أو اقتصادية أو تربوية أو توزيعية أو ذميمة أو قلة ذمة فقط ، ليتها
الإسلام (المفترى عليه) أو الماركسية (بسم الله الرحمن الرحيم) أو
الحرية والليبرالية ، أو هذه القذائف الجوفاء الطنانة التى تشبه صواريخ
الأطفال تنطلق فى كل اتجاه ومن كل اتجاه .. وتجعل من سماء حياتنا
(كرنفالا) لا مثيل له من الألوان والأقوال والفنون والحكم والشعارات
والشعارات ضد الشعارات ..

ليت هذه كلها كانت المشكلة ، إذن — رغم صعوبتها — هان
الأمر .. فلو عرفنا المشكلة ، أو حتى مئات وآلاف المشاكل لقطعنا
الطريق إلى ثلاثة أرباع الحل .

فلنتلفت حولنا أيها الناس نبحث ، لنفوص فى أعماق التاريخ البعيد
والقريب تاريخنا وتاريخ غربنا نتلمس ونستدل ، لنعمل كل ما تبقى لنا من
عقل ، وكل ما لدينا من علم وفراسة ، وفناكة ، حتى يمكن أن نتحرك ،
ومستحيل أن نظل واقفين بجوار العربة الخردة ..

لقد حدث مرة أن هبنا فى يوم وليلة ودفعنا العربة دفعة قوية جبارة ،
قطعت من جرائها شوطا مهولا ، ولكنها لم تلبث أن توقفت لماذا اندفعت ..
ولماذا عادت تتوقف .. وما السبيل إلى أن ندفعها مرة أخرى لتظل تمضى

وتمضى دون توقف ؟ ..

لقد قرأنا كلاما جميلا كتبه زملاء الذين زاروا الصين (الشيوعية
جدا من فضلك) .. وهى بلاد تمت مثلنا إلى العالم الثالث ، بل ووقعت
قبلنا فى خصام رهيب مع السوفييت ولا تزال واقعة .. ولكنها لا تكفى
بلعن السوفييت وإلقاء اللوم فى كل شيء عليهم ويتوقف واجبا عند هذا
كما نفعل نحن ، مثلما فعلنا ذات يوم ظلمنا نلن أمريكا والاستعمار ..
وتوقف أيضا عند هذا ، إنما كانت تجربة قطع العلاقات الاقتصادية
والعسكرية ، وتقريبا السياسية ، مع السوفييت (حافزا) قويا جدا لهم
كى يبقوا على أرجلهم هم ثم يمضون فى السباق الرهيب مع الزمن ، بل
ومع السوفييت أنفسهم .

المقالات الجميلة المروعة بتجربة الصين .. كان ينقصها — فى
رأى — أن يكشف لنا أحد الزملاء عن سر هذه المعجزة التى حدثت
هناك ، فقد بدأ الحديث كما لو أن المعجزة حدثت من تلقاء نفسها ،
أو كان الشعب هناك صحا ذات يوم فوجد المجتمع كله يتحرك إلى
الأمام .

فى الهند أيضا ياما قرأنا عن أنديرا غاندى وتجربة الهند (الديمقراطية
جدا من فضلك) .. والآن هذا هو علمها يصل إلى القنبلة الرادعة
الرهية وهذا هو فدان قمحها يصل إلى أربعة أضعاف ما ينتجه فدان
قمحنا ، وهذه هى محاسنها تعمل ضد رئيسة الوزراء نفسها أحيانا .

ولكن دائما ، مع الحق ، وتحذل أعداء المسيرة الهندية العظيمة
هذه نماذج من العالم الثالث حولنا ، نماذج

وأيضاً في تاريخنا الإسلامي القديم .. كنا ننهض ونتحرك أولئك السادة الغيورين تماماً على إسلامنا .. المطالبين بعودتنا إلى أمجادهم ، أو عودة أمجادهم إلينا ، لا يقولون لنا ، مثل هؤلاء الذين ذهبوا وذهبنا معهم نطلب العلم ولو في الصين ، لماذا .. لماذا جاءت فترة على الحكم الإسلامي ، كان فيها عظيماً ومجيداً ودافعاً إلى أقصى أمام محدثاً في الفكر وفي الحياة تلك الثورة التي للأسف أوقفناها نحن بأيدينا وأخذها منا العالم الأوربي المسيحي ومضى يطورها إلى أن سبقنا بها وسبق الزمن .. فما نشاهدة الآن من حضارة أوربية شاملة ليس في الحقيقة إلا امتداداً لإسلامنا العظيم الأول .. الامتداد الحقيقي لإسلامنا — فإسلامنا اليوم ليس إلا امتداداً لإسلام توقف وتجمد منذ عصر المأمون .

في الحق منهما نظرنا حولنا .. وامتطينا تاريخنا .. وغصنا بأبصارنا إلى داخل نفوسنا .. سنجد أن السر الوحيد لما حولنا ولما كناه من حركة ، والسر الوحيد لهمومنا الآن وتخلفتنا ، السر الأوجد ، يكمن في كلمة واحدة هي (العدالة) .. إن العدالة هي حلم الإنسان القديم ، منذ الفلاح القصيح وإلى الآن ، الحلم الذي حاولت ديمقراطية الإغريق تحقيقه ، وكلما تحقق بعضه كان المجتمع يقفز إلى الأمام ، الحلم الذي حاولت اليهودية والمسيحية تحقيقه وكلما قاربه كان الإنسان القديم يقفز لتخلف الواعد ويتقدم إلى الأمام ، الحلم الذي جاء الإسلام في عهوده الأولى يطبقه بمثابة شكلت القوة الدافعة الرهيبة لبناء كل ما تلا هذا من حضارة إسلامية .. الحلم الذي ثار من أجله لوثر على الكنيسة وأنشأ البروتستنتية ، الحلم الذي راود الفلاسفة من أيام أفلاطون إلى كارل

ماركس وأنجلز وحتى قانون وماركوز .. العدالة .. ليست كما هجناها نحن واقتصرنا على تسميتها بالعدالة الاجتماعية .. وإنما العدالة — في كل أشكالها وصورها — عدالة النقود وعدالة السلطة والنفوذ ، عدالة الريف والمدينة ، عدالة الحي والشارع والحارة ، عدالة الكيان البشري المحترم مهما كان عمله أو لونه أو جنسه أو دينه ، عدالة الذنب إذا أذنب ، والعقاب إذا عوقبت ، والقانون إذا ساد القانون .. باختصار دكتاتورية العدالة في كافة صور الحياة وأنواعها وأشكالها ، إن حلم إمامنا الكبير محمد عبده بالمستبد العادل ، كان حلماً خيالياً تماماً ، فمادام المستبد إنساناً أو الإنسان مستبداً فلن يكون أبداً عادلاً ، إنما العدل يأتي من (استبداد القانون) أو المسئول أو حتى الحزب ، استبداد القاعدة وتطبيقها بلا أي استثناء ، بل كلما كبر المطبقة عليه يكون التطبيق أقسى وأمر .. دكتاتورية العدل واستبداده بأي مجتمع هي وحدها الحرية ولا حرية سواها .

ومشكلتنا في الحقيقة ، هي أننا لا نملك ذلك القانون المستبد الواحد .. الذي يطبق على الناس جميعاً من أول مسئول إلى آخر الرعية ، بل بالذات أول مسئول ، لا نملك ذلك القانون المستبد الواحد وإنما نملك ألفاً .. بل مليون قانون .. وطوال النهار نفصل ونتحايل ونعدل في كافة القوانين والدساتير والنظم والأصول .. بعدد ما نحن فيه من طبقات وفئات وتفاوت سلطات واستبداد سلطات بسلطات ..

وفي الصين عدالة الزى الواحد والطعام الواحد .. وسيلة المواصفات الواحدة ، وقاعدة السكن الواحدة ، قد لا يكون لها نصيب في

السلطة .. ولكن من قال إن الصين وصلت إلى المجتمع الأمثل .. في الهند عدالة ، صحيح ليست كعدالة الصين ، ولكن هناك على الأقل ذلك الحد الأدنى من العدالة ، ليست المكتوبة في الكتب والندساتير وبسراج الأحزاب ، ولكن العدالة المرئية والمسموعة والمشاهدة يوميا ، والمطبقة أولا على رئيسة الوزراء .

فالقاعدة في دكتاتورية العدالة هي ضرب المثل فهي ليست عدالة يصدرها الحاكم لتطبيق على المحكوم فقط .. ولكنها العدالة تطبيق أولا على الحاكم وأمام عين وأذن المحكوم ليؤمن أنه في الإمكان بعد هذا أن تطبق عليه ..

وهذا السبب الذي نشكو منه أو كففنا ويشنا حتى من الشكوى منه ، هذه اللامبالاة ، هذا الإحساس الممض الرهيب أن البلد ليست بلدك ، وأنتك آخر المسؤولين عنها ، سببه أن بعضهم يركب السيارة .. يسابق بها الریح ، ويعيش ويتسلط كأوناسيس ونابليون ، بينما أنت ماركون في انتظار أوتوبيسك المفردة موضوع بين نارين ، إما أن تبقى نظيفا جائعا شريدا خائفا أن يندوسك الانجراف وكأنه السيل العارم القادم ، وإما أن تسرق لك قطعة غيار أنت الآخر أو تغمض عينيك عن آخرين يسرقون قطع الغيار وباختصار وفي النهاية تنحرف ..

إن الطبيعة البشرية ضد الانحراف في كافة صوره وأشكاله . والإنسان أصلا وأساسا ، خلق ليحيا شريفا ونظيفا ، والشاذ هو أن يجرم أو يعتمد الخطأ أو الخطيئة ، هو لا يفعل هذا — في معظم الأحيان — إلا مرغما ، وإلا ، بالذات إذا وضعته بين خيارين قاسيين ، بشعى القسوة ، إما أن

تجف روحه ويتبلغ بشرفه وقناعته وإما أن يقلد السائد ويفسد ...

إن المشكلة ليست مشكلة فقر الإمكانيات ، فكم من شعوب ودول مرت بأزمات أعنف بكثير من أزمنا الحاضرة ، بل ونحن ، وهذا هو الغريب في مستوى اقتصاد قومي أعلى بكثير من كل سنواتنا السابقة ، ولكن المشكلة الأساسية أن العدالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخلقية والسلطوية غير مستبدة ، عدالة بها من الثقوب أكثر مما بها من خيوط الغريال ، عدالة تطبق على الخائب فقط .. أما الشاطر فهو من يركب فوق العربة .. حتى لو كانت حطاما .. ويطلب من الآخرين أن يزقوها ويزقوه معها .. نحن جميعا مستعدون أن نرق هذا صحيح ، ولكن (كلنا) نرق ، كلنا ندفع ، وبكل ما في قدرة كل منا على القوة ، شرط أن لا يركب البعض ويكون عملهم إعطاء الأوامر (للعبيد) بالرق . كلنا على استعداد أن نضحى ، كم أحلم بأن نبيع جميعا عرباتنا الخاصة وبثمنها نبني المصانع ونصنع ملايين الدراجات ، شرط أن نبيع — جميعا — عرباتنا الخاصة ، وأن نركب — جميعا — الدراجات ، ذلك أن دكتاتورية العدالة تقتضى أن تتوزع الحقوق والواجبات بالتساوى بحيث لا يكون لعرى على أعجمى فضل إلا بمقدار ما يبذل في سبيل بلده ومجتمعه وليس بمقدار المنصب الذي يتولاه .. أو المال الذي لديه .. أو ما يستطيع اقتناؤه ..

إن التقديرات الاقتصادية تقول إننا في

الخمس القادمة — إلى اثني عشر مليار جنيه لتغير أزمنا الاقتصادية فقط ، هذا إذا اعتبرنا أن أزمنا أزمة اقتصادية فقط ، فما قولك عن الأزمة التربوية والعلمية ، والحكومية والتكنولوجية والنظامية العامة والخاصة والمعنوية والروحية والأخلاقية .. إلى آخر القائمة التي لا أعتقد أن لها آخر .. ودول الخليج لن تمنحنا مجتمعين أكثر من عدد (٢) مليار فقط خلال السنوات الخمس ، فكيف سنحصل على العشرة آلاف مليار جنيه تلك ؟ وحتى ولو بمعجزة أن يتفق العالم الغني بأجمعه كله ، بأمريكته وروسياه على إعطائنا إياها ، فلن سنذهب ، والطريق وعرو شاق وملىء بقطاع الطرق .

نحن — إذن — شعب فقير ، يمر بأزمة طاحنة ، ولا معجزات هناك تنقذه . هناك فقط هو : ذلك الشعب ، هو الشعب وهو المعجزة .. وهو العشرة .. وهو الألف مليار .. هو الذي عاش هنا ، والذي سيعيش ، وهو وحده الذي بيده الحل . ولا حل إلا بأن يعمل .. فليست هناك شعوب بالسليقة فقيرة وشعوب بالسليقة غنية ، هناك شعوب تعمل وتنتج .. وشعوب لا تعمل ولا تنتج .. وإنما تقعد هزتها ويقتصر نشاطها على استهلاك كل ما تصل إليه يدها .. ووراء كل شعب لا يعمل ولا ينتج يوجد دائما وضع يسبب له هذا .. أو نظام ، نظام لا تستبد فيه العدالة ، عدالة الحق ، وعدالة الواجب ، نظام اختلت عدالة توزيع الأعباء فيه ، عدالة السلطة أو الاقتصاد أو القانون أو المركز أو الدخل أو حتى عدالة الركوب والمروء .. أو كل هذه مجتمعة .

وحلنا ومنقذنا ومخرجنا من هذا المأزق وكل مأزق ، حلمنا البشري القديم الذي نادرا ما تحقق ، هو عدالة حادة قاطعة كحد السيف .. أو على الأقل — يا هوه — حد أدنى من دكتاتورية العدالة فهي وحدها دكتاتورية الشرف ، والعمل ، والقيم ، والحرية ، والعدل ، والإنسان ...

تعالوا ننظف مصر

استمعوا أيتها السيدات وأيها السادة .. المسألة تجاوزت فعلا حدود المنطق والمعقول ، حدود أى صفة بشرية أو حيوانية .. حتى وأنا قد أبدو مزعجا ومقلبا للراحة ، ولكن إذا كان الأمر أمر إزعاج جث تمر بحالة موت روحي ونفسي وجسدى كامل .. فأنا مستعد أن أكون أكثر إزعاجا إلى درجة الوخز بالإبر والمسامير والخناجر حتى .. لم يعد معقولا ولا إنسانيا أبدا أن نستمر نجيا بهذه الطريقة .. الموت ، والله أفضل ، والوباء ، أفضل ، والحرب أفضل ، وأى شيء أفضل ..

منذ شهرين كان عندى مشوار فى (دوران روض الفرج) ، وليس مهما الآن كيف وصلت إلى هناك ، أما المهم حقيقة فهو ما وجدت عليه شارع روض الفرج الرئيسى .. كانت المجارى (ضاربة) فى الشارع .. والماء يشع الرائحة .. والمنظر والتكوين يغمر الشارع لمسافة لا تقل عن نصف كيلومتر .. والناس تضع أحجارا ، أو أحيانا تحفوض فى هذا البحر البشع القبيح لتعبير الشارع ، والعربات تصنع بعجلاتها وبالأقل أقذر الأمطار الصناعية .. هززت رأسى للحال التى وصلت إليها مرافقنا العامة ، وقلت فى سرى : معذور والله هذا الشعب الذى عليه أن يتحمل انقطاع مياه النظافة وغازة المياه القذارة .. الماء المقطر ممنوع مقطوع ، والماء البشع موجود وطافح بغزارة .. معذور والله هذا الشعب .

ومضى شهران ، وبالأمس فقط كان على أن أذهب مرة أخرى إلى روض الفرج .. وليس مهما كيف ولا بأى طريقة وصلت هناك ، فلنترك جانبا حديث المواصلات والتاكسيات ، ولكن المهم ، بل الشيء الذى لا يصدق عقل .. أو منطق أو عين ترى وأنف يشم ، أن أصل إلى هناك ، لأجد نفس المستنقع الرهيب ، يغمر نفس المساحة من الشارع ويعيق الجو برائحة لا يمكن أن يقبل الحياة فى ظلها إنسان أو حيوان أو نبات أو حتى جمل .

شهران وأنتم أيها السادة الأفاضل سكان روض الفرج ، تغوصون فى وحل المخلفات البشرية هذا ، شهران وأنتم تلوثون وتشمون وتقاسون وتعانون ، شهران وأنتم تصبرون .. لعن الله صبركم .. لعنت حياتكم .. لو كنتم مجموعة من الكلاب الضالة هجعت من الحى كله وحتى من العاصمة كلها .. لو كنتم مجموعة من الحشرات للدغت نفسها بنفسها وأتمت هذه الحياة ذات الرائحة العفنة الكريهة .. ولكنكم — الكارثة الكبرى — بشر ، بشر تتردون البذل والجلايلب (النظيفة) ، نساء مسرحيات الشعور أنيقات البلوزات والجيبات ، دكاكين ، ومطاعم وأناس تتركب العربات والتراموايات ، أرقى كائنات على سطح الأرض .. كيف تحملتم بالله هذه الحياة لشهرين ، ومن يدري .. ربما تتحملونها لعام أو حتى لبضعة أعوام .. أليس فيكم رجل واحد أو بضعة رجال (يثورون) على هذا الوضع ويذهبون إلى مهندس المجارى أو التنظيم ويتزعونه من مكانه قسرا ويمرغون أنه فى المياه النظافة ، أليس فيكم آدميون أكثر يذهبون إلى محافظ القاهرة ويحملونه تحملا إلى شارعهم

ولا يتركونه إلا وقد عاد الشارع يصلح لمسير وعبور وإقامة الآدميين ، وأنتن يا نساء الحي .. كيف تحملتن أن (يعيش) أطفالكن ويتمرغن في شارع كهذا ؟ .. يا من تضعن أحيانا البرفانات .. كيف احتملتن الرائحة ، وإذا كان الرجال قد تقاعسوا ، فكيف تقاعستن أنتن ؟ ..

والحق أنى لا أتحدث عن روض الفرج وحده ، إن طريق (ملك حفنى ناصف) بالإسكندرية ، وغيره ، إن أى شارع أو حارة فى القاهرة أو الإسكندرية أو أسبوط أو البدارى .. إن كل مكان فى مدنا يضح بكم من القذارة أو الإهمال والبشاعة لا يمكن أن يصلح معه إطلاقا لحيلة البشر .. ومع هذا فالبشر يحبون فيه .. متبلدين ببلادة لا يمكن أن تكون لجنس البشر ، وكأنهم يتلذذون بمشهد الجمارى والقذارة ، وكأن كائنات أنيس منصور التى هبطت أو هبطت من السماء ستقوم هى وليس هم بعملية النظافة .. وكأن الحكومة لها عين ترى القذارة وتزيحها .. وكأنه لا يزال هناك أمل فى جهاز التنظيم ومصالح التنظيم .. والمجالس المحلية يدكم منها والأرض .. فجهاز النظافة العام فى مصر — مثله مثل كثير غيره — قد تقسم تماما وانشل ، نفس الشلل والتبلة التى أصابت الإنسان وكل يعتمد على الآخر فى عملية التنظيف .. السيدة تعتمد على الخادم أو الخادمة — إن وجدت — والخادمة على البواب المحلية على جامع القمامة الذى أصابه الوحش هو الآخر .. وبدلا من أن يعيها فى عربات ويحملها إلى خارج المدينة ، بدأ يختار أى وأقرب مكان إلى منطقته ويفرغ فيها قمامته ، وتعالى الأكوام ، أمام عين العسكرى ، وأمام عين الكناس ، وأمام عين معاون البلدية ، ولتعايش العين والناس والقذارة ، ولتعايش

التنظيم مع الفوضى ، ولتعايش الكمد المغمود الذى أصابنا مع القذارة التى تتراكم أمامنا وداخلنا ، ولتتحول فى النهاية إلى مجموعة من الحيوانات القذرة تحيا فى جحور قذارة اسمها (المدن) .. بل حتى الحيوانات أبدا ليست بهذه القذارة ، القططة تظل تلحس ابتها بلسانها و (تظفها) لأن الطبيعة الحيوية حتى لو كانت طبيعة حيوانية هى ضد القذارة .. ولأن القذارة هى الفوضى فى التركيب وفى المعنى وفى الرائحة وفى المذاق ، والحياة هى الدقة فى النظام والرق فى التركيب ..

اسمعوا — أيها السيدات وأهب السادة — لقد يست تماما منكم ومنكن ولم يعد لى أمل إلا فى أجيال الشباب الجديد .. ولهذا فأنا شديد الاندهاش أن يكون تصرف الشباب هو الآخر على هذا النحو .. إن هذا ليس أول جيل من شباب مصر ، فللسباب فى مصر تاريخ وأجيال .. وقد كان الشباب على الدوام هو القوة القاهرة الدافعة للثورة والتغيير . كان مشهد التدخل الأجنبى فى مسائل مصر الاقتصادية والسياسية هو الذى أزعجه حتى قام بثورة عراقى ، كان مشهد العساكر الإنجليز والأستراليين فى شوارع القاهرة هو الذى أزعجه إلى درجة القيام — قلبا وقاليا — بثورة ١٩ ، كان مجرد مشاهدته للوجوه الحمر المظلة من ثكنات قصر النيل وعمارات شويكار فى شارع قصر العبنى يزعجه إلى الدرجة التى يقوم فيها بثورة ٤٦ ، ٤٧ ، ٥١ .. ويسقط منه الشهداء ويسيل منهم الدم الأحمر الطاهر يخضب أرضا أبوا عليها أن تلذسها أقدام وجوه المحتلين . كان مشهد العلم الإسرائيلى على ضفة القناة المصرية يزعج

حتى قام بالانتقام العظيم في ٦ أكتوبر . أ يكون مشهد حى بأكمله يستمتع فى مياه المجارى .. أ يكون مشهد أكوام القذارة والقمامة والزباله ، أ يكون هذا القبح الكسول المستشرى أقل بشاعة من وجوه الإنجليز الحمر — النظيفة على أى الأحوال ...؟

ورب قائل يقول إن هذا كان (استعمارا) وكان إهانة (للكرامة الوطنية) ، ولكن القذارة والمجارى المتفجرة والرائحة التى لا تطاق أشد إهانة (للكرامة الإنسانية) .. فكيف إذا طاقها العاديون ، يطيقها الشباب ، تطيقها قلوب بكر لم تلوثها القذارة ، أعمار القدرة على التضحية وبذل النفس ، كيف سكت الشباب فى حى روض الفرج وفى طريق ملك حفى ناصف ، وكيف يسكت فى كل مكان وحارة من مدنتنا على حياته اليومية وهى تلوث وكأنا بفعل عدو مبين خبيث . إن المسألة ليست مسألة عيافة أو شياكة أو (استنظاف) المسألة مسألة آدمية ، والصين قبل أن يأكل شعبها أو يرتدى ما يليق (نظفت) حياتها أولا من الذباب ومن الحشرات ومن أكوام القمامة ذلك أن الإنسان الذى يطبق القذارة والتعاش معهما لا يمكن إلا أن يكون قد فقد أبسط دافع يحركه للحياة أو للعمل أو لعمل شئ من أجل الوطن ، .. إننا كلنا نعتمد على الحكومة وعلى التنظيم وعلى — ودائما — (الآخرون) لتنظيف بيوتنا أو شوارعنا أو حوارينا ، فلنعتبر أن الحكومة قد ماتت أو غير موجودة ، لنعتبر أننا (نحن) المسئولون ليس عن نظافة كل منا فقط ، ولكن عن نظافتنا كلنا ، نظافة حياتنا ونظافة أحيائنا .. إننا لا يمكن أن نفلح فى السياسة أو الثورة أو مجرد الجدل حول يمين أو عقيدة أو دين ونحن

نحيا فى قذارة ، لنحيا أولا كأدبيين ، وبعد هذا نتناقش أو نختلف أو حتى نتقاتل .. لنكن أولا جديرين بحياة الأدبيين الجسدية لنكون جديرين بأية حقوق سياسية أو اجتماعية أو أى شئ آخر ..

يا شباب مصر .. تعالوا نظف مصر .. لتألف منكم لجنة فى كل حى .. تضم الشباب من الطلبة والعمال وحتى من تلامذة إعدادى وابتدائى وتلميذاتها ، نظف الحى ، وترغم عمال النظافة على العمل ، وعمال التنظيم ومهندسيه ومفتشيه وأجهزته وتنتزع لهم حقهم فى نظافة شوارعهم ومجارهم ، ولنبدأ أولا نظف شوارعنا وغدا نظف حياتنا كلها ، من ألفها إلى يائها ، ومن اقتصادها إلى سياستها .. ولكن فلنبدا ، حتى قبل أن نقرأ أو نكتب أو نأكل ، لنبدأ عملا نحس به أننا بشر نستحق حياة البشر ، وأنا — شباب وشابات — نستحق أحمدا وأعظم فترات الحياة .. اعملوا شيئا يا شباب غير ضياع الوقت هائمين فى الشوارع وكأنا فقدتم الرشد ، ضائعين فى النوامى والحوارى ومطلقين الأذى من ألسنتكم على (اللى تسوى واللى ماتسواش) .. اصنعوا شيئا .. الآن . دين الحكمة ..

فى رسالة لبقية مؤدبة — وهذا أحيانا نادر فى أمثال تلك الرسائل — لفت نظرى مواطن — يبدو أنه ضالع فى أمور الدين — إلى أنى قد ارتكبت إنما — دعا الله أن يغفره لى ، حين استعملت تعبير (عقلية انصر أخاك ظالما أو مظلوما) منهما إياى أنى بترت مطلع هذا الحديث الشريف ، ثم يستطرد موردا نص الحديث كله من صحيح البخارى .. والحق أن هذا الخطاب ، وغيره ، أثار فى نفسى انفعالا لا يحصى

لها .. فأولاً أننا لم أقل هذا حديث شريف ، وإنما أنا قلت (عقلية) انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً مثلما يقول الإنسان أحياناً « عقلية » لا تقربوا الصلاة .. ويسكت عن إتمام باقي الآية ، إن قولاً كهذا لا يعتبر (استشهدا) بالآية ولا بالنص ، وإنما يتحدث عن (عقلية) أخذ نصف القول وترك النصف الحقيقي الآخر الذي من أجله نزلت الآية أو قيل الحديث .

وثانياً ، هذا يدل على أني كنت محققاً في النص على هذه العقلية عند البعض ، فقد وضع لي الآن أن بعض الناس يقرأون ما يكتب قراءة (شكلية) محضة يقرأون بنفس عقلية : لا تقربوا الصلاة ، ومستعدون أن يحكموا بالتجديف أو أحياناً بالكفر بمجرد الشكل وليس أبداً معنى الأشياء وأعماقها . وهذا أيضاً ليس غريباً ، فقد تحولت ديانتنا المحمدية على أيدي البعض إلى (شكل) (الوضوء ، و (شكل) أداء الصلاة ، و (شكل) ما ترتديه المرأة أو لا ترتديه ولا يهم بعد هذا أن يكون للرسالة المحمدية العظيمة مضمون أعظم وأشمل ، ذلك المضمون الساموي الشامل الذي من أجله هبطت الرسالة لتشكّل إيمان الناس في كل زمان ومكان ، وتشكّل ضمايرهم .. أبعد محمد عليه السلام نبياً ليقول لنا ماذا نرتدى وماذا نأكل ؟ لقد بعث هذا البعث العظيم أولاً وأساساً ليهدينا إلى من نعبد .. ولماذا ، ليهدينا إلى الخالق عز وجل ويحيطنا بأعظم رسالة .. وثالثاً ، ألاحظ في الفترة الأخيرة حساسية مفرطة ضد أن يتحدث أحد عن أي شيء يتعلق بالدين إلا رجال الدين ، في حين أن الإسلام — كما يقول فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري — ليس فيه أصلاً رجال

دين ، فكل مسلم هو رجل دين ، هناك فقهاء وعلماء هذا صحيح ، ولكن الحديث عن الإسلام ، والمسلمين هو من حق كل مسلم ، بل إن (خليفة) المسلمين نفسه يطلب من أي عربي أن يقوم به إذا انحرف ، بمعنى أنه — أي الخليفة صاحب النبي وحببيه وأعظم داع لرسالته — يطلب من أي عربي عادي أن (يقوم) إذا أخطأ ، معنى هذا أنه يمكن أن يخطيء هو أيضاً ، وأن من (حق) أي عربي أن يدرك هذا الخطأ وأن يقول له رايه — مهما كان جاهلاً أو متواضعاً — أي أن يقول له مفهومه الإسلامي لما ارتكبه الخليفة ..

ككيف تريد إذن أن نحول هذا الدين الواسع العريض ، هذا البحر الذي من حق أي منا أن يعترف منه ما شاء إلى (حنفية) ضئيلة عليها قوم (مدججون) باحتكار (الفهم) للإسلام وكأنما محظور على عقل أي منا — مهما بلغ نبوغه — أن يفهم إلا من خلال فهمهم هم وتقديرهم هم واحتكارهم هم ..

إني مصر على أن لا كهنوت في الدين ، وأن من حق أن أفهم إسلامي كما أريد وكما أستطيع ، والله وحده سبحانه وتعالى هو الذي سبحانه على فهمي ، بل إني مصر على حقّي حتى في أن أخطيء الفهم وأن أعترف بالخطأ إذا ما أدركته ، فديننا الخفيف جاءنا — ليس لأننا ملائكة منزّهون من الخطأ — وإنما لأننا بشر نخطيء وقد نصيب ، وحسابنا من الخطأ والصواب لله وحده مالم كل شيء وخالق كل شيء وصاحب الأمر والنهي ، أما أولئك الذين يتصورون أنفسهم أو مبعي على دين الله وعلى أمة الله فهم يرفعون أنفسهم إلى ربّه رسل الله ولهم رسل

بغير تفويض ، ول يظهر لى أى منهم من فوضه ولماذا هو وحده المفوض وأنا مسلم مثله ، وربما أكون أكثر منه تقوى وأشد منه إسلاما بسلوكى وقيمى وعقيدتى .

من فوضه ليرهبني ويخيفني ويجعلني أعبد الله من خوف ليس منه سبحانه ، وإنما من جماعات الإرهاب الدينى الذين يريدون إعادة محاكم التفتيش وطغيان الكنيسة وحرق الناس أحياء لجرد قوهم إن الأرض تدور حول الشمس ..

إنى إنما أعبد الله عن حب ، ومن يجب لا يخاف ، لا يخاف بالذات أولئك الذين يريدون إحالة أعظم رسالة حب عرفها الإنسان إلى سلاح اتهام وبطش وتعذيب وكأنهم هم وحدهم المسلمون وبقية الخلق إما كفرة أو منحرفون أو بلا قدرة على التمييز ...

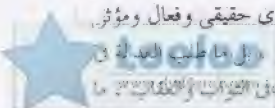
إن الإسلام للناس جميعا ، حتى للأُمى الذى لا يقرأ أو لا يكتب ولم يهبط ليكون دين خاصة ودين قلة ودين أوصياء على خلق الله ، دعوا الناس تعبد الله بلا إرهاب ، وإذا دعوتوهم إلى الدين فإتباعا كما قال الله سبحانه وتعالى : بالحكمة والموعظة الحسنة . لم يقل أبدا بالسيوط ولا بالسيف ولا بالقهر .. بالحكمة والموعظة وليست حتى أى موعظة .. وإنما بالموعظة الحسنة .. أتعرفون الموعظة الحسنة ؟؟

الثقة الفعل

لنتعاهد سويا عهد الله والوطن على أن نمضى فى طريق التحرير إلى منتهاه حتى نسترد كل شبر من الأرض العربية ، وحتى نرى شعب فلسطين الصامد وقد استعاد حقه وكيانه ، ولنستمر فى معركة البناء الداخلى لا يلهينا عنها شئ .. إلا أن تصبح الديمقراطية بناينا لا يمكن أن تهزه أعتى العواصف والأنواء .. وليكن رائدنا فى هذا هو التملك والتأخى الموضوعية والاحتكام إلى العقل وتجنب فرض الرأى ..

هذه ليست آراء (كاتب) ، ولكنها كلمات الرئيس أنور السادات عشية الإجماع على اختياره رئيسا للجمهورية وقائدا لمسيرها لست سنوات حافلة قادمة .. والفرق بين كلمات الكاتب وكلمات الرئيس أن كلمات الكاتب تكون من قبيل القنى أو التبشير برأى أو إيضاح الرؤيا ، ولكن كلمات الرئيس ليست أمانى ، إنها كلمات رجل يملك فى يده سلطة أن يحيل الأمانى إلى (فعل) ، والأحلام إلى (قرارات) والرأى إلى (عمل) والأصل فى حياة أى شعب أو أمة أو ثورة هو العمل ، هو الفعل ، وما الحرية وما الممارسة الديمقراطية الحقيقية وما العقائد بكل تناقضاتها أو تشابهها إلا (وسائل إنتاج) بشرى حقيقى وفعال ومؤثر.

يغير فى حياة الناس ويقضى على متاعب البشر : بل ما طلب العدالة فى الحق والواجب ، والعدالة فى التوزيع والعدالة فى الحقوق والواجبات ..



هذا كله إلا وسائل لجعل الإنسان (إنسانا) بحق ، وما دام سيصبح إنسانا فهو من تلقاء نفسه سيعمل وينتج ويدع ويحتل عالمه وعالم الآخرين إلى شيء جدير حقا ببنى الإنسان ..

إن أقصى ما يحلم به الكاتب وما يريده أى مواطن مصرى هو هذا بالضبط الذى قاله الرئيس السادات ، الفرق أننا كلنا نستطيع (القول) ولكنه هو هذه المرة الذى أوكلنا إليه (الفعل) . إننا لم نتخبه تكريما له فقط لما حققه من منجزات ضخام خلال فترة رئاسته الأولى ، ولكننا هذه المرة نتخبه لأننا فى أمس الحاجة إلى رئيس (يعمل) و (يفعل) و (يحقق) ، فالمشاكل التى تراكمت ، والقضايا المعلقة لا تزال . لم تعد تحتمل التأجيل ليوم واحد أو ربما لساعة واحدة ، وليثق الرئيس أننا لن نركن إلى العاس ، كما لم نركن أبدا إلى العاس ، لنتركه وحده يعمل ويفعل ويحقق ، فنحن — وأى شعب فى الدنيا — لا يختار الحاكم ليتباهى به ، أو ليكون رمزا ، إنما يختاره ويشدد في اختياره كوسيلة عظمى يغير بها الشعب من أحواله ويحقق بها ما يريد ، وسيلة حاسمة باترة ليتحرك بها الشعب و (يفعل) و (يعمل) ، كل ما فى الأمر أن بعض الحكام لا يتلقون الرسالة أو الثقة بمفهومها الصحيح ، ولا يتحركون فى اتجاه الشعب ، فلا يتحرك الشعب لهم أو بهم ، بل فى أحيان يتحرك مباشرة ضدهم . فالحركة بذاتها ومنتهاها الشعب ، هو خالقها وملكها وماغنها لمن يختاره ولن يستحق .

إلى إذ أهنيئ رئيسنا السادات بهذه الثقة الغالية ، لأشفق على شعبنا مما يريده الرئيس منه ، فالحق أن شعبنا قد أعطى ويعطى بكل ما يملك

وما يستطيع . ولكننى لا أشفق على الرئيس مما يريده شعبنا منه ، فهذه الثقة وهذا الاجماع معناها أن بإمكانه أن يعطى أكثر بكثير مما أعطى .

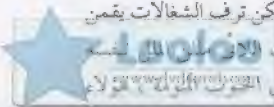
رسالة عاجلة لك يا سيدى ..

إن قضية إجراء حوار مع المرأة المصرية والعربية بشكل عام ، أقصد حوارا بينها وبين الرجل مسألة أصبحت ملحة وضرورية وحمسية لوجودهما معا . إن المرأة تتحدث والرجل أيضا يتحدث ولكن كليهما لا يقول سوى (مونولوج) .. أى يتحدث إلى نفسه فال المطلوب أن يتحول إلى (ديالوج) أو حوار .

ولكنى الآن لا أريد أن أبدأه .. فالجدار العظيم الكائن بين الرجل والمرأة جدار لا بد كى يهدم أو على الأقل نستحدث فيه بعض الثقوب والمنافذ وحتى الشقوق .. فإن الأمر يستلزم استعدادا أكبر بكثير ... هذه مجرد رسالة عاجلة ..

وهى موجهة بالذات إلى سيدات نادى سبورتينج بمصر الجديدة ونادى الشمس بمصر الجديدة أيضا وجدا لو تلقتهما أيضا سيدات نادى الجزيرة والصيد والقاهرة إلى آخر قائمة النوادى ..

وبالذات إلى السيدات اللاتي يملكن (وقتا) يضيع الكثير منه فى ثثرة مكررة حول الموائد وأشغال التريكو والكافاه وذلك الحديث الظريف الذى يسمونه (النجمة) .. أولئك اللاتي يملكن ترف الشغالات يقمن بأعمال البيت والطباخين يطبخون ، أولئك اللاتي يملكن ترف المملكات ويستكين من الأرق والأعصاب ويلجأن إلى الحزن الممل



اللائي أقول لا يعملن ولكن يحتلن أعمالاً هامشية تماماً لا يمكن أن تكون ذات أثر في حياة الناس أو حتى حياتهن هن أنفسهن .. أنا هنا لألوم ولا أعاتب وإنما أحاول أن أخاطب الضمائر التي أعتقد أنها من الداخل غير راضية أبداً ، ومكتبة .

سيداتي .. يامن يملكن هذا الوقت وتلك القدرة .. هناك عمل عظيم ونبل وجدير حقاً بأي إنسانة أو إنسان يحيا في عصرنا هذا .

ذلك أننا في عصر يحج أن يكون الإنسان فيه عائلة على مجتمعه أو حتى عائلته ، يحج البطالة حتى لو كانت صاحبها جميلة ورشيقة ومن عائلة ، يحج أن يعيش الإنسان بلا (دور) هام يؤديه في ذلك المجتمع ..

أقول إني لذي عمل لكن .. ذلك هو مستشفياتنا .. في كل حي من أحيائكن هناك مستشفى أو أكثر . وإذا كانت شوارعنا وبيوتنا قد أصبحت تعج بالقذارة .. فمستشفياتنا العامة أصبحت مسألة النظافة فيها شيء تنسيه الخلق تماماً ولم يعودوا يذكرونه . إن المريض الذي يلجأ إلى المستشفى العام هو بالدرجة الأولى مريض فقير ، ولأن النظافة مسألة اقتصادية أساساً فهو يحيل المستشفى الذي قد يكون غنياً بأجهزته وأطبائه واستعداداته إلى مكان ، كمزله ، كشارعه ، قدر ..

وإذا كانت القذارة في الشوارع مسألة ضررها لا يظهر في الحال ، والقذارة في مستشفياتنا شيء خطير للغاية لأنها تعني الموت بالعدوى والميكروب .. وصحيح هناك أجهزة وموظفون وعمال وعمالات متروك لهم أمر النظافة في تلك الأمكنة الحساسة ، ولكنهم جميعاً (موظفون) لدى الدولة ، والنظافة الحقّة (رسالة) في حاجة إلى من

يتبناها تبني المبشرين ، فهي تمثلها مثل رعاية المرضى والتخريض عمل (مقدس) ومن هنا جاءت فكرة (الترهين) في خدمة المرضى وإدخال الراميات مجال التخريض ، ذلك أن رعاية أي مريض أو مساعدته ربما أهم بكثير من علاجه على أيدي الأطباء المحترفين : لا بد أن تنبع من قلب مؤمن حقاً بما يفعله ومستعد أن يضحي من أجل أن يحس بوجوده الحقيقي وأن يكون له في الحياة رسالة .. وأن يأوي إلى فراشه في نهاية اليوم وهو — أو بالأصح — وهي قد أحسنت بدفء الحياة يتسرب إلى روحها لأنها ساعدت إنساناً آخر أن يشفى أو يعيش .. ليت ذلك النداء الإنساني العميق المركب في كل منا يدعونا أن نمد يد المساعدة لكل من يستغيث بنا أن نساعد .

وأنا أكتب هذه الكلمات أحس بعشرات الأفواه من المرضى تستغيث استغاثات مكتومة تتوجع إلى الله طالبة العون والمساعدة ، ولا من معي .. لقد قرأت مرة أن إحدى الجمعيات قررت أن تتولى عضواتها الإشراف على نظافة مطار القاهرة الجوي حتى نستقبل السياح والقادمين بوجه لاعم نظيف . وهذا عمل جميل لا شك ونية طيبة ، ولكن العمل الأعظم والأجمل ، والنية الأصدق والأنبل ، لا أن نرى العالم وجهنا الخارجي الأول لامعاً نظيفاً ، ولكن أن ننظف مستشفى حيناً وأن نساعد مريضاً ، وأن نعمل ذلك العمل الذي قد لا يكون له بريق تنظيف المطار ولكن له عند الله وعند الخلق أئمن وأعظم الوقع .

تذكرت هذا كله حين زرت في الأسبوع الماضي قسم الرعاية المركزة لمرضى القلب الجديد بمستشفى الدمرداش ذلك الذي أنشأه وعمره

طبيبنا الكبير الدكتور حمدي السيد ، بالتعرجات وانتزاع الأطافر جمع ثمن بنائه وشراء أجهزته وبحسم شديد هو و فريق الأطباء الذين يعملون معه الأستاذ الدكتور محمد الفقى والأستاذ الدكتور عبد الخالق ثروت والدكتور مغازى طنطاوى وأطباء القلب الكبار الأستاذ الدكتور محمد عطية وحمدى الدمرداش وجلال مختار زيادى والكثيرون الذين يضيق المجال عن نشر أسمائهم جميعا وبالذات حكيمات القسم وممرضاته . هؤلاء الجنود المجهولون للرأى العام بنوا فى قلب المستشفى (الحكومى) واحة رائعة نظيفة يلقي فيها أفقر المرضى ربما نفس العناية التى كنت ألقاها فى مستشفى هارلى ستريت ، أعظم مستشفيات لندن .

ولكن الصدمة البشعة تجيء حين نغادر هذه الواحة الخاصة وننتقل إلى العيادة الخارجية بنفس المستشفى وبكل مستشفى ، حين ننتقل إلى الأقسام الداخلية ، إلى حيث تحل الوظيفة محل الرسالة وتغيب عين (الراهبة) المرأة الواهية نفسها تماما لتلتقط الخطأ أفى وجد الخطأ ، والقذى أفى وجدت القذارة .. هذه مهمة لا يمكن أن يقوم بها إلا متطوع أو متطوعة .. ومن أجل هذا العمل وحده .

سيدنى فى النوادى المذكورة وفى كل حى من أحياء القاهرة وكل مدينة من مدنها .. يا من تملكين بعض الوقت ، لماذا لا تلتقين مع جاراتك وصديقاتك وتكونين — وفى الحال — نواة لجمعية : صديقات المستشفيات . تأخذن الأمر مأخذ الجد ، وتعملن شيئا من أجل مريض قد تتوقف حياته على يد حانية عن إيمان تساعد ، ومتطوعات جادات بقروش قليلة ممكن أن يحلن مستشفياتنا إلى أماكن ، لا أقول يصبح

العلاج فيها مثاليا ، ولكن على الأقل تصبح أماكن رعاية نظيفة لا يموت الناس فيها قذارة أو إهمالا ..

سيداقى : أكتب هذه الكلمات فى الليلة العظيمة — ليلة القدر — وعشمتى أن تكون أبواب السماء مفتحة لكلماتى ورجائى وأن يهبط من السماء على قلب كل منكن شعاعة نور تفتح لها الطريق أمام عمل إنسانى هائل ينتظرها ..

غن يا عبد الحليم ، رغم كل شيء غن ، وأقرأ لنا يا نزار العظيم فنجاننا
المقلوب ليس بيد قارئة ، وإنما بيد زمن غادر ، ومؤامرات وانقلابات ،
ودماء من كثرة سيلها وشديتها ، قلبته ، وقلبنا معه ، فهو مقلوب ونحن
مقلوبون معه نقرؤه . ففقرؤه أيضا بالمقلوب .

غن يا عبد الحليم ، فهي دقائق متعة ، فعلا أحسن ويحسن معنى
الآخرين بالمتعة ليتها كانت متعة التخدير ، ولكنها للأسف أو لحسن
الخط ، متعة مفتوحة الأعين ، مفتوحة الذاكرة ، مفتوحة الوعي ..
أعرف أن دماء غزيرة تسيل في بيروت .. أعرف أن الإسرائيليين نجحوا
في اختطاف الطائرة المحطوفة وقتلوا الأوغنديين واختطفين .. أعرف أن
ستائة قتلوا في يوم واحد في السودان ، أعرف أن الدماء تسيل من الشرق
إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب في وطننا العربي ولكن ، غن يا عبد
الحليم ، غن فلربيع قرن من الزمان أيها الناس ونحن بلا يوم راحة ، نجا في
جهنم الحرب و جهنم الثورة و جهنم الانقلاب ، و جهنم الحكم العرق ،
و جهنم البيان رقم واحد ورقم مليون ، نجوع ونموت ، نمرض ونموت ،
نثور ونموت ، نتكسر ونموت ، نتصغر ونموت ، نموت ونموت .. غن يا
عبد الحليم وأقرأ لنا الفنبجان يا نزار .. قد مات شهيدا يا ولدي من مات
فداء للمحبوب .. ليتنا هذه الأنواع من الشهداء . إنما نحن في معظم
الأحيان شهداء الرعونة ، وشهداء أيدينا وسيوفنا ، شهداء حكمنا
الوطني وحكوماتنا المختلفة أو المتفقة ، شهداء آلاف وملايين النوازع
الصغيرة التي يحفل بها إنساننا وعالمنا العربي ، شهداء الأعداء الأذكاء
الذين يلعبون بنا على الدوام ولم نلعب بهم إلا مرة واحدة ..

« غنى » يا عبد الحليم

قد مات شهيدا يا ولدي من مات فداء للمحبوب .. اصدح يا عبد
الحليم و غن ، فالمتعة قد بدأت تسرب إلى نفوسنا الجافة ، نفوس تبيست
فلا أحد يرويها والحر اللافح يشويها .. والدنيا ركام من الأهوال
والمشاكل .. غن يا عبد الحليم فلعل وعسى ، لعلها ساعة نستريح فيها ،
يبدأ الأخضر يغطي على الأصفر ، ربما نبت برعم .. غن يا عبد الحليم
فموسيقاك جميلة ، والموجي رقيق وشاعر الموسيقى الشعبية وأورج
مجدى الحسيني وكأنه النشوة .. غن أيها الناحل الأسمر في بديلتيك البيضاء
الجميلة ، زينة من قلب وطننا البني ، أعرف كم تعاني وتقاسي وكم قاسيت
لتشرح التربة وفي عناد تشق الطريق وتصعد وتنبؤ مكان النجمة جميلة
العذاب في قلوب الملايين والملايين .. غن يا بلدياتي .. يا بن القنابات
الذي استولى على القاهرة بلا جيش أو انقلاب . وحكم العواصم العربية
بلا حسب أو نسب أو مخابرات ، بأغنية الحب ، يقولها لقلوب وألسنة
رغم كثرة (كلامها) عن الحب و (استعمالها) للحب لا تحب ،
ويتسرب صوتك إليها هامسا ، ودودا لا تجفل منه ولا تنكمش ، إذ هو
صوت يعرض على الحب ، وحتى لو حرض على اللوعة والأسى ، فهو
ذلك الأسى الجميل الذي يمهد لتقبل الحب وزرع الحب ، وحب
الحب ..

فرط رجعتها تحجرت ، وأقوال من فرط تخفيفها من معانيها نصبت أقفاصا من حديد ، وقيودا ، شهداء عصر « الاستقلال » نحن ، في كل كفاحنا ضد الاستعمار الأجنبي بقديمه وحديثه لم نخسر جزءا من خسارات كفاحنا ضد أنفسنا وكله — ويا للغربة — باسم الشعب وكله باسم الثورة ، وكله تحت أروع وأضخم وأجند الشعارات .

غن يا عبد الحليم ، فلم يبق لنا إلا أن نسملك .. مقدورك يا ولدى أن تبقى مسجوننا بين الماء وبين النار . مقدورنا أن نبقى مسجونين مخنوقين بين الدم القريب الذى تحول إلى ماء وبين نار العدو التى تحولت إلى جحيم .. وبرغم جميع حرائقه ، برغم جميع سوابقه وبرغم الريح ، وبرغم الحب سيبقى يا ولدى لحين ، سيبقى يا عزيزى نزار ، فى أى مكان من أرضنا يبقى ، فى أى كوخ ، وكل كوخ ساكن فيه الحزن والحقد والدم ليل نهار .. صدقت فقط حين قلت مقدورك أن تمضى أبدا فى بحر (الحب) بغير قلوب ، وتكون حياتك طول العمر كتاب دموع .. أو تكون الرء قد سقطت سهوا منك وتكون تقصد بحر (الحرب) .. وأى حرب .. حرب لا معنى لها بالمره ..

أنا أفهم أن نحارب الاستعمار .. أما ما يحدث الآن فأنا لا أفهمه أبدا .. إلا إذا كان الشعار الأمريكى المعروف : دع الآسيويين يحاربون الآسيويين ، قد طبق ، وبنجاح هذه المرة ، فى عالمنا العربى بنجاح ساحق ماحق .. اذبح واقتل ، بالهوية وعلى الهوية ، لنعد القهقري إلى الحروب الصليبية ، كل ما فى الأمر أن الغزاة هذه المرة قادمون من الداخل ، وليس فيهم (قلب أسد) واحد ، إنما هى قلوب نعم وذئاب

وكلاب .. غن يا عبد الحليم .. الحب سيبقى يا ولدى أحلى الأقدار ، كده يا نزار ؟ ما لقدرنا إذن انعوج وانحرف وأصبح القتل عندنا أحلى الأقدار .. وحبيبة قلبنا يا ولدى ليس لها عنوان ، فهى فى كل مكان ، وشاعرنا الكبير هو الآخر بلا عنوان ، فأنا أريد الكتابة لنزار ، فأين نزار ، وتحت أى شعار يقف ؟ .. ربما يموت شهيد شعار .. من مات فداء للمحبوب استراح وربما أيضا أراح ، أراح المحبوب بالذات ، فالناس لا تحب لتستشهد أو تموت ، الناس تحب لتفرح وتستمتع وتستعد ، الناس تحب لتتطلق وتمرح ، الناس تحب فعلا لا قولا ، الناس لا تحب لبقى مسجونة بين الماء وبين النار ، الناس — كل الناس — ما عدانا ، فالحب حدانا حزن ساكن فينا ليل نهار ، ودموع غزار ومرار ، ونعيق سمح مدرار .

غن يا عبد الحليم ، أمتعا قليلا وسط دوى الرصاص الأعمى ، حمام الدم يتخطط على أعيننا وأيدينا ويحينا ويخضينا بالسواد ، ولا نملك سوى المداد ، وأضغاث مداد .. ويأخذ وزراء الخارجية العرب قرارا بإيقاف القتال (فوراً) يا سلام .. وتشبكت قوة (السلام) اللبية ، مع قوة (السلام) السودانية انتقاما لمذبحة السودان فعلا يا جامعتنا العربية (فوراً) هى الكلمة . (فوراً) يتم الانعقاد ، ولا انعقاد .. فوراً يتم القرار بلا نفاذ لأى قرار .. فوراً إذا أرادت مصر توقف الهجوم على السودان الجيب ، ولكن (فوراً) أيتها الجامعة الكبيرة ليس له من قرار حتى لو كان بقرار .

غن يا عبد الحليم ، قل يا نزار .. ماذا تقول الآن يا نزار ؟ وإذا

كان صديقك المشهور فيه قد استشهد حبا وأثار قريحتك فماذا تفعل
القريحة حين يستأصل شعب ويستشهد الناس حربا ، حربا مغلوطة ،
حربا منتحرة ، حربا مجرمة لأنها حرب من الاتجاه الخاطيء ، حرب
الصديق للصديق ، حرب الإخوة المصابين بلوثة وكأنهم يعانون من
مرض خبيث ورائي .

غن يا عبد الحليم ، فعندنا نحن الآخرين حرب ، قنابلها مقالات
واتهامات ، وضحاياها شعب مضيق نقلوه بالشهوات والتلويح بأقدس
المقدسات ولم يبق إلا أن يقيموا له المآتم ويهيلوا فوقه التراب .

غن يا أخى ، أمتعنا لحظة ، لحظة زمن واحدة . لشعب ما أقل ما
عاش ، وما أقل ما يستمتع بالعيش إذا عاش ، حتى لقد أصبح الموت هو
فرحة المتعة الباقية .. غن يا عبد الحليم ، فرما النسمات المتصاعدة من
قلبك الفواح تغطي على الطنح ، طنح النفوس .. وطفح الجلود ، غن ، وكان
غن ، فقد أفلت الزمام ، ولم يعد أحد يستطيع وحده أن يصنع شيئا ،
مهما قال أو كتب أو فعل ، الحريق الأعظم بدأ ، وجهنم قبل مياعدها
انتصبت « يوم يقر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه » ودولته التى
تأويه .

غن يا عبد الحليم ، فقد استمتعت بك ساعة ، وربما ملايين معي
اختلسوا هذه الساعة الممتعة !

غن ، فقارتلك لم ولن تقرأ أبدا فنجانا يشبه فنجانك . رأيت ونجمت
كثيرا ولكنها لم ولن تعرف أحزانا تشبه أحزانك .. والحزن أيدليس علينا
بغريب ، إنه دمنا ولحمنا وطعامنا وشرابنا ، نحفظه ونرعاه ونعتقه

ونحفظ به كما نحفظ ونقدس التراث . كل ما فى الأمر يا عبد الحليم ويا نزار
ويا قارئة الفنجان .. أتى أنا هذه المرة ألمح الحزن وقد أخذ سواده الفحيمى
يتحول إلى جمره نار والفنجان من كثرة ما حمل فيه من بن أسود قد أخذ
قاعه يثقل ليستعد للاعتدال ..

رأس الملك الأبيض

كش ملك .. مات . يا لعبقرة اللاعب الذى أنهى وجود كل قواتك تقريبا .. ملك ووزير وأحصنه وطايبات وأفيال وعساكر ، بحركة صغيرة ، بحركتين ، بثلاث على الأكثر ، تجد ملك (الأبيض) قد اختنق في خانته تماما وانتهت اللعبة . أنت مثل لا تتقن الشطرنج وأنا مثلك لا أتقن السياسة ، ولا أعرف التفاصيل ، وليس عندي جهاز معلومات أو اطلاعات ، ولهذا فنحن سنلتقي حتما عند هذا الجهل وبالجهل المشترك .. فنحن في سبيلنا إلى إعادة النظر في مشكلة مثيرة ، مهمة وحيوية .. وأخطر قضايا العصر على الإطلاق بالنسبة لنا ، ليس بالنسبة للعالم العربى فقط وإنما حتى بالنسبة لأخص مشاكلنا الداخلية في كل بلد .

نحن في سبيلنا إلى رؤية القصة (اللبنانية الدامية) من وجهة نظر عربية وجديدة علينا تماما ، وجهة نظر متفرجين بعيدين تماما عن الاندماج .. ليس لأن هذه النظرة هي الطريقة (العلمية) الوحيدة (لإدراك) حقيقة ما حدث ولماذا حدث ما حدث ولماذا يظل حادثا ما يحدث ؟ .. وسيظل ، ولكن ، لأننا أيضا وبصراحة هكذا أصبحنا فعلا وبحكم الواقع متفرجين .. وإلا ، فقل لي بدمتك ما هو دورك أو دورى أو دور أى مواطن ، هنا أو هناك ، في هذا الذى يحدث في لبنان ؟ .. أنت لا تتحرك وأنا لا أتحرك .. هي تقرأ وتمصص الشفاه .. وهو تولت أرقام

القتلى المتوالية كل يوم تنويم إحساسه مغناطيسيا بحيث يتلقاها كما يتلقاها النائم ، أضغاث أحلام . هجوم جديد . مائتان وخمسون قتيلًا وكذا مائة جريح . وكأنها أرواح ودماء مئات الدجاج وليس البشر .. المشكلة إذن خرجت من يدنا ، بل هي أخيرا لم تكن في يدنا .. وكان الزعيم اللبناني كمال جنبلاط لاذعا تماما ومندوب إحدى مجلاتنا يسأله : ما رأيك كيف ستكون نهاية الحرب في لبنان وماذا يترتب عليها من نتائج ؟ كان خفيف الدم تماما وهو يقول : اسألوا الفلكيين في مصر .. يقصد العبقري الفلكى أو التونسي الفلكى لا أعرف .. إذن هذا هو أحد أطراف المعركة الرئيسية ، هو الآخر مثلنا ، خرج الأمر من يده .

بل حتى ولو توقفت الحرب في هذه اللحظة . الآن مثلا — وهذا احتمال مستبعد طبعًا ، أنكون قد خرجنا من المستنقع اللبناني سالمين ؟ أم نكون قد خرجنا بأكثر عدد من الضحايا شهدته ساحتنا منذ حروب التار والحروب الصليبية . ومنا فينا ، وبأيدينا خرجنا مشخين بأشبع ما تزدهم به الصدور من جروح وضغائن ، خرجنا بخسارات ضخام لا يمكن أن نقين مدى ضخامتها وبشاعتها الآن وربما في المدى القريب .

الجرح اللبناني إذن مغور (الآن) في صدورنا ، حتى لو توقفت الحرب .. ولأن الكارثة حدثت ، والحادثة تمت ، فلا يبقى الآن لمتفرج مثل ومثلك ومثل الزعماء : كمال جنبلاط وياسر عرفات ، مثل حافظ الأسد وبيار الجميل وسركيس ، مثل مواقف مصر والسعودية والكويت وليبيا والعراق والجزائر ، مثل مواقف المائة والعشرين مليون عربى ، إلا أن نعرف كيف خدعنا وكيف أمكنهم أن يفعلوا ذلك ولماذا تفعل ذلك

بأنفسنا، لالتذكراها عبرة طوال التاريخ المقبل، وإنما لتدبير الحادث لكل منا الآن، في كل بلد عرقي وليس على مستوى السلطة والقيادة في كل منها، وإنما حتى على المستوى الفردي الشخصي الذاتي، لي ولك ولها وله.

فما حدث خطير .. خطير .. خطير ..

وما يحدث وما يمكن أن يحدث أخطر .. وأخطر .. وأخطر ..
ولتدبير ما حدث ..

ولكي نتدبر نتعلم معا لعبة الشطرنج ..

في لعبة الشطرنج يكون أهم أهدافك أن تخفي (هدفك) عن عدوك ، وقد لعبتها قواتنا المسلحة المصرية ببراعة في عبور ٦ أكتوبر فلم تتصور إسرائيل للحظة أن هذه التمرينات الروتينية على عبور القنوات (الصناعية) والطبيعية يمكن أن تنقلب في ساعة صفر إلى عبور (حقيقي) .

إخفاء الهدف — إذن — أمر مهم تماما . ليس فقط في لعبة الشطرنج ، وإنما في لعبة السياسة والحرب والاعتيال . فنحن نحيا في عصر الغدر . انتهى تماما عصر (إعلان) الحرب واللقاءات الشهمة فوق أرض المعركة .. فالقدر أقوى الأسلحة ، وبالقدر حاربنا إسرائيل كل حروبها .. بل وعقدت أحيانا هدناتها واتفاقاتها ، ومنهم تعلمنا وستعلم أكثر . ذلك أن الغدر طريق لا نهاية له ، فإخفاء النية يمكن أن يتخذ أشكالا لا عد لها ولا حصر .

والحق أني مثل غيري من ملايين المواطنين ، لم أتصور أن هذه الاحتكاكات الأولى في لبنان يمكن أن تصل إلى قمة المأساة التي نقف فوقها أو تحتها اليوم .. ذلك أنها كانت تشبه حركة العسكري أو البيدق الأولى . حركة بريئة لا يقصد بها سوى التقدم خطوة . لا يمكن أن نتصور أن هذه الحركة ما هي إلا مقدمة لإفساح مجال (الوزير) الأسود كي يتنقض . وحتى لو تابعت حركة الوزير فلن تفتن أبدا إلى أن الهدف النهائي هو رقبة الملك (الأبيض) وكلمة : كش .. مات .

لن أقول الآن من هو الملك (الأبيض) . ومن هو الوزير (الأسود) فنحن نحاول حل معضلة ، أو ربما استخلاص قانون . وفي مجال العلوم يحدث هذا بتجريد الأشياء والموجودات من محتواها المادى والمعنوى وإحالتها إلى رموز رياضية وحلها كمعادلات رياضية بحتة .

ولنح الآن قد جردنا الرقعة من الجشث ، ونظفناها من الدماء لنرى الأبيض من الأسود فيها ، وأحلنا القوات إلى رموز شطرنجية ، وإذا كنت سأذكر اسم هذا اللاعب أوداك ، أو اسم تلك القوات أو تلك فأرجو أن تجرد الأمر أيضا من فكرة الاتهام ذى الوثائق والحيثيات ، ذلك أننا الآن لا نحاكم ، بل حتى لا نتقاتل ، نحن كما أود أن أذكر مرة أخرى ، نراقب (اللعبة) .. وكيف (لعب) بنا ، (بضم اللام أو فتحها ، أنت حر) .

بدأت الثقلة الأولى .. تحركت القوات الخفية حركة .. رد اليسار اللبناني .. عسكرى بعسكرى .. أكل العسكرى عسكريا .. انطلقت

الأفلام المحيطة في الصحافة العربية تتحدث عن الصراع بين (اليمين) و (اليسار) في لبنان ، باعتبار المشكلة مشكلة (طبقية) .

(من المهم على أن أذكرك معي بأن الهدف الخفي كان — وربما لا يزال خفيا — وهو : كش ملك .. مات .. للملك الأبيض) .

بدأنا إذن نتناول نحن ، أقصد عباقرة المخللين والمنظرين والعارفين بيوطن الأمور ، نتحدث عن الصراع بين اليمين واليسار في لبنان . عن اليمين الغني الذي يملك كل شيء ، وعن اليسار المظلوم المهضوم الذي يسيطر على جماهير واسعة من الشعب اللبناني .

وما دام الأمر هكذا ، فالمقاومة الفلسطينية كانت حكيمة جدا حين أعلنت بصراحة ووضوح في هذه الأيام القليلة جدا الأولى ، أن هذه مشكلة لبنانية داخلية ، وأنها — المقاومة — تبقى بعيدا عن ساحة الصراع الطبقي اللبناني .

ولكن لأن هذه لم تكن إلا الخطوة الأولى ، فقد كان لا بد أن تعقبها الخطوة الثانية البسيطة جدا . وهي إضافة كلمة الماروني إلى اليمين والمسلم إلى اليسار ، وهكذا صعد الصراع إذن إلى مرحلة أن أصبح بين اليمين الماروني واليسار المسلم .

إذن المشكلة التي بدأت (طبقية) أو أوحى إلينا أول الأمر أن المشكلة طبقية ، سرعان ما تحولت إلى مشكلة طائفية ، لماذا ؟ لكي يستدعى إلى ساحة المعركة كل التراث الطائفي الذي يلتهب من زمن تحت الرماد .. كل الثعرات والصراعات والصغائر الطائفية اللعينة الكامنة منذ مئات السنين والتي — للأسف — لم تتول فكرة وطنية حقيقية إذابتها وإزالتها

من الوجود ، تدفقت مرة واحدة إلى الساحة وبغزارة متزايدة . وبدا كأن الحرب أصبحت تماما بين — ليس المارونيين والسنة

والدروز — وإنما بين المسيحيين أجمعين وبين المسلمين أجمعين .

وهكذا كما توسعت رقعة الاستقطاب العالمي . فأى مسلم بطبيعة الحال لا بد أن ينصر المسلم ، وأى مسيحي بطبيعة الحال لا بد أن ينصر بقلبه المسيحي ، وأصبحت صحف وإذاعات وتلفزيونات العالم ونحن من يشهده ، تتحدث عن الحرب الصليبية الجديدة بين المسيحيين والمسلمين . كل ما في الأمر أنها حرب صليبية عربية هذه المرة ، زيتها في دقيقها ، وشهداؤها هم القاتلون والقتلة معا .

هنا كان لا بد أن تأتي الحركة من جانب المقاومة .

(وأيضا لا تنس معي أن الهدف النهائي هو اغتيال الملك الأبيض) .. فإذا أبت المقاومة على موقفها (المحايد) من هذا الصراع بين اليسار (ولو كان مسلما) وبين اليمين (ولو كان مسيحيا) . لو وقفت على الحياد بين التقدم والتأخر ، وبين التحرر والتبعية ، إذن لفقدت صفتها كمقاومة وقيمتها كقوة ثورية غاية ليس في لبنان وحده بل وفي المنطقة العربية كلها .

إذن لا بد أن تأخذ المقاومة موقفا .

لا بد أن تتحرك قطعة الشطرنج . فالهدف الخفي الأول (إذ دائما هناك الهدف الأعمق والأعظم) هو إخراج المقاومة من جيوبها وخنادقها واستحكاماتها إلى الساحة المكشوفة .. الهدف .. حررها .. بحمد الرجل ، وستتوالى الحوادث والأحداث وتصعيد المواقف ، وستتوالى

اللاعب العبقري ، مهمة التحريك . وفي الوقت المناسب ، وخلق الظروف التي لا يمكن معها إلا أن تتحرك كما يريد هو حتى ولو لم ترد أنت .
(برقم راجعوا هذه الجملة مرة أخرى ، وخصوصا أنتم يا ساداتنا الساسة) .

وجود الناس في أرض الناس ، حتى لو كانوا أهلا وأشقاء ، دائما أمر وإن احتمل لفترة فهو أمر مستقل . ووجود الفلسطينيين في لبنان ليس مسألة طارئة أو تاريخية يرجع ربما إلى سنوات ثورة ٣٦ وقبل ٤٨ بكثير . وجاءت الحروب المتعاقبة بآلاف جدد من المهاجرين ، ثم كان من المحم أن يصبح الوجود (مسلحا) ليدافع عن نفسه لقصور الجيش اللبناني الرسمي عن حماية حتى اللبنانيين في الجنوب أنفسهم . وهكذا نشأت التنظيمات المسلحة وعلى رأسها (فتح) والجبهة الشعبية بل و (عرب) التسليح وخلق منظمات وتنظيمات وعشرات (الجبهات) المتحدة والوطنية والثورية والفوقية والتحتية ..

أقول هذا كمقدمة لا بد منها لكي أقول إن جر ساق المقاومة الفلسطينية كان معناه دفع كميات وافرة من مخزون الحزازات التي قامت بالنسبة للوجود الفلسطيني على أرض لبنان . آلاف الحزازات الصغيرة والكبيرة يضاف وملتها إلى الحزازات الطائفية والعرقية والعشائرية والمارونية والسنية والأرثوذكسية والدرزية والشيعية والعلوية والكاثوليكية والغربية والشرقية والعربية والعراقية والسورية والبحية

والشيوعية والقومية والشعبية والفتحية والصاعقية والنضالية والأيلولية الأسودية ، إلى آخر قائمة لا تنتهي ويبدو أنها لن تنتهي أبدا ..
وإننى — في أسى هائل — لأأمك إلا أن أعجب بعبقرية اللاعب فقد (ضحى) كما يقولون في الشطرنج ، في هذه الحركة ، جر ساق المقاومة ، بثلاثة أرباع الرقعة .

استطاعت القوات الفلسطينية ، اللبنانية التقدمية أن (تكتسح) في أسابيع قليلة وتستولى على ما يقرب من ٨٠٪ في المائة من مساحة لبنان وبدا كما لو كان لبنان موشكا على الوصول إلى رحلة (الديمقراطية الشعبية) بقيادة كمال جنبلاط وياسر عرفات . أقول (بدا) لأن هذا هو المهم . فقد كان من المهم تماما أن تنجر ساق أكبر إلى ساحة الرقعة .. ساق سوريا (التقدمية) وإلى جانب من ؟ . إلى جانب اليمن و (ضد) القوات التقدمية المتحالفة .

أليس — بدمتكم — لاعبا عبقريا ، ذلك الذى اختزن السلاح (الشيوعي) الروسى ليضرب به القوات (التقدمية) في لبنان ، وروسيا جالسة كالدب الكبير الحائر ماذا يفعل ؟ بينا الآخر ، (يلعب) وأى لعب يلعب .

ولكن هذه كانت مجرد حركة ، ولا تنس معنى في النهاية أن الهدف هو رأس الملك الأبيض .

ألفان من الجنود والمعدات ، ثم أربعة ، ثم خمسة ، الساق تقوى ، الساحة العربية تصطبغ وتجاو وتثور وتقوى . الدنيا كلها قامت ولم

تقعد ، الحرب التي بدأت (طبقية) لبنانية محضة تصبح بعد قليل حربا طبقية طائفية إسلامية مارونية ، ثم حربا مسيحية عينية ضد تحالف إسلامي تقدمي ، ثم حربا إسلامية علوية مارونية سورية كاثوليكية ميليشية جبيلية شيعونية فرنجية ضد قوات تقدمية بعثية شيوعية درزية شيعية سنية فلسطينية لبنانية ليبية عراقية جزائرية مغربية سودانية .. الخ ..

الهدف اغتيال المقاومة الفلسطينية ..

وكل ما سبق وحدث إنما هو الانقلاب . صحيح أريقتم دماء وولدت جراحات لا تندمل ، ولكن ، لا الهين الليبي بكل فئاته ولا أي قوة أخرى داخل لبنان أو حتى خارجه كان باستطاعته أن تقوم بهذا العمل القذر .

كان لا يمكن أن يحدث هذا إلا على يد جيش حديث مدرب ، وعربي ، وهذا هو المهم تماما ، ليس مهما أن يكون الخنجر من واشنطن أو موسكو ، إنما المهم أن تكون اليد (عربية) . لتكون الجريمة كاملة ، بحيث لا يمكن أن يترك الفاعل الحقيقي أثرا ، وبحيث من الممكن ليس فقط أن تباد المقاومة في لبنان ، وإنما أن يخفى أثر الوجود الفلسطيني في العالم العربي ، ويباد ، بأيدي عربية أيضا ، بحيث أن ما يحدث في لبنان يتكرر وبأشكال أخرى في بلاد عربية أخرى بل وعلى مستوى عربي عام ، الحساسيات اللازمة موجودة ومتوفرة بكثرة ، المناخ موجود ، الصراعات الرهيبة قائمة وموجودة التفاوت الطبقي والصراع الطائفي والعرق والعشائري بخير كثير والحمد لله .

والآن الملك الأبيض فوق جبل لبنان ، وحده ، في خانة السيك

الأخيرة . والوزير وإن كان أبيض إلا أن ما سمينه الوزير الأسود يقول ، دون أن يقول ، فهو لا يقول ، إنه فقط (يحرك) ، بلا كلام ، والشطرنج أبدا ليس في حاجة لكلام ، يقول كش .. مات . يقولها بخنجر (رومى) ويبد (عربية) وأمام الملاء كله . وكأنما هو ضامن أن أحدا لم يعد يستطيع شيئا ..

أكان غلاة التخيلين يتصورون هذا ؟
أكان أحدا في عام ٧٤ أو ٧٥ أو حتى أوائل ٧٦ يتصور أن المقاومة ستقتال في لبنان ؟ ..

هذا التداعى الخطير للأحداث ، هذه ال Master Plan .
هذا الإخفاء الخطير للهدف ..
كيف (لعب) بنا ، كلنا ؟ ..
وكيف لا يزال (يلعب) بنا ..
إن اللاعب على وجهه قناع ، لا أستطيع أن أثبت تماما من هو . هل ، هل تستطيع أنت ؟ ..

تبدأ الألعاب كلها في لعبة الشطرنج بنقلة ..
وفي (شطرنجنا) العربي كما رأينا ، يبدو أن الموضة أصبحت أن النقلة الأولى هي إطلاق صرخة : الذئب الذئب .. اليسار اليسار . الهين ..

أم أني جاهل في السياسة مثل جهلك في لعبة الشطرنج ؟ ..

الفورى لكل ما أراه يصلح من أفكار أو مشاريع ، إقدام لا حذله ، اندفاع ، أعقل اندفاع مجنون فى اتجاه المستقبل وتحقيق الذات ، وتطوير الزروة لتصبح اكتشافا وخطة .. باختصار حياة مليئة كاملة ، أضرب فيها بأذرعى لتصل إلى أقصى المعمورة وأخلق فيها بأفكارى لتشمل مجرتنا كلها وتغوص أقدامى إلى أعماق أعماق تاريخى وتاريخ العالم ، وترتفع لتخلق فى القرن الخامس والعشرين وزبما الثلاثين ..

هكذا أكون وأنا مسافر ، وأنا بالخارج ، وأنا بعيد ، وأعود ، وبقوة الاندفاع الذاتى أبقي هكذا للأيام الثلاثة الأولى أو ربما للأسبوع الأول ، مسافرا لا أزال فى الأكوان الخاصة والعامة ، خلأقا ، قادرا على تحقيق ما يجول بالخاطر ...

ثم يبدأ الدقيق الناعم ، الرمل الخفى الأصفر ، التراب الذرى المطفأ ، يتسرب .. فى العادة كنت لا أحس ولا أعي بمقدمه ، إن هو إلا هبوط تدريجى يبدأ يصيب الهمة ، تأتى الفكرة فأولجها إلى أن (يروق المزاج) بالليل ، وبالليل يأتى ما يؤجل روقان المزاج ، يعنى إلى المشروع فأقول : هذا ليس بعاجل ، وذلك ممكن تأجيله ، وما فائدة أن يبدأ الإنسان شيئا (مجنونا) كهذا ، الحياة سائرة وكل شيء ممكن أن يمضى هكذا سائرا وحده إلى الأبد ، يبدأ الغبار فعله ويبدأ الإنسان (يطمئن) إلى الواقع ، ثم (يركن) إليه ، ثم (يتلاءم) معه ، ويفقد الطموح فى تغييره أو الإطاحة به . تبدأ الأفكار تقل ثم تندثر ثم تتلاشى ، وقوة الخلق تتضاؤل ، والكتابة التى كانت مبهجة ورائعة متألفة كالأهداف الساطع الجميل تصبح عينا ، ويوه .. لسه ح أقعدع المكتب لأربع أو خمس ساعات

أحقا أحلى مذاقا من العسل !؟

لا أعرف ما هو سر ذلك الدقيق أقول الغبار الميثط الذى يتسلل داخل وحول خلايا جسد الإنسان ونخه فى بلادنا . كنت وأنا مسافر — ولم يمض على سفرى هذا أكثر من شهر — وأنا أنظر من نافذة الطائرة أو العربة أو القطار ، وأنا سائر أبحث الخطى فى قلب شوارع لندن أو باريس أو حتى قرية أوربية نائية ومتواضعة ، كنت وأنا أرى الغابة أو النهر الصغير ، وأنا أرى الشاب والفتاة والرجل والطفل والمرأة سائرين هائمين مسرعين فى الشارع ، كأن عقلى يشبه معمل الأفكار المزدهم ، تتوالد فيه الأفكار بمعدل فكرة فى كل دقيقة ، وترتبط وتتناغم ، ثم فى أحيان كثيرة أخرج باستنتاج رائع هائل ، تغد إلى الموحيات والأفكار وكأنها طيور النورس قادمة فى أفواج تلو أفواج لبحيرة عقلى المليئة بالسمك والطعام تصفق بأجنحتها وتمهف وتضطخب ، تزغرد وتلهو وتتعاث وتتلأحح ، تصعد فى السماء وتهبط إلى الهدف فى سرعة انقضاض البرق . أكثر من عشرة أفكار قصص قصيرة تعنى لى ، مشاريع لتغيير مجرى الحياة تماما ، مغامرات فكرية ونفسية تنفجر فى أعماق ، إقبال على الحياة منقطع النظير ، خطط لمدى بعيد وقرى ، تجميع لماضى وحاضرى ومستقبل يلتقى عند النقطة التى تركز وتقطر العمر وتحصل منه على ثمرة أو تراجع موقعه من الكون أو الحياة ، حركة دائية فى اتجاه التحقيق

ويؤوب الإنسان في النهاية إلى حالة (الموت — الحياة) .. التي نحياها جميعا .

كنت أظن أن هذه حالتى الخاصة ، ولكنى وجدتها الظاهرة العامة المستشرية ، هناك شيء ما ، حقيقى ومروع وخطير ولكنه غير مرئى أو مسموع قائم فى حياتنا ، بيننا نتنفسه ونزفره ، ونعدى به بعضنا البعض ، نرتديه ونركبه ونلبسه ونطعمه ، شيء ما لست أدرى كنهه ، ولكنى أعرف تماما مفعوله ، شيء مشيط أو كاسر للهمة ، ومخمد للطموح ، ومضيق للهدف ، وخائق لكل فكرة ومشروع ومُشَل ، قائم ومائل فى حياتنا : وهو ليس — كما يتصور البعض — خاص بمصر وحدها ، ولكنه الجو العام فى شرقنا العربى وغير العربى كله ، شيء وكأنه الأنزيم ضد النشاط وكأنه الطعم الواقع من العمل والتفكير ، وكأنه قد أصبح الخاصية القومية التي تميز مرحلتنا (المجيدة) الحالية .

ما هو ذلك الشيء ؟ ..

أهو فقدان الهمة الفكرية القيادية الموحية ؟ ..

أهو هذه الأعداد الهائلة من البشر التي معها يجب المواطن منا الإنسانية مجردة ولكن بالتأكيد يكره (الإنسان) ، أو يكره هذه الكتل المترصة من الإنسان ، تحيل ذلك الكائن الراقى النادر ، أرق وأعظم وأجمل ما فى الوجود ، إلى مجرد رقم عشرين كبير ، حبذا لو يختصر معظمه أو يختفى أو يندثر ليبقى للتفرد البشرى قيمته وروعته ومجده ؟ ..

أهى الشمس الحامية الساطعة التي تجعل الواقع مضيئا تماما بكل ما فيه

من بشاعة وقبح بحيث ينعدم الجمال تماما أمام العين ، وحين لا يرى الإنسان الوجود جميلا ، أو يراه قبيحا . يتولى القبح أو انعدام الجمال إخماد حاسة الهمة والنزوة والخلق لدى الإنسان ؟

أهو الكسل الجماعى المسيطر ، يعدى ، كالأنفلونزا الآسيوية ، وحين ترى الناس جميعا كسالى أو متكاسلين ، فأى مبادرة منك لا بد مصيرها الاختناق والإهمال ؟ ..

والكسل الجماعى هذا فى رأى نقطة هامة ، إذا كان بعض الناس يفسرون التاريخ بالعوامل الاقتصادية ، وهناك من يفسرون التاريخ بتفسيرات نفسية ، فإن لى تفسيراً لهذه المرحلة من تاريخنا اسمه التفسير الكسل للواقع والتاريخ . كل شيء ممكن أن نفسره بالكسل حتى استلقاء متفرجنا فى مسرح أو سينما أو أمام تليفزيون ليتفرج على عمل (فنى) عبيط بقبهقه له فقهقات حنجرية جوفاء سببه الكسل عن أن يقرأ كتاباً أو يشهد عملاً يضطر معه أن (يعمل) عقله فيه و (ينشط) .. حتى التحليل والاخلال لنزوله باستسلامنا كسالى للذة لا لذة فيها :

أم يكون السبب أننا مطحونون تقديريا ، سواء التقدير المادى أو الأدبى . بحيث يتساوى من يعمل بمن لا يعمل ، وبحيث أن من يعمل لا ينال إلا الفتات على ما يعمل ، ومن يكسب حقاً هو من يرش أو يرتشى أو يختلس أو يتاجر فى السوق السوداء.. أو يأخذ العمولة ، وكلها أكسل الوسائل للحصول على النقود . فهى ليست رأسمالية طموحة نشطة تقيم المصانع وتغذيها إرادة هائلة لبناء صناعة أو تجارة أو مشروعات ، وإنما هى رأسمالية كسولة هدفها الربح من أكسل طريق ..

العربية ، التي قدمتها فرقة المسرح القومي في باريس .
 وكانت الحفلة فوق حدود الروعة ، مباراة خطيرة في الأداء والتجويد
 بين أكثر من قمة من قمم التمثيل المسرحي عندنا ، سميحة أيوب عبقرية
 الحضور والأداء المسرحي الجديدين ، أمينة رزق تاريخ المسرح المصري
 ولا تزال جزءا كبيرا من حاضره ، عبد الله غيث ذلك العملاق ، فردوس
 عبد الحميد تلك الطاقة الهائلة مسرحا وصوتا جميلا ، وكان العيب شاقا
 على الشاب الجديد محمد العربي وسط هؤلاء العمالقة ولكنه استطاع أن
 يتشأخ ويصمد بأدائه ، صديقه ذلك الذي للأسف لا أذكر اسمه ، ليلة
 عربية فعلا ، في قلب عاصمة المسرح في العالم ، شيء لا بد يدفعك إلى
 أن تحس بفخر أن عندنا مواهب ، لا تستطيع فقط أن تقارب بالمواهب العالمية
 ولكنها في أحيان تيزها وأحيانا في قلب عاصمتها . كنت حاضرا لتوى من
 ندوة عن آداب الشرق الأوسط بدعوة من الدكتور طلعت هلمان وزير
 الثقافة السابق في تركيا والأستاذ بجامعة برنستون الأمريكية حاليا ،
 والذي أقام وبرعاية من الأستاذ مورير جر رئيس قسم دراسات الشرق
 الأوسط بنفس الجامعة ندوة عن الأدب العربي وآداب منطقة الشرق
 الأوسط بالتعاون مع نادى القلم الدولى بنيويورك ، ندوة حافلة برئاسة
 المسرحى الأمريكى آرثر ميللر وحضرها عدد كبير من الكتاب والشعراء
 والمسرحيين الأمريكيين مثل جون إيدايك وميرون وإدوارد إلبسى
 مؤلف : من يخاف من فرجينيا وولف ، وسأحدث في مرة قادمة بتفصيل
 أكثر عن هذه الندوة الهامة ، ولكن ما أريد الآن قوله أن الأدب العربى
 كان ممثلا في هذه الندوة بالأستاذ يحيى حقي والدكتور إحسان عباس

أم هى المشاكل الصغيرة الصغيرة التى تستحيل كل منها إلى مشكلة
 كبيرة كبيرة حين لا تستطيع أن تجد لها حلا ، وتتولى ، كذرات الدقيق
 والرمل والغبار الصغيرة والكبيرة الترسب في مفاصلك الفكرية والنفسية
 لتحيلك في النهاية إلى ذلك الكائن المقعد إراديا أو بلا إرادة ، المتكلم على
 الله في النهاية أن تحل المشاكل نفسيا وما عليك إلا أن (تصبر) عليها .
 وآه من ذلك الصبر الذى يحفل به تراثنا الفكرى والشعبى . إنه ذلك
 العدو القاتل للإرادة وللعزيمة . الصبر . ذلك الاستسلام للمرض
 البغيض للمشكلة حتى يموت طموحك لحلها ، ذلك الاعتماد المتهاون
 على (الزمن) لكي يحلها أو يهلك أنت وتحلل معه عزيمتك .
 أفى تراث أى شعب في الدنيا مثل يقول : الكسل أحل مذاقا من
 العسل .. إلا ذلك التراث العظيم . تراثنا .

أم هذا كله ، مرة واحدة ، ومعا ، يكون ، ذلك الدقيق أو الغبار
 الذى يتسلل داخل وخارج وحول خلايا مخك وإرادتك وجسدك ،
 ويحلبنا إلى تلك الأشولة البشرية السميئة تتحرك في ببطء قاتل إلى
 اللا هدف واللا خطة واللا عجلة ولتصنع في النهاية اللا شيء ؟ .
 فيدرا .. وفريدة ..

الحظات قليلة نادرة هى تلك التى تدرك فيها عظمة وروعة الانتاء ،
 ليس الانتاء فقط ، وإنما ما هو أرقى بكثير .. ألف إحساس وإحساس
 راودنى وأنا مزدحم مع أكثر من مائة مصرى ومصرية وعربى وعربية في
 الغرفة الصغيرة الملحقة بجناح الممثلين في مسرح (الأوبرا كوميك)
 بباريس في أعقاب ليلة الانتاح لمسرحية (فيدرا أرايكا) أى فيدرا

والشاعرين الكبيرين أدونيس وعبد الوهاب البياتي وكاتب هذه الكلمات ، ناهيك عن (سفيرة) الأدب العربى الدكتورزة منى ميخائيل التى قامت بعملية الانتقاء والترجمة .

التأاذج الشعرية والقصصية والنقدية العربية التى قدمت أذهلت الحاضرين ، أمريكان وغير أمريكان ، حتى لقد جعلتني أحس أن أدبنا العربى الحديث مظلوم فى عالمنا المعاصر ، ونحن أول ظالميه ، فعن لا نبذل جهدا فى ترجمته إلى اللغات المنتشرة ، وتشجيع طبعه وتداوله فى كل أنحاء العالم . إنه مفخرة لأى شعب متحضر تكاد تنحصر فيه كل إسهاماتنا فى الاختراع والابتكار والإضافة إلى التراث الحضارى العالمى .

كنت حاضرا من ندوة أحسست فيها — ربما لأول مرة — بالفخر أنى كاتب وأنى كاتب عربى ، وهأنذا الآن فى مهرجان مسرحى مصرى فى اللغة العربية فى قلب باريس . لحظة من اللحظات القليلة التى ترى رأسك وقد شمتحت ، وتعالى فوق أمواج المحيط المتلاطم من الضياع التى تخيم فيها فنوننا وآدابنا وعلومنا وإنساننا بشكل عام ، ترفع رأسك عن جدارة .. وعن إحساس قوى أننا ممكن ، بل نحن فعلا ، شئ كبير وعظيم فى هذا العالم .. والقاعة مزدحمة ، والتدخين كثير . والحضور فى بهجة لامعة بالعرق والتأثر والانفعال والضحكات والضحيات والقبولات والأحضان ، نهنىء بعضنا البعض وكأنما نكتشف أنفسنا لأول مرة . سعيدون تماما أننا نحن .. وأنا هنا .. وأنا نصل وسنصل ..

كنا هكذا حين قابلنى الصديق الفنان سعد الدين وهبة رئيس البعثة الفنية إلى باريس : أتعرف هذه السيدة الواقعة هناك ؟ ..

نظرت إليها بإمعان . وهزرت رأسى ببطء ، فلم أكن أعرفها . قال : هذه هى (الملكة) فريدة .

— الملكة فريدة ! ..

فى الحال انشقى فى ذهنى شريط طويل من ذكريات مريعة عن عصر الملكية ، والملكة الجميلة الأولى ، وفاروق ، والطفل الصغير الذى كنته .. وأنى يرفعنى فوق أكتافه فى ميدان الأوبرا لأشهد موكب التتويج ، ثم الزواج ، وتلك الصورة التى كانت تباع بقروش للعروس الملكة والتى اشتريتها وعلقتها فى عروة جاكيتى الصغيرة .. إذن هذه هى الملكة فريدة ..

قال سعد الدين وهبة : أعرفك بها ؟!

وقدمنى إليها ، وفوجئت أنها لا تعرفنى فقط وإنما تواظب على قراءة ما أكتبه وما يكتبه المصريون والعرب .

ومرة أخرى عاد الشريط يلف فى رأسى بعد أن أصبحت الملكة الرسمية وبدأت صورها تظهر فى الصحف صور (رسمية) جامدة . جميلة .. هذا صحيح .. ولكنه ذلك الجمال المتعالى والذى يجب أن يكون ملكيا ومتعاليا ، باختصار .. غير إنسانى .. وأستغرب أنا وأتألم وقد فقدت فى رأيى البنت الحلوة التى كنت أعلق صورها فى عروقى ، وهما هى قد أصبحت (ملكة) .. لا يبدو على وجهها — رغم ابتسامتها — أى سعادة بالمره .

والآن ها هى أمامى .. سعيدة كما لم أر إنسانة سعيدة هكذا . وهى الهالة الملكية قد غادرتها إلى الأبد ، وهى



ترسم ، وقارئة ، وقادمة مثلها مثل أى فنانة أو مواطنة عادية تحتفل معنا بفريق المسرح القومى . وعهنتنا وتأخذ معه الصور ..
هالنى ذلك البريق السعيد الذى كان يشع منها ورحت أحاول تفسيره ..

ولم أعجب كثيرا لأفسره .. إن السلطة كالثراء الفاحش قاتلة لإنسانية الإنسان ، فهى تبعده عن البشر ، وتمنع عنه الالتئام ، وتحيله إلى كائن مكتئب وحيد ، عليه أن يكون وحيدا وبعيدا لكي تحفظ له حالة السلطة والثراء . وهذا أبدا ليس من طبيعة البشر ، فى حاجة للالتئام ، فى حاجة ماسة أن يكونوا (عاديين) ليكون لهم إحساس البشر ، وحس البشر ، وطعم البشر ، وإنسانية البشر .

ها هى المواطنة فريدة سعيدة ، أسعد ألف مرة عن كونها متوجة أو ملكة ، فهى أخيرا قد وجدت قبيلتها البشرية والإنسانية ، أخيرا قد أصبحت امرأة وفنانة ومنتمة وسعيدة بعاديتها ، سعيدة أنها (وسط) مواطنيتها وليست (فوقهم) ، سعيدة يشع قلبها بسعادة لم ترمثلها وهى شابة ، جميلة رغم تجاعيدها ألف مرة أكثر من جماها وهى فى العشرين ، مبتسمة هذه المرة ، ليس (كبوز) ملكى . وإنما ابتسامة بشرية تابعة من أعماق أعماقها .

ألا ما أحق هؤلاء الذين يتكالبون على السلطة ويفقدون كل ما يجعلهم بشرا ليحصلوا عليها ويحتفظوا بها ، إذ فعلا يحصلون على القوة والثفوذ ولكن مقابل أن يموت فيهم كل ما هو جميل وإنسانى .. وكل ما يجعلهم فعلا ومن أعماقهم سعداء ..

من واحد إلى ٨٠٠ مليون

لم أحزن لوفاة ماوتسى تونج ، ذلك أن الإنسان لا يحزن لغروب الشمس بعد أداء وظيفتها . كنت ألحظه فى اللقاءات القليلة التى كان يلتقى فيها برؤساء الدول وكبار الشخصيات ، وسمعت تعليقا أو تعليقين من بعض من قابلوه — وكنت أقول لنفسى : لقد كبر الرجل الظاهرة وشاخ ، وأن له أن يستريح .

ولقد استمعت إلى نعى جمهوريتنا وتقريبا كل دول العالم له ، وقرأت بعض ما كتبه كبار المعلقين والكتاب . ولكنى ظللت لأحس أن ذلك الجزء من نفسى الذى يمت إلى ماوتسى تونج قد لمس أحد . ذلك أن ماوتسى تونج كان أستاذى ، أعظم أستاذنى على الإطلاق فى شىء محدد بعينه رغم أنى لم أقرأ له إلا كتابا واحدا لم يعجبني كثيرا ، ليس لأنه غير جيد ، ولكن لأنه صينى تماما بحيث من الصعب على عقلية مثل عقليتنا أن تفهمه ويعمق كاف معنى الفهم الصينى للاشتراكية وللثورة الصينية .. وكيف يمكن أو يجب أن تكون . بل حتى ما قرأته عنه كان كله بأقلام غربية ومعظمها معادية .. أما المرجع الحقيقى الذى تعلمت منه فهو للغربة : حياته ودوره .

فى قارة كبيرة صفراء : أو هكذا وصفوها ، فاصفراء ما الأكبر كان فى روحها التى توزعت على سبعمائة مليون معطوون فى ذلك الوقت ،

سحقته أقدام أباطرة وحكام غلاظ ، وتسلسل الإنجليز واليابانيون والمبشرون يقضون على ذبالة الروح الباقية ، في مجتمع تستباح فيه المرأة وتباع بيع السلعة ، فقير إلى درجة الموت بالملايين جوعا وبمجماعات ، تائه في بلاده الدائرية التي رغم اتساعها كانت تحتويه كالحق الذي تنكدس فيه ، ملايين الجردان ، تائه في حياته ، تائه في مصيره ، تائه في ثقافته ، تائه حتى بثوراته حين يثور ، وبانتفاضاته حين ينتفض ، وبحكمه الوطني حين يصبح له حكم وطني ، في بلاد كلما قام شعبها سقط وتعثر حتى لقد أصبحت قوله زعيمه الوطني الكبير صن يات صن (سعد زغلول الصين) : هذا مجرد فشلنا الثالث عشر .

في بلاد اليأس الذي طغى بعد فشل الثورة والحكم العسكري بقيادة تشانج كاي تشيك الذي قام في جزء منها والجزء الآخر تحتله اليابان والإنجليز يرحون فيه تجارة ومكسبا وأفيونا ومؤامرات .. بلاد حتى لا يجمعها مثل دين واحد ، بل هي ربما لم تصل إلى مرحلة الإيمان بالأديان ، كونفوشيوس وبوذا : وملة (الزن) وحكم قديمة قدم حكماء قدماء من المصريين ، لكنها مصر في أواخر عصر البطالسة الذي انتهى بتفسيخ مصر القديمة نهائيا وبداية عصور الاحتلال الروماني وما تلاه إلى ألفي عام منذ ذلك التاريخ ، لكنها الجزيرة العربية في أشد عصور الجاهلية جهالة وتفسخا وتخلفا .

في بلاد مثل تلك ، وفي مدينة كشانغهاي ، ميناؤها الرئيسي ، الملاء بالراكب التي تحطف الخير وتجلب وتخلق كل ما هو شرير وفاسق وخارج على القانون ، العاهرات والمهربون والقوادون واللصوص وتجار الإنسان

والراسبون تماما في القاع ، المتعاركون في الخانات ، المخدرون بتدخين الأفيون وطقوسه ، القليلون النائمون في الحرير ، والملايين التي تعيش تزحف ولكي تأكل تلحس وتموت كالديدون دون أن تخلف وراءها إلا العفن .

في مدينة كنتلك يظهر في إحدى صحفها المحلية التي تصدر أساسا لإرشاد (السياح) والبحارة إلى أماكن الفساد ، يظهر إعلان صغير يقول ما معناه : هل فيكم من يود العمل من أجل الصين القادمة العظيمة ؟ هل فيكم من يكره ؟ إذا كان ثمة أحد فليلقني في حانة كذا بشارع كذا في الساعة كذا من يوم كذا .. والإمضاء ماوتسي تونغ .. مواطن ..

ولا أعتقد أن (المواطن) ماوتسي تونغ فوجيء كثيرا حين لم يجد أن من لبوا نداءه لم يتعدوا الأربعة (منهم تشو تشو تشو وآخرهم توفي قبل ماوتسي تونغ بشهور ، أولئك الذين أصبحوا فيما بعد) من عمد الحرب الشيوعية الصيني (من هؤلاء الأربعة أو الخمسة الذين التقوا في ذلك المساء في حانة صغيرة من حانات شانغهاي على ما أذكر ، لم يبدأ فقط تكوين الحزب في الصين ، ولم يتم فقط إلى أن أصبح تعداد قواته ١٣٠ ألفا ولم يحدث الزحف الطويل من أقصى الجنوب المعاصر المضروب في الصين إلى أقصى الشمال بحيث هلك منهم مائة ألف في الطريق إنما بدأت الصين العظيمة الحديثة . تصور : إنسان فرد واحد بادر بنشر إعلان فقير غريب واجتمع على أثره أربعة أشخاص بعد يوم من فقط سودا قيمة الربع قرن في حياة أمة ، بل في حياة فرد دولة واحدة

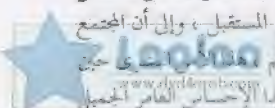


من أعظم وأضخم وأهم دول العالم ، الخيف بعمالقه ، المعاصر .

الفرد له دور عظيم في التاريخ .. فهناك أفراد كثيرون لهم أدوار كبرى في التاريخ . ولكن ، أية أدوار ؟ ذلك هو المهم .. هناك أفراد عظام هذا صحيح .. هناك شخصيات بحكم عوامل كثيرة تمتلك في النهاية صفة القيادة والزعامة ، ولكن ربما غرورهم الفردي ، ربما الظرف التاريخي الذي نشأوا فيه ، ربما عوامل التسوس الكامن في النفس البشرية تجعلهم (يلبون) عنق التاريخ ، ليخضعوا التاريخ .. أقصد تاريخ الشعوب — لمزاجهم هم ، ليفصلوه حسب أهوائهم وشخصياتهم ، هناك الإسكندر الأكبر ، هناك مارك أنطوني ، هناك نابليون وهتلر وموسوليني ، هناك دلاس وستالين وجونسون ، هناك كثيرون .. أرادوا : وفعلا ، (لواء) عنق التاريخ ، ولكن التاريخ كالجواد القوى الأرعن لا يذعن إلا لمن يكون معه وليس ضده ، ولهذا كان سرعان ما يفضضهم ، ويعود إلى مجراه .

ولكن كان هناك ، دائما وأبدا ، هؤلاء الأفراد العظام ، وأنا لا أحب استعمال كلمة عظيم ولكني أحيانا لا أجدها غيرها وصفا ، هناك دائما هؤلاء الأفراد الذين يحكم إخلاصهم ومحاسنهم وقدراتهم وتكوينهم لا يد وأن يصبحوا زعماء ولكنهم أبدا لا يلبون عنق التاريخ وإنما يسرون به ومعه وكأنهم مسيرون ، من إرادة الناس في التغيير يستمدون قدرتهم وإرادتهم على التغيير ، من حيث يتشعرون بأنفهم وحواسهم الربانية الخفية اتجاه رياح الإنسان يتوجهون إلى حيث تريد الرياح ، هناك الرسل

والأنبياء .. وقادة الفن والفكر ، تاريخ البشرية حافل بمجموعة قد تكون قليلة جدا بالنسبة لتعداد البشر في كافة العصور ، ولكنها هامة جدا لأن الواحد منهم أحيانا ينهي عصرا ويبدأ عصرا ، وعلى يديه تنتهي حقبة لتبدأ حقبة ، وإبرادته يتحول شعب ، أو تتحول قارة ، أو حتى تتحول البشرية جمعاء ، من أناس مظلومين ظالمين ، مجنى عليهم وجائين : متفسخين واللا اختلاف واللا تدجيل واللا خداع واللا كذب واللا نفاق .. هذا الكائن البشري العظيم — واعذروني مرة أخرى — لا يفسد إلا رغم أنه ولا يفسد إلا لأن ما حوله وما فوقه وما تحته فاسد ، لا يفسد ، حتى لو أراد ، إلا رغم أنه ، وإلا تحت ضغط ظروف أو مغريات هي أقوى من ضعفه البشري وقدرته الفردية على الاحتمال ، نفس ساقطات الصين وعاهراتها تحولن إلى أمهر العائلات والمنتجات ، والمخدرون بالآفيون تحولوا إلى أوعى البشر ، والظالمون تحولوا بحكم سيادة العدل إلى أعدل العادلين ، واللصوص إلى شرفاء ، والمقهرون إلى أسوياء .. والقاهرون إلى دعاة للحق والخير والمساواة ، ولصوص المواني إلى حماة لثروة الشعب ، والقوادين إلى مدرسين يعلمون البنات فضيلة أن تكون المرأة حرة ، والمرأة لا تكون حرة إلا إذا امتلكت حق تقرير مصيرها ، ومن الرقيق والحريم تحولت إلى إنسانة ، لها إرادة ، وإبرادتها تختار الرجل وتحبه أو تزوجه ، والرجل من أب يختلس ليضمن المستقبل لأولاده إلى رجل حلت به سكينه الأمن إلى المستقبل ، وإلى أن المجتمع كله ، وليس هو ، كفيل بأولاده ومستقبلهم ، هذا الأمن متى حين يحل ، هذا العدل الأرضي حين يوجد . هذا الإحساس العام الجميل



أنك لست عبثاً على أحد وأن أحداً ليس عبثاً عليك وإنما معا وكلنا نحمل ونتحمل ونُدفع ، والإنجيل والتوراة . أليست هي ما تقوله الموسيقى الحقة والصوت الشجي وأذان المؤذن وقرع أجراس الكنيسة . نحن ضعاف هذا صحيح ، فنحن لسنا آلهة ، ولكننا أقوياء تماماً حين نبحث عوامل الضعف ، وأي ممن يبحث عوامل الضعف مضيره الجنة . اللجنة أولاً في قلوب الناس ، واللجنة ثانياً على الأرض ، واللجنة ثالثاً حين يقاضيه قاضى قضاء الكون ، ذلك لأن الكائن في سمائه والكائن في كل منا ، تخفيه حين نشاء ونظهره إذا ظهر الآخرون .

حرية الصحافة ليست حرية البعض ..

ليست حرية الصحافة هي فقط أن يكون الكتاب والصحفيون أحراراً في التعبير عن آرائهم ولكنها أولاً وأساساً (جزء) من حق (الشعب كله) في التعبير عن نفسه ، الكتابة هنا يصبح دورها كدور المغنى .. ليس هدفه أن يتمتع الناس بحلاوة صوته .. ولكن المغنى الحقيقي هو الذى يغرينا ويحرضنا على أن نغنى نحن ، إذ الأصل أيضاً في الغناء أن يغنى الناس جميعاً . لعل هذا يفسر لى ظاهرة الخطابات الأخيرة التى وصلتني ، خطابات لم تعد تحمل (شكاوى) و (توجيهات) شخصية أو في معظمها لا تنعى مظالم لحقت بها ولكنها خطابات .. فوق ما تحمله من كلمات صادقة طيبة .. تحملني عبثاً روحياً مهولاً .. (تعبر) عن وجهات نظر وآراء وحتى حلول لمشاكلنا ، لا تكتفى حتى بالنقد وإنما ترجع المرض إلى السبب وتصل إلى الأساس وتبنى البلد والحلم الجديدين .. خطابات .. من فرط صدقها — ليست (أى كلام) .. ولكنها تصل ببلاغتها حد الصدق الفنى الرائع حتى تبدو بعض الكلمات التى نقرأها منشورة باهتة تماماً إلى جوارها .

ولكم كان يودى أن أنشرها كلها هنا .. أو على الأقل مقتطفات منها .. ولكن رغم فرحتي الغامرة بهذه الانطلاقة التعبيرية المذهلة فأرجو أن تقبلوا عذري أيها الأصدقاء فتمه اعتبارات كثيرة منها الساحة وظروف العمل والكلمات الصادقة الطيبة الموجهة إلى شخصي مرغمي على حرمان قراء هذه الكلمات من القراء (كتاباً)

الشمس لا تشرق فجأة

إذا الشمس غرقت

في بحر الغمام

ومدت على الدنيا

موجات الظلام

ومات البصر في العيون

والبصائر .

وغاب الطريق

في الخطوط والدوائر

يا بؤس المفهومية

مفيش لك دليل

غير عيون الكلام .

الأبيات للشاعر أحمد فؤاد نجم من ديوان عن دار الثقافة الجديدة في مصر . كنت قد قطعت الطريق الصحراوي على نفسي ، وأوغلت في الرمل كثيرا ، وحيدا ، أستمتع بالوحدة والسكون وربما الإحساس الكامل بالعدم . أزيز السيارات البعيدة على الطريق يضايقني كما يحرمك ناموس الريف من لذة الليل العظيم هناك . الوحدة أمر صعب في شريط ضيق يحمله أربعون مليون نسمة ، بحيث من كثرة وشدة وازدحام ما ترى

تضيق أحيانا ، وتما ، بالإنسان . كنت في الحقيقة أفكر في السراب ، تلك الظاهرة التي فسروها لنا (علميا) في الطبيعة بقولهم إنها ظاهرة سببها الانكسار الضوئي وقوانينه تلك التي تجسد لعين الإنسان العطشان التائه في الصحراء أنه ، هناك ، بعيدا ماء . ماء عذب يترقق ويلسع وينادي من يشربه ، ويلهث التائه في الصحراء جريا وراء الماء ، ولا ماء ، وإنما وراء كل سراب ، سراب . ويظل التائه العطشان يجري ويلهث ويحشد كل خلية من خلايا جسده ليحرق ويصل ، ولا يصل ..

ما أقصر العلم المعروف إلى الآن أن يقصر بعض الظواهر تفسيرها كليا متكاملا .. فالسراب ليس فقط ظاهرة علمية تحدث بسبب معامل الانكسار الضوئي ، السراب أيضا له سبب أقوى إنساني ونفسي .. فلو لم (ير) الإنسان ذلك السراب .. لو ، أدرك إدراكا كاملا وتاما وعميقا أنه حوصر بالرمل ، وتاه تماما ، وأن لا أمل ألبتة ، لمات ، أجل ، لمات .. فالحياة ليست هي القلب والبيض وإفرازات المعدة والأمعاء .. الحياة أولا وأساسا إرادة الحياة ، حتى في الكائنات الدنيا التي بلا عقل هي إرادة حياة غير واعية . عند الإنسان بالذات ، إرادة الحياة مرتبطة بالرغبة في الحياة ، ولا رغبة بلا (أمل) في الحياة .. بمعنى أن الحياة هي (الأمل) المستمر في الحياة والبقاء .. وفقدان الأمل تماما في الحياة غير اليأس . فاليأس وإن كان عدم قدرة على الأمل تماما وانعدامه . إنه يعني فقط أن العقل البشري قد سدت في وجهه جميع سبل الخلاص ، ولكن الأمل في الحياة نفسها لا يزال موجودا . ولكن فقدان الأمل انكاس هو الموت ، إذ بدون ذلك الشعور — حتى لو كان مرهقا ودقيقا لا يكاد

يرى — تحمداً تماماً رغبة الحياة ، الحياة ذاتها .. وإن كان سيظل الإنسان حياً ، فهو في الحقيقة سنيحاً موتاً أو سيموت حياً إلى أن يذوى تماماً ويدركه الموت الجسدى الحقيقى الكامل .

السراب — حتى السراب — ليس كارثة بالمره ، فهو قد يكون المعين على أن تبقى أحياء ، غشى ونجوى ونلهث وراءه إلى أن نعث على الماء الحقيقى ، قد لا نعبأ أبداً بهذا صحيح ، ولكن الطريق ليس أبداً أن نأمر أنفسنا حتى لا تذهب وراء الحلم والوهم ، ففى بقائنا — حتى بالسراب — إحياء فرصة أكبر وأطول للحياة ، بل ربما الفرصة الوحيدة للنجاة .

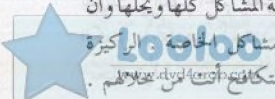
... و (عيون الكلام) كما يقول أحمد فؤاد نجم . وكما سبق أن قال كثير منا لنفسه ولغيره ، قد يكون السراب حين (يغيب الطريق في الخطوط والدوائر) .. فالكلمات ، حتى أصدق الكلمات ، ليست في النهاية سوى كلمات لا تغنى مطلقاً عن الحقيقة ، ولا يمكن أن تحل محلها ، إنما هى في النهاية تعين ذلك الإنسان المحاصر المرهق أن يظل حياً حتى يجد لنفسه الطريق ، وحتى يعثر ، بنفسه أيضاً ، على الحقيقة .. وكما لا بد للقارئ المحاصر من سراب من الكلمات كى يحيا ، فلا بد للكاتب أيضاً (مصدر السراب) أن يكون له هو الآخر سرابه الخاص الذى يترأى له حتى يظل قادراً على إفراز (عيون الكلام) ، ولو انطلقاً السراب أمامه ، وحوصر هو الآخر تماماً : لامت الكلمات على شفتيه أو سن قلمه تمهيداً لموته هو الشخصى بعد فترة قد تطول وقد تقصر .

كنت جالساً على حجر والصحراء ممتدة زمنية وجبلية ومتلونة

أمامى ، وضجة الحياة خافتة تماماً من حولى ، أفكر في هذا ، وأفكر بالمره في ذلك الخطاب الغريب الذى وصلنى من قارئ يقول فيه : « إذا كنت قد ذكرت أننا نتمتع بحرية التعبير وأن أحداً لم يحذف لك كلمة أو مقالة فأعتقدك أن تشر وتقول كذا وكذا وكذا » .

كنت أفكر في خطاب ذلك القارئ ، لا لأهميته الخاصة فهو مجرد خطاب واحد من بين طوفان من الخطابات وإنما لأنه يمثل قطاعاً من تفكير البعض . ذلك القطاع الذى يتصور أن الحرية الحقيقية هى أن — فجأة هكذا — وفي لحظات ، تنتقل من حالة الصمت الكامل إلى الحالة القصوى التى يكون لك فيها حرية أن تهدم المعبد كله إذا أردت وكأننا انتقلنا إلى كون آخر ، تحكمه قوانين أخرى ، وكأنما نحن غير موجودين في بقعة ما من عالم ثالث ، يحيا في ظروف ما أهولها ، ويثقل كاهله بميراث رتيب من التسلط والكيث وتاريخ طويل في محاربة الكلمة وقائلها وكاتبها .. بل محاربة الفكرة مهما تكن الفكرة ، والتفكير مهما يكن التفكير .

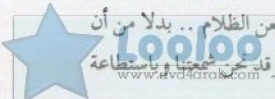
إنما خطأً وخطر هذا النوع من التفكير قائم على ركيزتين لا بد من إزالتها تماماً قبل أن تتصور بإمكاننا أن نتقدم خطوة . الركيزة الأولى هو هذا التصور القائم على تصور أن الآخرين زعماء كانوا أو كتاباً أو مفكرين أو قادة على أن الواحد منهم هو هرقل الذى سيقوم بحمل المسؤولية كلها وحده وأن عليه هو أن يحمل تبعات المشاكل كلها ويحلها وأن يكون (المسئول) الأوحد حتى عن حل مشاكل الخاصة والكبرى الثانية هى هذا اللجوء الغريب إلى الآخرين كشكاف عن حلولهم .



فبدلاً من أن يرسل القارئ خطابه هذا إلى المقصود بكلماته يحاول أن يحمّلك أنت مسؤولية خوفه من أن يخوض التجربة ويتحمل نتائجها ، يريد أن يرضى ضميره على حسابك أنت ويقول : لقد كتبت إلى فلان وحملت المسؤولية فكانه أدى كل ما عليه من واجب وكفى الله المؤمنين شر القتال .

هذا فهم خطير تماماً .. فالكاآب — أى كاآب — لا يمكن أن (يطلع الإنجليز من مصر وحده) . إنما هو فيما أعتقد يكتب ليس بهدف أن يزود الكون من حولنا بشمس ساطعة تضيء الظلام وتضئ النور الأواحد الوهاج ، إنما هو يكتب بهدف أن يضيء شمعة صغيرة ترى الآخرين كيف يضيئون شموعهم الخاصة ، بحيث من مجموع ملايين الشموع يتكون النور الجماعى الوهاج . والمثل الصينى البسيط القائل : بدلاً من أن تلغوا الظلام أضئوا شمعة وينطبق هنا تمام الانطباق .. فبدلاً من أن تعمر الآخرين بأن شموعهم هزيلة ، وتطالبهم بأن يستبدلوها ، وعلى الفور بشمس كبيرة باهرة ، ألا تحاول أنت : من جهتك ، أن تتحمل مسؤولية أن تضيء شمعتك الخاصة . أن تحاول حتى .. أن تبحث عن ثقاب ، إن ينطفيئ ثقابك ، أن تحاول مرة أخرى .. بدلاً من أن تواجه أنفاسك مع أنفاس الأعداء لإطفاء هذه الشمعة المتواضعة .. تفعل أبسط مبادئ المعاونة وأن تكون بقلبك حتى مع هذه الشمعة الوليدة .. ألا تدعو معى بقولك : اللهم احم شمعتى من أنفاس أصدقائى أما أنفاس أعدائى فأنا الكفيل بإخمادها . ألم تسمع أبداً عن المثل الشعبى الدارج : دارى على شمعتك تولع .

ألم أنك فى الحقيقة لا تريد الحياة لشموع الغير ولا لشموعك ، وإنما تريد أن يظل الظلام تاماً ودامساً ، لأن شعاعة الأمل تعنى أن تقوم وفوراً بالحركة والعمل وأنت لا تريد أن تتحرك ولا أن تعمل ولا أن تكبد نفسك مشقة أن تحمل مسؤولية أن تخطو خطوة ، ولهذا تريد إقناع نفسك أن كل شمعة توقد إنما هى نور زائف مخادع وأن الأصل هو أن الظلام مطبق وأن لا فائدة .. طيب يا سيدى .. لا فائدة .. نتحجر مثلاً ؟ نحن ؟! نضل مثلك ونشل إرادتنا وتفكيرنا ومصادر الأمل فينا ونغمد أى سراب ونستعد للموت حياة أو للحياة موتاً . إن حلم أن تشرق الشمس فجأة ، كاملة وساطعة ، حلم الموتى يأسا وكسلا وخمود همة ، فأبدلنا تشرق الشمس فجأة ، فهذه معجزة ولسنا وما كنا أبداً فى زمن معجزات ، إنما تشرق الشمس من صنع الإنسان ، ملايين الإنسان ، تشرق بشموع يوقدها كل منا ، ومن مجموع هذه الشموع ، من ملايينها ، يتبدى النهار ، ويبدو الطريق ، ونسير معاً فى النور .. وأى شئ سوى هذا التصور لشرق الشمس وظهور النهار هو عبث أطفال وأحلام منتحرين يأسا وكسلا وخمود همة .. شمس الحياة من صنع الإنسان ، ليس الإنسان الواحد ، وإنما كل إنسان : والنور نورنا كلنا حين يساهم كل منا بشمعتة ، ويجب أن نتعلم أن نكف عن لعن الآخرين لأنهم نجحوا فى إضاءة شمعة ، وبدلاً من أن نلعن الظلام .. بدلاً من أن نلعن الشمعة الواحدة الموقدة ، نتعلم كيف نوقد شمعة باسطة



كل منا لو أراد أن يوقد شمعته ، فالشمع المطفأ في جيوبنا وحولنا ومعنا ،
كل ما في الأمر أننا لا نريد أن نتعب أنفسنا ونحمل مسئولية الإنارة لغيرنا ،
ونكفي أنفسنا شر القتال . أبدا ، حتى الشمس ، لا تشرق فجأة .. نحن
بالتدريج نصنعها ونصنعها .

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه